الدكتور أحمد الطاهري

المغرب الأقصى ومملكة بني طريف البرغواطية

خلال القرون الأربع الهجرية الأولى



حفريات تاريخية في أصول مجهولة





المغرب الأقصى
ومملكة بني طريف البرغواطية

خلال القرون الأربع الهجرية الأولى

الدكتور أحمد الطاهري



المغرب الأقصى
ومملكة بني طريف البرغواطية

خلال القرون الأربع الهجرية الأولى

حفريات تاريخية في أصول مجهولة

الغلاف :
أسوار شالة حاضرة البرغواطيين
تصوير فاطمة الزهراء أيتوتهن

الطبعة الأولى 1426-2005

إلى



إهداء

إلى روح مؤرخ المغرب الذي أفنى عمره مجتهدا في إبراز معالمه

دون أن يحظى بما يستحقه من تقدير

العلامة محمد المنوني

وإلى

أبناء البلد من شباب المجتهدين في طلب المعارف

وعموم المهتمين بذاكرة المغرب التاريخية

مقدمة

ما ان انتهينا في خريف 1998 من إنجاز كتاب من 252 صفحة عن تاريخ مملكة بني صالح في بلاد نكور، حتى تجلت إمكانات ترميم فصول واسعة من تاريخ المغرب الأقصى، مما ظل في غياهب النسيان. وقد أشرنا في حينه إلى ما تنم عنه النتائج المستخلصة من دعوة عموم الباحثين إلى التوقف عن مسايرة الدعوات التي ضجت على مدار قرن مضى بالتنظير للقرون المظلمة، والتذرع بشح المادة التاريخية، وبث اليأس من ترميم فصول تاريخ البلد المخرومة.

وإذا كان لجيل الرواد[1] من مؤرخي المدرسة الفرنسية ـ وهم في طور التعرف على أولى مستويات المكتبة المغربية الأندلسية ـ ما يبرر ذاك الانطباع، فلا يصح لأجيال المؤرخين المغاربة الاستغراق في ذات المنحى، وقد انكشف للعموم عمق المستويات الغير المسبورة من الإرث المكتوب. ناهيك عن ثراء المخلفات الأثرية، التي ما زالت في معظمها متوارية عن الأنظار. ولا نخفي ما كان لمقال صدر خلال السبعينات من القرن الماضي لمحمود إسماعيل عبد الرزاق عن حقيقة المسألة البرغواطية، من تأثير في شد انتباهنا ونحن طلاب في مدارج الجامعة، إلى الخرم التي مزقت إلى حد إتلاف فصول واسعة من تاريخ المغرب الأقصى.

وبينما كنا نتأهب لاستقبال الموسم الجامعي الماضي بإعداد محاضرات لطلاب التاريخ والحضارة في أصول تاريخ المغرب، وهم مقبلون على

[1] عن حدود معرفة رواد مؤرخي المدرسة الفرنسية خلال بدايات القرن الماضي بمصادر تاريخ المغرب، أنظر:
E.F. Gautier, *Les siècles obscures du Magreb* (=*Les siècles obscures)*, Paris, 1927, pp.35-94. وعن المستويات التي غدت عليها بعدئذ، راجع: العلامة محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط ج1، 1983.

الانخراط في نظام جديد للتكوين، لم يطاوعنا القلم على ترقيع الكلام من خلال دفاتر مستهلكة. فما كان إلا أن عقدنا العزم على إنجاز هذا العمل، وتقديم زبد خلاصاته فصلا بفصل، في شكل محاضرات. وكم كان الشعور بالارتياح عميقا وهم يتابعون بشغف مسارات البلد، وهو ينتقل من العهد القديم لينضوي في دار الإسلام، حيث كان له البلاء الحسن. ولم يدخر نبهاءهم وسعا في التطلع أثناء الدرس إلى استرجاع جزء من الذاكرة التاريخية التي عفا عنها الزمن، على مدار قرون عز العطاء الحضاري الأربعة. وقد أبدوا ـ برغم مواطن الخلل في تكوينهم ـ من الحرص على اكتساب المعرفة ومن الفطنة في طرح السؤال، ما يدعو جمهرة المدرسين إلى مراجعة القول الشائع بلامبلاة وعدم اكترات الأجيال الصاعدة. والغالب على الظن أن الطلاب وهم في مقتبل العمر ومكتمل قواهم، لم يصادفوا بالجامعة نوافذ مشرعة على المعارف المتجددة، وقد نالهم الضجر من ثقافة حلزونية ظلت على العهد تدور في حلقة مفرغة.

ولا نخفي الاندهاش من النتائج الغير المنتظرة التي صادفتنا أثناء التعمق في دراسة جملة من القضايا المرتبطة بهذه الحقبة الغامضة من تاريخ المغرب. من ثم الإصرار على تحويل وجهة العمل من إعداد محاضرات للطلاب إلى إنجاز كتاب موجه للمختصين وعموم القراء والمهتمين. غاية الرجاء أن يكون لنا نصيب في شد الانتباه إلى الأجزاء المخرومة من ذاكرة البلد التاريخية، لعل الجهود تتكاثف في أجل قريب بين المؤرخين والمحققين والأثريين من أجل استكمال ترميمها. ويتعلق الأمر في هذا العمل بمحاولة لَمّ المفاصل المتحكمة في صياغة تاريخ المغرب الأقصى، منذ الفترة السابقة للإسلام إلى حين التأهب لقيام امبراطورية المرابطين الواسعة، على مدار حوالي أربعة قرون من الزمن. وأثناء ذلك، آثرنا التركيز على الفصول المجهولة، مع إغفال النظر في التواريخ المعروفة.

وقد أمكننا الإمساك ببعض الخيوط الكاشفة في بصمات باهتة عن جملة من ممالك المغرب الأقصى السابقة للإسلام. أبرزها مملكة البرانس القائمة حول حاضرة سقوما، وتمتد شمالا إلى ساحل بادس ببلاد الريف، وشرقا إلى أحواز تلمسان. وقد اندرجت ضمن دار الاسلام – على عكس ما هو شائع – رغبة واختيارا، منذ الخمسينات من القرن الهجري الأول. أما مملكة غمارة المنتظمة حول قاعدتها بسبتة، فكانت تشغل منطقة المجاز بما في ذلك كورة الجزيرة الخضراء، ممتدة نحو الجنوب إلى مصب نهر أسمير بسلا، ونحو الشرق إلى مواطن صنهاجة مفتاح. وقد اندمجت هي الأخرى في دار الاسلام بواسطة عقد الصلح والمسالمة منذ سنة 62 للهجرة، مع بقاء أهلها على دين النصرانية. كما تجلت معالم مملكة سجلماسة القديمة التي اندرجت في سلكها قبائل هوارة ومكناسة وكتامة، وظلت إلى حين الفتح تحت حكم ملك يدعى طامون. كما ظلت بلاد السوس منتظمة هي الأخرى في مملكة قائمة حول قاعدتها بإيجلي، إلى أن أدرك الإسلام آخر ملوكها المسمى مزدانة.

وليس مصادفة أن يكون أعظم ملوك المغرب الأقصى حينئذ كسيلة بن لمزم البرنسي القائم بحاضرة سقوما، أول من أسلم وحسن إسلامه بهذا الصقع اختيارا واقتناعا بالرسالة المحمدية، إذ كان قبلئذ من أهل الكتاب على دين النصرانية. وقد مال كسيلة بعدما اتضحت لكافة أهل المغرب الأهداف الغير المعلنة للنظام الأموي، إلى تأسيس أول امبراطورية مغربية في الإسلام، امتدت من سواحل البحر الأخضر المحيط إلى تخوم طرابلس. وسرعان ما تمت بيعته بالقيروان بصفته أميرا "على من فيها من المسلمين"، حسبما تم إثباته نصا في المصادر العربية المتداولة. تجدنا إذا – على عكس ما هو شائع – أمام أول أمير مغربي أمازيغي للمسلمين، قد تم تنصيبه بمبادرة مغربية لشغل أعلى منصب سياسي بكافة ربوع المغرب وإفريقية.

ويبدو أن إلباس تاريخ المغرب إبان الفتوحات نفس لبوس الصراع الذي دار بالحجاز بين كفار قريش والمهاجرين الأولين، كان له أبلغ الأثر في تشويه حقائقه وطمس معالمه، بما يوافق أهواء خلافة بني أمية بدمشق. وبقدرما تأجج الصراع العسكري بين الجيوش الأموية المتدفقة في حملات متعاقبة طوال ما ينيف عن نصف قرن من الزمن، بقدرما ظل أهل المغرب مستمسكين بسيادتهم السياسية. لكن لم يحدث أن اختلف أهل المغرب الأقصى من البربر الأمازيغ مع الفاتحين من العرب وغيرهم بشأن عبادة مفترضة للأصنام، أو رفض لرسالة سيد المرسلين. وهو ما تتبعنا تفاصيله من خلال أوثق المصادر العربية، بما يثبت إلى حد الاندهاش ميل كافة أهل المغرب الأقصى إلى الإسلام اختيارا، وتجاوز ما ساد لديهم قبل ذلك من الأديان: نصرانية ويهودية ومجوسية.

وبقدرما فشل السيف في إدماج أهل المغرب في نظام الخلافة القائم بدمشق، بقدرما فشل أهل المغرب في الاحتفاظ بواسطة المقاومة على نظام بديل قادر على رسم آفاق للخلاص. وهو ما اتضح جليا على إثر تفكك ثاني الإمبراطوريات المغربية المخضرمة بين العهدين القديم والإسلامي. ويتعلق الأمر بالامبراطورية التي انتظمت حول نواة قبائل جراوة البترية بجبال الأوراس، تحت قيادة الإمبراطورة المغربية دهيا بنت ماتية بن تيفان الجراوية المعروفة لسداد رأيها ونفاذ بصيرتها باسم الكاهنة. فما كان إلا أن مال الطرفان على إثر ذلك إلى التماس حل وسط يدمج أهل المغرب في النظام الجديد. وقد تجلت معالم ذلك بإسناد ولاية كافة أقاليم المغرب الأقصى، من أحواز تلمسان إلى تخوم بلاد السوس، لطارق بن زياد النفزي. ويتعلق الأمر بأول وال مغربي أمازيغي حكم المغرب الأقصى والأندلس في الإسلام بمبادرة من الخلافة الأموية. وقد شغل هذا المنصب طوال سبع سنوات، منذ حصوله على ولاية المغرب الأقصى وتفويض بفتح ما استطاع من البلاد القاصية سنة 85 هجرية

إلى حين عزله عن حكم العدوتين المغربية الأندلسية، بعد إنجاز فتح عظيم للأندلس سنة 92 للهجرة.

ولم تكن قضايا الفكر وما يرتبط بالعلوم والحكمة والشرائع والأحكام، أقل إثارة للانتباه. نذكر من ذلك المظاهر الكاشفة عن دور المغرب الأقصى في صياغة الأصول المبكرة لمذهب أهل السنة والجماعة، المعروف في مصادر العصر بمذهب أهل الاستقامة والاقتداء. وهي القواعد المذهبية التي رأت النور بادء ذي بدء بتمسامان ثم بحاضرة نكور، خلال نهايات القرن الأول وبدايات القرن الثاني للهجرة. كما أمكننا انتشال أسماء ثلة من أوائل علماء المغرب الأمازيغ ممن يرجع إليهم الفضل في تحقيق النقلة الفكرية والثقافية للبلاد بين العصرين.

ويشكل المذهب البرغواطي ـ المغربي النشأة الأمازيغي اللسان ـ قمة العطاء الفكري والفلسفي والعلمي لأهل المغرب الأقصى خلال هذه الفترات التاريخية المبكرة. ومن خلال تتبع أصوله، أمكن الوقوف على بعض قنوات التلاقح بين حضارات الشرق والغرب في بلاد المغرب. ولم يكن في الحسبان الوقوف على مواطن الاتصال بين المذهب البرغواطي ببلاد تامسنا المصمودية، وحركة حاميم ببلاد غمارة المصمودية، ومدرسة بن مسرة الجبلي المصمودي بالأندلس. إنها الفصول الممزقة من نفس التيار المذهبي المغربي النشأة، وقد انطمست كافة حلقاته نتيجة توالي بتر مفاصله، ومداومة كيل التهم لأتباعه بالمروق والزندقة، واجتثاث جذوره.

ولا نستبعد أن يكون أقطاب المتصوفة بالمغرب والأندلس من أمثال ابن عربي وابن سبعين وابن قسي وأقطاب المجددين من أمثال المهدي بن تومرت وفكره المهدوي قد اغترف من ذات المعين المذهبي. ولعل فيما قدمناه ضمن

هذا الكتاب من تحاليل، ما يدعو الباحثين في تاريخ المغرب والمهتمين بتاريخ الفكر المغربي الأندلسي، لإجراء المراجعات المناسبة في أكثر من زاوية.

إلا أن أبرز ما ينطوي عليه هذا الكتاب، إعادة بناء تاريخ مملكة بني طريف البرغواطية ـ فصلا بفصل ـ منذ تأسيسها على يد طريف بن عبد الله سنة 122 هجرية إلى غاية سقوطها على يد المرابطين سنة 452 هجرية. وقد حاولنا في حدود ما تسمح به المادة التاريخية المتاحة، نسج سلسلة الأحداث المرتبطة بتعاقب ملوك بني طريف التسعة، على سدة الحكم بحاضرة شالة. وقد أمكننا من خلال ذلك بلورت ثلاثة مفاصل تاريخية، تفيد أيما إفادة في إعادة كتابة مجمل تاريخ المغرب الأقصى خلال القرون الأربع الهجرية الأولى. ولعل في ذلك ما يكشف عن معالم هذه الحلقة التاريخية المجهولة في أفق حث السعي نحو جعلها معلومة.

غاية الرجاء أن نكون قد اجتهدنا، فإن أصبنا كان لنا الأجرين، وإن أخطأنا كان لنا أجر الاجتهاد. والله نسأل أن يديم علينا نعمة الإيمان.

وبالله التوفيق

الدكتور أحمد الطاهري

كابو نيكرو يوم الجمعة 12 ذو القعدة 1425 هجرية

الموافق 24 دجنبر 2004

الفصل الأول

نشأة بلاد المغرب

وفصول الانتقال من العهد القديم إلى دار الإسلام

"وأما بلاد المصامدة وأرض مراكش فقال ابن عبد الحليم اتفق أشياخ بلادنا من أهل العلم أنها أسلم عليها أربابها وليس فيها صلح ولا عنوة"

الونشريسي، المعيار المعرب، ج6، 134

أولا ــ في المصطلح والأصول: المغرب أم بلاد طنجة

من المفيد التذكير بأن المصادر الإغريقية دأبت على وسم بلاد المغرب في القديم باسم موروسية، بينما مالت الكتابات اللاتينية بعدئذ إلى نعتها بمورطانية. وهو الاسم الذي ظل متداولا إلى حين اندماج بلاد المغرب في دار الإسلام، حسبما يتضح من رواية محمد بن يوسف الوراق التاريخي الذي عمد إلى ضبط حدود هذا الكيان المتأصل في التاريخ القديم بالقول: "واسم طنجة مورطانية وعرضها من البحر إلى الرمال التي هي أول بلد السودان"[1]. وهو ما يتضح أيضا من خلال حوليات أستوريش التي ذكرت "أنه بعد جواز البحر ...[تصادفنا] نكور أحد مدن مورطانية"[2].

ويتعلق الأمر بمصطلح متأصل في لسان أهل البلد من البربر الأمازيغ، مركب من جذعين /أمور/ ومعناه الأرض و/طانيت/ أي اللات القديمة المعبودة ببلاد طنجة. وهو نفس ما ينطبق على جنوب شبه جزيرة إيبيريا التي ساد بها اللسان البربري الأمازيغي[3] خلال العصور القديمة السابقة عن العهد الروماني، إذ عرفت حاضرتها باسم "مرطالقة وتفسيره: المط....من الأرض"[4]. ومن المعلوم أن عبارة /أمور/ ما زالت إلى اليوم تشكل الجذر الدال على معنى الأرض في اللسان الأمازيغي. ومن هذه العبارة المتأصلة في لغة أهل البلد تم تركيب أسماء جملة من الأعلام المغربية القديمة مثل: موريطانية الطنجية أي /أرض طانيت/ في إحالة على اللات القديمة، ومراكش أي /أرض ياكش/

---

[1] أنظر: البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، (= المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب) نشر دي سلان، باريس، 1965، 21.

[2] Crónica de Alfonso III versión «A. Sebastián», in *Crónicas Asturianas*, Introducción y edición crítica de Juan Gil Fernández, Universidad de Oviedo, Oviedo, 1985, p. 221

[3] وهو ما كشفنا عنه في أكثر من مناسبة ضمن دراساتنا السابقة من خلال استقصاء المادة المصدرية القديمة المبثوثة في هذا الشأن ضمن متون جملة من المصادر العربية.

[4] العذري، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك (=ترصيع الأخبار)، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965، 96.

بمعنى /أرض الله/ في اصطلاح البربر الأمازيغ، وغيرهما من أسماء الأماكن والأعلام الجغرافية ببلاد المغرب والأندلس.

إلا أن أهل المغرب قد اندرجوا منذ أقدم العصور وإلى حين اندماجهم اختيارا في دار الإسلام على إطلاق اسم بلاد طنجة على مجمل وطنهم، نسبة لحاضرة "ملوك المغرب [إذ] كانت دار مملكتهم طنجة"[5]. وقد تواتر القول لدى المصنفين ممن تناقلوا أخبارها أن طنجة مدينة "قديمة أزلية ليس بالمغرب أقدم منها"[6]. وقد بلغ الأمر بابن الجزار القيرواني[7] اعتبارا لأزلية هذه الحاضرة المغربية الموسومة بالقدم، إلى القول: "أنه ليس بعد مكة ــ شرفها الله ــ أقدم منها"، مما يقدم مؤشرا دالا على عراقة الحضارة المغربية الأمازيغية اللسان الموغلة في القدم.

وتمتد بلاد طنجة من الغرب إلى الشرق على طول الساحل المعروف في المعاجم الجغرافية العربية باسم "بحر المغرب"[8] أو "البحر المغربي"[9] إلى أن تتصل بأحواز مدينة تيهرت التي تعتبر حدا فاصلا بين بلادي طنجة وإفريقية. يتضح ذلك من خلال الروايات العربية المرتبطة بعصر الفتوحات التي ذكرت تيهرت بالقول: "وهي من آخر إفريقية"[10]. وهو ما أكدته المصادر الجغرافية[11] التي نصت على أن "طنجة هي آخر حدود إفريقية من المغرب".

---

[5] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 109.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب(=البيان المغرب)، نشر ج.س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، بيروت، 1980، ج2، 26.

[7] أنظر: الزهري، كتاب الجغرافية (= كتاب الجغرافية)، تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ، 113.

[8] ياقوت الحموي، كتاب معجم البلدان (=معجم البلدان)، دار صادر، بيروت، 1995، م 4، 43.

[9] ابن حوقل، صورة الأرض (=صورة الأرض)، ليدن 1938، 190.

[10] البيان المغرب، ج1، 25.

[11] الحميرى، الروض المعطار في خبر الأقطار (=الروض المعطار)، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1984، 396؛ معجم البلدان، ج4، 43. واضح من خلال مصطلحي بلاد طنجة وإفرقية المتداولين على لسان أهل البلد خلال الفترة السابقة للإسلام خطأ تقدير بعض رواد المدرسة الفرنسية ممن أثبتوا أن المغرب قد ظل بلدا بدون اسم، ولم يترددوا عن إشعار القراء كيف أصبحت البلاد تعرف تدريجيا باسم إفريقيا الفرنسية، انظر: *Les siècles obscurs*, pp. 7-8.

أفصح عن ذلك أبو مروان عبد الملك بن موسى صاحب كتاب المقباس الذي تناول أقصى امتدادات إفريقية نحو الغرب بضبط "حدها إلى مدينة تيهرت، ويليها بلاد المغرب وهي بلاد طنجة"[12]. ولا غرو، فمن المتعارف عليه لدى مشاهير الجغرافيين المشارقة اعتبار "كورة تيهرت بأسرها من إفريقية"[13] تليها بعدئذ من جهة الغرب بلاد طنجة. يتجلى ذلك أيضا من خلال ذكر تتابع الأقاليم التي اخترقها عقبة بن نافع الفهري زمن الفتح انطلاقا من الشرق إلى الغرب، إذ بعدما "نزل على المغرب بتيهرت"[14] ارتحل عنها فـــــــ"دخل طنجة"[15]. لعل في مجمل هذه الشواهد التاريخية ما يفصح عن مكانة تيهرت وأحوازها باعتبارها خلال القرون الهجرية الأولى الحد الفاصل بين إفريقية والمغرب.

ويتضح من خلال القراءة في كتب الفتوح وتتبع روايات الإخباريين الأوائل أن ما اصطلح على تسميته لدى أهل المشرق باسم بلاد المغرب يتضمن فضلا عن إقليمي برقة وطرابلس المتاخمين لمصر ثلاث كيانات أساسية منتظمة في شكل بلدان وهي: إفريقية وطنجة والأندلس. ولا تعوزنا الإشارات التاريخية الدالة على أن المقصود ببلاد طنجة كافة الامتدادات القصوى المتاخمة لإفريقية من جهة الغرب. فقد ذكر صاحب أخبار مجموعة[16] أنه على إثر استقامة الأمور لعقبة بن نافع في إفريقية "غزا سنة ثلاث وستين...طنجة". كما تناول ابن عذاري[17] خروج موسى ابن نصير بعدئذ بحوالي ثلاثة عقود من الزمن "غازيا من إفريقية إلى طنجة". وبالمثل فقد ورد ذكر "إفريقية

---

[12] البيان المغرب، ج1، 5.

[13] الإصطخري، المسالك والممالك (=المسالك والممالك)، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني و محمد شفيق غربال، القاهرة، 1961، 34.

[14] الرقيق القيرواني، قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب (=تاريخ إفريقية والمغرب)، تحقيق عبد الله العلي الزيدان و عز الدين عمر موسى، بيروت، 1990، 12.

[15] نفسه، 14.

[16] مؤرخ مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، (=أخبار مجموعة 1867) مجريط 1867، 3.

[17] البيان المغرب، ج1، 43.

وطنجة"[18] باعتبارهما كيانين متجاورين في أحد أقدم كتب الإمامة والسياسة الموضوعة في الإسلام. وهو ما يتجلى بوضوح تام من خلال الروايات المعتمدة في ضبط تواريخ فتوح المغرب التي تنص على ذكر طنجة[19] باعتبارها كيانا متكاملا إلى جانب إفريقية والأندلس. وليس أدل على رسوخ استعمال مصطلح طنجة خلال القرون الهجرية الأولى للدلالة على مجمل البلاد الواقعة في أقصى الجناح الغربي من دار الإسلام، مما ورد على لسان إمام المدينة مالك بن أنس من أحكام تخص "البعيد الغيبة مثل الأندلس وطنجة"[20] اعتبارا لموقعهما النائي عن أرض الحجاز.

وفي اتجاه الجنوب تمتد بلاد طنجة على طول ساحل البحر الأخضر المحيط[21] إلى أن تشارف بلاد السودان، حسبما سلف ذكره. وليس أدل على تعمق بلاد طنجة في اتجاه صحراء لمتونة إلى مشارف بلاد السودان مما ذكره أحدهم عما كان "بإزاء طنجة في البحر المحيط [من] الجزاير المسماة فرطناتش أي السعيدة"[22]. لذلك اندرجت بعض المصنفات التاريخية وكتب المسالك والممالك والمعاجم الجغرافية على ذكر امتدادات البلاد وتقدير مساحتها مجازفة بالقول "إن عمل طنجة مسيرة شهر في مثله"[23] طولا وعرضا.

وتندرج ضمن بلاد طنجة جملة من الأقاليم أبرزها إقليم "السوس"[24] الذي ورد ذكره في سياق حملات الفتح الأولى. وهو على غرار طنجة من أسماء

---

[18] ابن قتيبة، الإمامة والسياسة (=الإمامة والسياسة)، تحقيق طه محمد الزيني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت بدون تاريخ، ج2، 67.

[19] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس (=فتوح إفريقية والأندلس)، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، 1964، 71.

[20] الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب (=المعيار المعرب)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1991، ج 5، 50.

[21] ابن كثير، البداية والنهاية (=البداية والنهاية)، تحقيق عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غادي بيضون، بيروت، 2002، ج 9، 46.

[22] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 109.

[23] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 109؛ معجم البلدان، ج 4، 43؛ البيان المغرب، ج1، 26؛ انظر كذلك: الروض المعطار، 396.

[24] فتوح إفريقية والأندلس، 58، 59.

الأعلام الجغرافية المتأصلة في لسان أهل البلد منذ العصر السابق للإسلام. مع ذلك فمن المفيد الانتباه إلى دأب بعض المصادر على التمييز بين طنجة والسوس باعتبارهما كورتين متكاملتين ومتجاورتين على امتداد ساحل البحر الأخضر المحيط. فقد ورد لدى ابن قتيبة[25] ذكر "طنجة والسوس" باعتبارهما ولاية واحدة. وبالمثل فقد تناول الإصطخري[26] بالذكر "طنجة والسوس" في سياق حديثه عن مكونات بلاد المغرب. وتشير بعض المعاجم الجغرافية إلى هذا الإقليم بالقول: "والسوس بلد بالمغرب كانت الروم تسميها قمونية"[27]. وفي قول آخر "أن قمونية هي المدينة المعروفة بسوس المغرب"[28]. إلا أن ثمة اختلاف طفيف في رسم البلد إذ ذكر في بعض المصادر الجغرافية باسم "أرض قمنورية متصلة بالبحر المظلم ويتصل بشرقيها صحراء عليها طريق تجار أهل أغمات وسجلماسة ودرعة والنول الأقصى إلى بلاد غانة وما اتصل بها"[29].

ومن المعلوم أن بعض الجغرافيين المشارقة ينسب إقليم السوس إلى مدينة قديمة إذ اعتبروا أن "السوس الأقصى اسم المدينة إلا أنها كورة عظيمة"[30] أيضا. وهو ما ورد لدى محمد بن عبد المنعم الحميري[31] الذي حدد موقع "السوس في أقصى بلاد المغرب وهي مدينة جليلة حاضرة جامعة لكل خير وفضل". ولقد مال أحدهم إلى إثبات الحاضرة المقصودة بالقول تصريحا أن "مدينة السوس اسمها تارودنت"[32]. وفي نفس السياق ورد على لسان

---

[25] الإمامة والسياسة، 67.

[26] المسالك والممالك، 33.

[27] معجم البلدان، ج3 281. وهي غير مدينة قمونية من أعمال إفريقية الواردة لدى البكري، المغرب، 75. وقد تناولها غيره بالقول: "قمونية مدينة بإفريقية كانت موضع القيروان قبل أن تمصر" معجم البلدان، ج4، 399.

[28] معجم البلدان، ج4، 399. وقد حدد موقعها بطليموس كالتالي: "طولها ثلاث وثلاثون درجة وتسع دقائق وعرضها إحدى وثلاثون درجة وأربعون دقيقة تحت تسع درج من السرطان وخمس عشرة دقيقة" نفس المصدر والصفحة.

[29] الروض المعطار، 488.

[30] المسالك والممالك، 34.

[31] الروض المعطار، 229.

[32] ابن سعيد، كتاب بسط الأرض في الطول والعرض (=بسط الأرض)، تحقيق خوان فرنيط خينيس، معهد مولاي الحسن، تطوان 1958، 58.

الجغرافي السبتي الشهير الشريف الإدريسي[33] ذكر "تارودنت السوس". كما ذكرها الرقيق القيرواني[34] باعتبارها من مدن السوس الواقعة في "مغرب مدينة طنجة التي تسمى تارودانت"، على حد تعبيره. ويقدم الجغرافي المراكشي المجهول[35] رواية مخالفة لما سبق، إذ ينص على أن "قاعدة بلاد السوس مدينة إيجلي وهي مدينة عظيمة كبيرة قديمة أزلية".

إلا أن قدامى أهل القلم لم يغفلوا ذكر تفرع السوس في منطقتين متجاورتين: إحداهما تدعى "السوس الأدنى وهو خلف طنجة"[36]. أكد ذلك ابن خرداذبه[37] بقوله: "وخلف طنجة السوس الأدنى". ونتوفر بهذا الخصوص على رواية منقولة عن أصل تاريخي مفقود، تعتبر مدينة سلا منتهى بلاد طنجة في اتجاه الغرب، ومبتدأ السوس الأدنى نحو الجنوب. وهو ما تناولته في صيغة ضمير المخاطب بالقول: "وإذا جزت سلا وأخذت إلى ناحية الجنوب، تركت مغرب الشمس يمنة وأخذت منها قافلا إلى القبلة، فتسمى تلك البلاد بلاد تامسنا ويقال لها أيضا بلاد السوس الأدنى، وحدها إلى جبل درن"[38]. وقد قدر الواقدي[39] المسافة الفاصلة بين الحدين في سياق ذكره للراكب من "السوس الأدنى وبينه وبين السوس الأقصى نيف وعشرون يوما". بينما يتناول غيره مسافة الإقليمين بالقول: "ومن السوس الأدنى إلى السوس الأقصى مسيرة شهرين وبعده بحر الرمل"[40].

---

33 نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (=نزهة المشتاق) مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة بدون تاريخ، 229.
34 تاريخ إفريقية والمغرب، 14.
35 كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، (=كتاب الاستبصار) تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، 1985، 212.
36 البلاذري، فتوح البلدان، (=فتوح البلدان) تحقيق رضوان محمد رضوان، بيروت 1983، 230. عن السوس الأدنى انظر كذلك، فتوح إفريقية والأندلس، 71.
37 المسالك والممالك (=مسالك ابن خرداذبه)، تحقيق دس خويه، بريل 1889، 89.
38 البيان المغرب، ج1، 5.
39 انظر: فتوح البلدان، 232.
40 معجم البلدان، ج 3، 281.

كما يتواتر ذكر "السوس الأقصى" في الحوليات التاريخية والمصنفات الجغرافية وكتب الفتوح[41]. ويحدد ابن خرداذبه[42] موقع هذا الإقليم بالقول: "وخلف السوس الأدنى السوس الأقصى". بينما يفصح ابن عذاري[43] عن امتداداته الجنوبية ذاكرا أن "بلاد السوس الأقصى يقال لها بلاد ماسة ويتصل السوس الأقصى ببلاد الصحراء إلى بلاد السودان". ولعل في تفرع الأقاليم المنضوية في سلك البلاد المعروفة قديما باسم طنجة ما حذا بالمؤرخين إلى الحديث عنها بالجمع ذاكرين "طنجة وأقاليمها"[44]. وثمة تعابير مماثلة من قبيل: "طنجة وما والاها من المغرب الأقصى"[45] صيغت لنعت مجمل البلد المشرف على البحر المحيط في أقصى الجناح الغربي لدار الإسلام. وهي التعابير التي ما فتئت تحل بالتدريج خلال القرون الهجرية الأولى محل الصيغ الموروثة عن العهد القديم.

ومن المعلوم أن عبارة "المغرب"[46] استعملت بادئ ذي بدء لدى الجغرافيين المشارقة للدلالة على مجموع المناطق الواقعة غرب مدينة السلام بغداد، باعتبارها الحد الفاصل بين جناحي دار الإسلام. مع ذلك، من المفيد الانتباه إلى المضمون الإداري لمصطلح المغرب الذي ارتبط ببواكير نظام الكور والأقاليم المتدرج انطلاقا من حاضرة الخلافة الأموية بدمشق. ولا غرو، فقد تم إقرار مدينة الفسطاط بمصر باعتبارها أول قاعدة لمجمل البلاد المغربية التي تضمنت: "مصر وبرقة إلى إفريقية وناحية تنس إلى سبتة وطنجة"[47]. ويعتبر مسلمة بن مخلد "أول من جمع له المغرب كله"[48] في خلافة معاوية بن

---

[41] الإمامة والسياسة،ج2، 58؛ تاريخ إفريقية والمغرب، 15؛ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 74؛ فتوح البلدان، 232؛ صورة الأرض، 61؛ البيان المغرب، ج1، 6؛ الاستبصار، 211.

[42] مسالك ابن خرداذبه، 89.

[43] البيان المغرب، ج1، 6.

[44] نفسه، ج1، 52.

[45] نفسه، ج1، 51.

[46] راجع بهذا الخصوص على سبيل المثال: مسالك ابن خرداذبه، 72- 83.

[47] صورة الأرض، 60.

[48] البيان المغرب، ج1، 21.

أبي سفيان، من أطراف إقليم مصر إلى طنجة، وذلك سنة خمس وخمسين للهجرة (674 م). من الطبيعي في ظل هذا السياق أن يقدر المؤرخون "أن حد المغرب هو ضفة النيل بالإسكندرية إلى آخر بلاد المغرب وحده مدينة سلا"[49] المشرفة على البحر المحيط.

مع ذلك ظلت مصادر العصر تميز بين "مصر والمغرب"[50] باعتبارهما إقليمين متكاملين ضمن النظم الإدارية القائمة. وهو التمايز الذي زاد رسوخا على إثر نقل قاعدة المغرب من الفسطاط بمصر إلى قيروان إفريقية. وعلى شاكلة ما حدث بمصر، سرعان ما أفضت التطورات اللاحقة إلى بلورة تقاطب إقليمي جديد يميز بين "إفريقية والمغرب"[51] باعتبارهما إقليمين متجاورين ضمن النظم المستحدثة. وسرعان ما تبلورت المعالم الجغرافية لحدود المغرب التي ضبطها أحدهم بالقول: و"حده من مدينة مليانة وهي آخر حدود إفريقية إلى آخر جبال السوس التي وراءها البحر المحيط"[52]. فما كان بعدئذ إلا أن تهيكلت الأقطاب الحضارية الثلاث المكونة للغرب الإسلامي، ممثلة من جهة في "إفريقيا المغرب"[53] التي تمحورت حول قاعدة القيروان. بينما تقلصت دلالات عبارة المغرب وأصبحت مقرونة من جهة أخرى بنطاق محدد جغرافيا وحضاريا في "بلاد المغرب وهي بلاد طنجة"[54]. ومن المعلوم أن قطبا حضاريا ثالثا قد تشكل بالضفة المقابلة من بحر المجاز باسم بلاد الأندلس. وما كاد القرن الهجري الأول ينصرم حتى تبلورت أسس المحاور الثلاث التي شكلت أعمدة الجناح الغربي لدار الإسلام: إفريقية والمغرب والأندلس.

---

49 نفسه، ج1، 5.
50 فتوح إفريقية والأندلس، 55؛ فتوح البلدان، 227.
51 البيان المغرب، ج1 ، 23.
52 معجم البلدان، ج5، 161.
53 فتوح إفريقية والأندلس، 40.
54 البيان المغرب، ج1، 5.

ثانيا – بلاد المغرب بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين

تشير المصادر اللاتينية[55] إلى إقدام الإمبراطورية الرومانية على دمج بلاد طنجة وجزر البليار ببقية الوحدات الإدارية والكنسية الست التي تشكلت منها شبه جزيرة إيبيريا. وهو ما أكدته حوليات أستوريش التي تذكر من ضمن الأقاليم المندمجة مع شبه جزيرة إيبيريا "الإقليم السادس وهو بلاد طنجة المتاخم للبحر"[56]. وتعود أصول هذا التقسيم الإداري والكنسي، حسب الجغرافي الأندلسي أبو عبيد الله البكري[57]، إلى عهد الإمبراطور الروماني قنسطنطين الذي أقره خلال سنوات 332– 336 ميلادية. ولعل في ذلك ما يكشف عن إقدام الرومان منذ هذا التاريخ على ربط بلاد طنجة بروما عبر شبه جزيرة إيبيريا. ولا تعوزنا القرائن الكاشفة عن انتظام بلاد طنجة في سلك حاضرة وليلي، التي تواتر ذكرها في كتب الجغرافيا بصفتها "مدينة رومية قديمة بطرف جبل زرهون"[58]. ونظرا للدور الذي أنيط بوليلي باعتبارها قاعدة بلاد طنجة، فقد دأب الإخباريون القدامى على نسبها إلى البلد. يتجلى ذلك من خلال رواية محمد بن يوسف الوراق التاريخي الذي صرح بأن "مدينة طنجة تعرف بالبربرية وليلي"[59]؛ بمعنى أن حاضرة بلاد طنجة خلال هذا العصر هي المدينة المعروفة في لسان أهل البلد الأمازيغ باسم وليلي. والملاحظ أن هذه العبارة قد فهمت خطأ من طرف المصادر المتأخرة التي دأبت على الخلط بين طنجة

---

[55] راجع: J. VALLVE, *La división territorial de la España musulmana*, C.S.I.C., Madrid, 1986, p. 182

[56] Crónica Albeldense in: *Crónicas Asturianas*, p. 225.

[57] الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك،(=الأندلس وأوروبا) تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، 1968، 59- 64.

[58] الاستبصار، 194؛ الروض المعطار، 609.

[59] أنظر: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 108. والمقصود بوليلي في لسان أهل البلد الأمازيغ شجرة "الدفلى" وتنطق العبارة لدى أهل بلاد الريف إلى اليوم بالراء كالتالي: /أريري/. أما حرف الواو فالراجح أنه ضمير يعود على اسم محذوف تقديره /تدينت أو ريري/ أي مدينة الدفلى: /أوليلي/ فما كان إلا أن ضبط رسم هذه المدينة القديمة في المصادر العربية بالواو فكتبت /وليلي/.

المدينة وبلاد طنجة. من ثم لم يكترث البعض عن الزعم بأن "طنجة تعرف بالبربرية وليلي"[60]، بينما اعتقد آخرون خلطا أن "وليلي هي طنجة بالبربرية"[61].

ومن المعلوم أن بلاد طنجة قد انتظمت خلال الفترة السابقة للإسلام عبر إفريقية وحاضرتها العظمى قرطاجنة في دائرة النفوذ البيزنطي. وبدلا عن روما والمؤثرات الحضارية اللاتينية، أصبح الشريط الساحلي من البلاد منخرطا وإن بشكل متقطع في سلك الإمبراطورية البيزنطية التي دأبت على تغليب الطابع الحضاري اليوناني، خصوصا بعد تتويج هرقل باسيليوسا في القسطنطينية سنة 610 ميلادية. وفي رواية للرقيق القيرواني ما يشير إلى أن هرقل ملك القسطنطينية كان يتحكم بواسطة عماله في "روم إفريقية والأندلس"[62] ويأخذ منهم الجزية، بمن في ذلك أهل بلاد طنجة. وليس أدل على امتداد نفوذ بيزنطة في الفترة السابقة للإسلام على طول البلدان المشرفة على البحر الرومي إلى أقصى بحر المجاز، مما ورد في الحوليات التاريخية عن منتهى سلطانه. فقد "كان هرقل ملك القسطنطينية يؤدى إليه كل ملك من ملوك النصارى الخراج، فهم من مصر وإفريقية والأندلس وغير ذلك"[63]. وقد فصل الرقيق القيرواني[64] مناطق النفوذ البيزنطية، بالقول: "كان هرقل ملك القسطنطينية العظمى ورومة يؤدي إليه كل نصراني في بر وبحر جزيته، منهم المقوقس صاحب الإسكندرية وبرقة، ومنهم صاحب إطرابلس وصبرة، ومنهم صاحب صقلية، وروم إفريقية والأندلس".

وتفصح كتب الفتوح والحوليات التاريخية عن اسم الحاكم البيزنطي القائم ببلاد إفريقية والمغرب قبيل الإسلام. ويتعلق الأمر بـ"بطريق يقال له

---

[60] الروض المعطار، 396.
[61] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 118.
[62] أنظر: البيان المغرب، ج1، 16.
[63] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (=الكامل في التاريخ) تحقيق مكتبة التراث، بيروت 1994، ج2، 237.
[64] أنظر: البيان المغرب، ج1، 17.

جرجير (جريجوريوس)، وكان سلطانه من إطرابلس إلى طنجة"[65]. وقد دأبت المصادر العربية على نعت جرجير بأنه "نصراني من روم إفريقية"[66]، وكان يحكم مجمل البلاد المذكورة باسم هرقل صاحب القسطنطينية انطلاقا من "مدينته العظمى قرطاجنة"[67]. إلا أن فتح مصر وبلاد الشام في خلافة عمر ابن الخطاب، مع ما ترتب عن ذلك من اختلال في أوضاع بيزنطة، أفضى إلى تفكك نفوذ القسطنطينية في مجمل البلاد المغربية. وهو ما لخصه ابن عبد الحكم[68] بالقول: "وكان مستقر سلطان إفريقيا يومئذ بمدينة يقال لها قرطاجنة وكان عليها ملك يقال له جرجير كان هرقل قد استخلفه فخلع هرقل وضرب الدنانير على وجهه وكان سلطانه ما بين أطرابلس إلى طنجة". مما يفصح عن إقدام البطريق جرجير على تزعم حركة انفصال حقيقية لمجمل بلاد المغرب وإفريقية عن مركز الإمبراطورية.

ولا غرو، فمن المعروف أن الخليفة عمر بن الخطاب قد وقف بحزم في وجه الضغوط التي مورست عليه من طرف الصحابة وأهل الحل والعقد للشروع في غزو إفريقية والمغرب. وتحتفظ المصادر المتداولة بموقفه المعارض لإنفاذ الجيوش، إذ نسب إليه قوله: "لا إنها ليست بإفريقيا ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت"[69]. ويبدو أن اتساع رقعة دار الإسلام في عهده لتشمل مصر والشام والعراق وخراسان، فضلا عن شبه جزيرة العرب، قد اضطر القائمين بالأمر إلى الاهتمام بتدوين الدواوين والاجتهاد في وضع الشرائع والأحكام، بدل الانسياق مع الفتوحات في البلاد البعيدة. ولعل فيما أثير من جدال بين الصحابة وأهل الحل والعقد حول وضعية

---

[65] البيان المغرب، ج1، 9؛ فتوح البلدان، 228.
[66] عبيد الله، نص جديد في فتح العرب للمغرب لعبيد الله، (=فتح العرب للمغرب) تحقيق ليفي بروفنسال، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المجلد 2، السفر 1-2، مدريد 1954، 216.
[67] البيان المغرب، ج1، 12.
[68] فتوح إفريقية والأندلس، 35.
[69] نفس المصدر والصفحة.

الأرض بسواد العراق ومستقبل الأراضي المفتوحة، ما نبه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب إلى مخاطر الانزلاق عن المقاصد المعلنة لحركة الفتوحات، خصوصا بعدما انكشف للعيان ما انطوت عليه النفوس الجامحة من أطماع في تملك الأراضي والتسلط على رقاب الناس واحتجان المغانم والأموال.

وبمجرد مقتل عمر ابن الخطاب وتولية عثمان بن عفان دفة الحكم، تغيرت التوجهات العامة لنظام الخلافة تجاه إفريقية وبلاد المغرب. تجلى ذلك في إقدام الخليفة الجديد في أول بادرة سياسية على عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وتعويضه بعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، وذلك سنة 25 للهجرة (645 م). وفضلا عن رابطة القرابة بين الرجلين إذ كان الوالي الجديد أخا لعثمان من الرضاعة، فمن المتعارف عليه أن عبد الله بن أبي سرح كان من المرتدين عن الإسلام. فقد تواتر الخبر في المصادر التاريخية بأنه "كتب الوحي ثم ارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين بمكة"[70]. فما كان على ابن أبي سرح بعد فتح مكة إلا أن استجار بعثمان فأخذ له الأمان فحسن إسلامه. وعندما بويع عثمان بالخلافة، أعيد طرح موضوع فتح إفريقية والمغرب من جديد، و"استشار الصحابة فكلهم أشار عليه بإنفاذ الجيش إليها، إلا أبا الأعور سعيد بن أبي يزيد فإنه كره ذلك"[71]، مذكرا الخليفة عثمان بموقف عمر بن الخطاب، وناصحا إياه بالقول: "لا أرى لك خلاف عمر"[72].

وتقدم الحوليات التاريخية جملة من التفاصيل عن الترتيبات العسكرية الهائلة، وعن القوة العظيمة التي قدرت بحوالي عشرين ألف مقاتل، وضعت تحت إمرة عبد الله بن سعد بن أبي سرح لغزو إفريقية. وقد شارك فيها أعيان الناس مثل عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وعبد الله

---

[70] البداية والنهاية، ج5، 364؛ البيان المغرب، ج1، 9.
[71] النويري، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية الإرب في فنون الأدب (=نهاية الارب)، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، الدار البيضاء، 1985، 176.
[72] نفس المصدر والصفحة.

بن عباس، لذلك اشتهر جيشه باسم جيش العبادلة[73]. كما شارك في هذه الحملة، إلى جانب أحياء العرب وفصائلهم[74] فتيان بني هاشم وجمع كثير من بني أمية، فيهم مروان بن الحكم. ولم يتردد الخليفة عثمان عن إعانة واليه "بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس"[75] من العامة. أما المعارك فقد دارت رحاها سنة 27 هجرية (647 م) بالمكان المعروف بقمودة[76]، على مقربة من حصن سبيطلة[77] الواقع على بعد سبعين ميلا من المكان الذي أسست فيه لاحقا مدينة القيروان. وقد أسفرت الحملة عن هزيمة روم إفريقية، ومقتل عظيمهم البطريق جرجير، وفتح حصن سبيطلة الذي اتخذ قاعدة لإنفاذ السرايا، وحصار الفلول المتحصنة في القلاع والحصون المجاورة. فما كان على روم إفريقية بعد هذه الهزيمة إلا أن طلبوا الصلح من عبد الله بن سعد بن أبي سرح بمال معلوم يدفعونه جزية كل عام "على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك منهم وقبض المال"[78]، بعدما أقام جيشه بإفريقية حوالي خمسة عشر شهرا.

على إثر هزيمة سبيطلة ومقتل البطريق جرجير وإمضاء الصلح مع المسلمين، تأهب روم إفريقية لإعادة تنظيم البلاد في انفصال تام عن نفوذ القسطنطينية. فما كان إلا أن نصبوا على رأسهم ملكا جديدا، ويتعلق الأمر بالحاكم الذي ورد اسمه مصحفا في جملة من المصادر العربية التي اضطربت في ضبط رسمه. فبينما يشير ابن عذاري[79] إلى أن "القائم بأمرهم رجلا يقال له حباحبة"، يذكر النويري[80] أن "القائم بأمر إفريقية بعد جرجير رجل يقال له

---

[73] البداية والنهاية، ج5، 365.

[74] لمزيد من التفاصيل عن أحياء العرب الذين شاركوا في الحملة راجع: نهاية الأرب، 176- 77.

[75] البيان المغرب، ج1، 9.

[76] عن هذا الموقع أنظر: الروض المعطار، 472. وقد ورد في مصادر أخرى أن المكان الذي وقعت فيه المعركة الفاصلة التي أودت بحياة جرجير يدعى "عقوبة"، فتوح البلدان، 228 ولعله تصحيف لقمودة.

[77] الروض المعطار، 302 ؛ معجم البلدان، ج 3، 187.

[78] البيان المغرب، ج1، 12.

[79] البيان المغرب، ج1، 17.

[80] نهاية الإرب، 184.

جناحة". في حين يكتفي بعض الرواة[81] بنعته تعميما بـــ"الملك الذي ولوه عليهم بعد جرجير". وقد عمد بعض رواد الدارسين[82] إلى مطابقة اسمه كالتالي: جناديوس.

لم تكن بيزنطة لتقف مكتوفة الأيدي أمام انسلاخ إفريقية وبلاد المغرب جملة عن دائرة نفوذها، فسارعت إلى استغلال الموقف لمعاودة الكرة وإعادة ربط البلاد بالقسطنطينية. يروي الرقيق القيرواني أن هرقل قد "بعث إلى إفريقية بطريقا يقال له أوليمة...فنزل قرطاجنة"[83] وطالب أهل البلاد بأصناف من الجبايات، تعادل ما دفع في صلح عبد الله بن سعد بن أبي سرح. والراجح أن الخلاف بين الحكم المركزي بالقسطنطينية ممثلا من طرف البطريق أوليمة، والحركة الانفصالية لروم إفريقية بقرطاجنة تحت زعامة حباحبة، قد تطورت إلى حرب أهلية. مصداق ذلك ما ورد من خبر روم إفريقية الذين "قاتلهم البطريق [أوليمة] وهزمهم وطرد الملك [حباحبة] الذي ولوه عليهم بعد جرجير"[84].

من الطبيعي بعد عودة نفوذ بيزنطة المركزي إلى قرطاجنة أن تتملص ولاية إفريقية عن الوفاء بالتزاماتها المالية تجاه نظام الخلافة، حسبما أقرته بنود الصلح السالف الذكر. وهو ما كشف عنه المؤرخين بالإشارة إلى "نقض أهل إفريقية العهد"[85]، مما اضطر ابن أبي سرح إلى غزوها ثانية سنة 33 هجرية (653 م). ويبدو أن غزوة ابن أبي سرح الثانية لم تحصل على طائل، مما اضطر إلى معاودة الكرة في السنة الموالية (34 هجرية/654 م) بإنفاذ الحملة المعروفة بغزوة "معاوية بن حديج [إلى] إفريقية وهي أول غزواته إلى

---

[81] الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (=الاستقصا)، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، 1954، ج1، 77.

[82] G. Marçais, *La Berbérie musulmane et l'Orient au moyen âge*, Beirut, 2003, p. 30

[83] البيان المغرب، ج1، 17؛ نهاية الأرب، 184.

[84] الإستقصا، ج1، 77.

[85] البيان المغرب، ج1، 14.

المغرب"[86]. وقد أشار إليها ابن عبد الحكم[87] بالقول: "وهي غزوة لا يعرفها كثير من الناس".

ما كان للخلاف الذي دب بين الجند الفاتح وقيادته حول توزيع الغنائم إلا أن يضعف موقف نظام الخلافة. وقد بلغ الأمر بعموم المحاربين المستاءين من سلوك ابن أبي سرح أن بعثوا وفدا عنهم إلى الخليفة عثمان بن عفان مخاطبين إياه بالقول: "فاعزله عنا، فإنا لا نريد أن يتأمر علينا"[88]. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل سرعان ما اضطربت أحوال ولاية مصر وقد اجتمع أهلها على الشكوى من سياسة ابن أبي سرح الجائرة[89]. وهي الأحداث التي تناسلت بشكل سريع في اتجاه تقويض دعائم خلافة عثمان التي أفضت إلى مقتله وانفتاح أبواب الفتنة الكبرى وتعطيل حملات الفتح. وهو ما عبر عنه ابن عذاري[90] بالقول: "ثم اشتغل الناس بعد ذلك بأمر عثمان – رضه – وبوقائع الجمل وصفين وغيرهما إلى أن اعتدلت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان".

أسفر انحسار نفوذ الخلافة عن انفراج الأوضاع العسكرية بإفريقية، فتأهب أهل البلد للتخلص من الحكم البيزنطي ومن مطالباته المالية المجحفة في حق الرعية. وهو ما تبلور في شكل ثورة اجتماعية بقيادة العامة الذين تمكنوا من وضع حد للنفوذ البيزنطي "فطردوا وليمة الواصل إليهم"[91] مبعوثا من هرقل صاحب القسطنطينية. كما ثاروا ضد ملكهم حباحبة الرومي الذي لم يجد بدا من النزوح هاربا نحو بلاد الشام، مستمسكا بعقد الصلح الذي وقعه مع ابن أبي سرح. إنها إرادة عامة أهل البلد المناهضة للمطالبات الجبائية المرهقة، سواء تلك المفروضة من طرف بيزنطة وأذيالها من روم إفريقية، أو المأخوذة من

---

[86] نفس المصدر والصفحة.
[87] فتوح إفريقية والأندلس، 49.
[88] البيان المغرب، ج1، 14
[89] راجع التفاصيل في: الإمامة والسياسة، ج1، 39.
[90] البيان المغرب، ج1، 14-15.
[91] نفسه، ج1، 17.

طرف صاحب مصر في ظل نظام الخلافة. وهو ما تم التعبير عنه سياسيا بقيام نظام حكم محلي غير تابع للقوى الكبرى المتنافسة. وقد أشارت المصادر التاريخية إلى ذلك بالقول: "ثم اجتمع أهل إفريقية وولوا على أنفسهم رجلا يقال له الاطريون وقيل فيه الاطيلون"[92].

ثالثا ـ المقاومة المغربية للخلافة الأموية

ومع قيام الخلافة الأموية سنة 40 هجرية (660 ميلادية) ونقل دار الخلافة من المدينة المنورة بالحجاز إلى دمشق ببلاد الشام، تم استئناف حملات فتح إفريقية وبلاد المغرب في ظل حكم معاوية بن أبي سفيان. ومن الملاحظ أن ملك إفريقية المخلوع حباحبة قد لجأ إلى دمشق طلبا للمساعدة على استرجاع عرشه. وهو ما وصفه الطبري[93] بالقول:"أن حباحبة الرومي قدم على معاوية بن أبي سفيان فسأله أن يبعث معه جيشا إلى إفريقية، فوجه معاوية بن حديج في عشرة آلاف مقاتل. فسار حتى انتهى إلى الإسكندرية فاستعمل عليها حباحبة الرومي، ومضى ابن حديج حتى دخل إفريقية". وقد ورد في مصادر أخرى[94]أن العلج ابن حباحبة الرومي قد هلك في الإسكندرية، بينما استمرت الحملة تحت قيادة معاوية بن حديج إلى إفريقية، وهي الموصوفة لدى أوائل الإخباريين بحملة ابن حديج "الثانية سنة أربعين"[95] (660 ميلادية). في حين تؤرخ المصادر التاريخية لهذه الحملة بسنة 45 للهجرة (665 ميلادية).

وقد انتهت الحملة إلى قونية الواقعة عند الموضع الذي اتخذت فيه لاحقا مدينة القيروان، ومال ابن حديج بجيشه إلى جبل القرن المجاور حيث اتخذ قيروانا تحصن فيه بجنده. ومن ثم شرع في إنفاذ السرايا لمهاجمة وحصار روم

---

[92] نهاية الإرب، 184.
[93] أنظر: البيان المغرب، ج1، 16.
[94] نهاية الإرب، 184- 85؛ الاستقصا، ج1، 77.
[95] فتوح إفريقية والأندلس، 49.

إفريقية، إلى أن تمكن من دخول حصن جلولاء الشهير. وحتى لا تختل موازين القوى العسكرية بإفريقية لصالح الخلافة الأموية، لم تتأخر الإمبراطورية البيزنطية عن التحرك لمواجهة الموقف. تجلى ذلك في إقدام الإمبراطور البيزنطي على تعيين بطريق على إفريقية "يقال له نجفور في ثلاثين ألف مقاتل فنزل على ساحل البحر". إلا أن الحملة البيزنطية قد آلت إلى الاندحار فتراجعت المراكب مهزومة عن سواحل إفريقية، مما شجع معاوية بن حديج عن إنفاذ جيش في مائتي مركب لغزو جزيرة صقلية تحت قيادة عبد الله بن قيس.

لعل في ذلك ما يدل على تمزق أهواء أهل إفريقية وما والاها من أقاليم المغرب، بين ممالئة الخطر الوافد من جزيرة العرب عبر مصر بدر الجبايات العظيمة، ومداراة النفوذ البيزنطي للتخلص من أطماعه المتزايدة، وبين اختيار التحصن والمقاومة. إن في ذلك ما يؤشر على انغماس إفريقية ومدينتها العظمى قرطاجة في فترة من الاضطراب السياسي والحرب الأهلية والعسر المالي والاختلال الاقتصادي. وهو ما كشفت عنه المصادر العربية بذكر ما آلت إليه أحوال "إفريقية وهي حرب وقد صارت نارا"[96] واضطرمت شقاقا "وكانت حربا كلها"[97].

ومرة أخرى يحتدم الخلاف بين قيادات الفتح حول توزيع المغانم. وكما هو شأن ابن أبي سرح في خلافة عثمان، لم يجد معاوية ابن حديج بدا من مخاطبة الخليفة لما "اختلف الناس في الغنيمة، فكتب في ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان"[98] الذي تدخل لفك النزاع باعتباره أعلى سلطة. والجدير بالذكر أن "معاوية بن حديج الكندي كان عثمانيا"[99] لذلك لم يتأخر الخليفة معاوية بن أبي سفيان عن مكافئته باستعماله على ولاية مصر وإفريقية سنة 48 للهجرة (668

---

[96] نهاية الإرب، 185.

[97] البيان المغرب، ج1، 16.

[98] فتوح إفريقية والأندلس، 48.

[99] البيان المغرب، ج1، 18.

ميلادية). ومن الملاحظ أن الفوز بالسبي والأموال واحتجان الذهب والفضة والحصول على أصناف المغانم قد استأثرت بأوفر اهتمام، حسبما يتجلى في متون كتب الفتح والحوليات التاريخية. ويبدو أن التحولات التي طرأت منذ عهد عثمان بن عفان على توجهات نظام الخلافة تجاه الأراضي المفتوحة، وخصوصا بعد قيام دولة بني أمية، قد عمق البعد الانتفاعي في حملات الفتح ببلاد المغرب. ومن المعلوم أن تدفق الأموال من الأطراف إلى مقر دار الخلافة بالشام، في شكل غنائم حرب ومستحقات صلح ومجابي وجزية، واصطناع الأتباع وفق قواعد أنظمة الولاء، وعقد الرايات على الجند، وبذل العطاء للفرسان مقابل الخدمة، قد شكل عصب النظام الأموي. وهو ما عبر عنه حنش الصنعاني الذي حضر مع عبد الملك بن مروان فتح حصن جلولاء بإفريقية بقوله مخاطبا هذا الأخير لما عاتبه عن مبايعة غريمه عبد الله بن الزبير: "رأيته يريد الله ورأيتك تريد الدنيا"[100].

والراجح أن التخلي عن سياسة عمر بن الخطاب تجاه أراضي الأمم والشعوب المفتوحة، وإطلاق عنان المحابين والمنتفعين على أموال الناس وأعراضهم، قد كان له أبلغ الأثر في تغيير صورة الفاتحين في نظر عامة أهل بلاد المغرب، بالمقارنة عما كانت عليه الأمور في الماضي زمن عمر بن الخطاب لدى أهل العراق وخراسان، وفي مصر وبلاد الشام. وبدلا عن الحروب الفاصلة التي خاضتها قيادات الفتح مع الجيوش النظامية الفارسية والبيزنطية في البلدان المذكورة، سرعان ما تطورت حروب الفتح بإفريقية وبلاد المغرب من مواجهة بقايا النظام البيزنطي وروم إفريقية والمغرب، إلى الانغماس في حرب عامة أهل البلد من البربر الأمازيغ. وهي الحروب التي استغرقت ما ينيف عن نصف قرن من الزمن، منذ بعثت سرايا الفتح الأولى في

---

[100] نفس المصدر والصفحة.

خلافة عثمان بن عفان سنة 26 للهجرة (646 ميلادية) إلى حين ولاية موسى بن نصير شؤون البلاد في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة 86 للهجرة (705 ميلادية).

واضح أن توالي الحملات العسكرية ضد إفريقية، وتعاقب العمليات البحرية البيزنطية، واشتعال فتيل الحروب الأهلية قد انعكس على وحدة مملكة روم إفريقية والمغرب، المنتظمة حول قرطاجة. وليس أدل على صحة ذلك من تأرجح البلاد بين التبعية لبيزنطة، والتعاقد مع دار الخلافة، والانتظام في ظل حكم محلي. والغالب على الظن أن اضطراب الأحوال بقرطاجة وانحسار نفوذ بيزنطة، قد أسفر عن انفراط سلك بلاد المغرب الذي انتظم في ممالك محلية ومناطق نفوذ متناثرة على طول الساحل، من إطرابلس إلى طنجة.

ومن أبرز ممالك المغرب الأقصى، نذكر مملكة غمارة المصمودية التي انتظمت بأقصى شمال غرب البلاد عند بحر المجاز. وقد شملت إلى جانب كورة طنجة وأحوازها، مجمل "ساحل المجاز بسبتة"[101]. كما تعمقت شاملة كافة "بلد غمارة"[102]، الذي يمتد خمسة مراحل ونيف طولا في خمسة مراحل عرضا، في "رحاب الريف بساحل بحر الدر، من على يمين بسائط المغرب...[في]جبال شاهقة اتصل بعضها ببعض، سياجا بعد سياج"[103]. وثمة قرائن دالة على امتداد هذه المملكة إلى كورة الجزيرة الخضراء بالعدوة الأندلسية المقابلة. وهو ما أشارت إليه أقدم ما وصلنا من روايات إخبارية عن "رجل من العجم يقال له يليان صاحب سبتة، وكان على المجاز إلى الأندلس يقال له الخضراء مما يلي طنجة"[104]. يتضح ذلك من خلال رواية ابن خلدون، في سياق حديثه عن قبائل

---

[101] نفسه، ج1، 26.

[102] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100.

[103] كتاب العبر، ج6، 281.

[104] فتوح إفريقية، ج1، 72.

"غمارة وأميرهم يومئذ يليان"[105]. كما تندرج في كنف مملكة غمارة، "مساكن قبائل مصمودة"[106] المستقرة على طول الشريط الساحلي الممتد من سبتة إلى طنجة، فضلا عن "مساكن صنهاجة الهبط بطريق الساحل"[107].

وتحتفظ المصادر العربية باسم الملك الذي تأمر بهذه المنطقة، وهو "ملك من الروم يقال له أيليان"[108]. وقد أشار صاحب البيان إلى موطنه "بأحواز طنجة، وكان بها ملك اسمه يليان"[109]، على حد تعبيره. كما عرفه ابن خلدون بالقول تصريحا أن "يليان أمير غمارة"[110]. بل وثمة روايات تؤكد عن أصله المصمودي ناعتة إياه بـ"يليان الغماري وكان نصرانيا"[111]. ولم تتردد الروايات العربية عن مدحه وإطرائه باعتباره "شريفا في قومه"[112] وممن "كان من أشراف ملوك الروم وأعاظمهم، وذوي العقل والدهاء فيهم"[113].

وثمة مملكة ثانية قد انتظمت بأحواز وليلي حول حاضرة سقوما أو سجومة ببلاد طنجة. وتشتمل فضلا عن قبيلة أوربة البرنسية، على مجمل قبائل البرانس الضاربة بالمغرب الأقصى غرب تلمسان. وقد "كانت أوربة آن ذاك من أعظم قبائل المغرب"[114]؛ كما اشتهرت بين عموم قبائل المغرب الأقصى بكونها "أكثر عددا وأشد بأسا"[115]. وإلى جانب أوربة البرنسية، تألق فرعها الثاني المعروف في المصادر العربية باسم صنهاجة البرنيسة أو "صنهاجة

---

[105] ابن خلدون، ديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (=كتاب العبر)، ضبط خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، 1981، ج6، 142.
[106] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 104.
[107] البيان المغرب، ج1، 26.
[108] نهاية الإرب، 192.
[109] البيان المغرب، ج1، 26.
[110] كتاب العبر، ج6، 193.
[111] الإستقصا، ج1، 82.
[112] نهاية الإرب، 192.
[113] البيان المغرب، ج1، 26.
[114] كتاب الاستبصار، 194.
[115] كتاب العبر، ج6، 192.

مفتاح"[116] المستقرة ببلاد الريف. والجدير بالملاحظة أن قبائل أوربة البرنسية قد انتظمت في الفترة السابقة للإسلام حول "قلعة يقال لها سقوما"[117] وكذا سجومة بقلب المغرب الأقصى. ويتعلق الأمر بالموقع المذكور في مصادر أخرى بـ/الكاف/ بدل /القاف/ كالتالي: "مدينة سكوما وكانت على مقربة من [الموقع الذي بنيت فيه لاحقا] فاس، وكانت مدينة عظيمة لم يكن بالمغرب أعظم منها"[118]. بينما انتظمت قبائل صنهاجة البرنسية حول موقع "بالش مرسى صنهاجة"[119].

وسرعان ما انتظمت مجمل هذه المناطق والقبائل في مملكة قائمة تحت قيادة كسيلة بن لمزم الأوربي البرنسي. ولا غرو، فقد كشفت المصادر العربية عن المكانة الرفيعة التي تبوأها كسيلة باعتباره "من ملوك البربر"[120]. وثمة روايات تاريخية دأبت على نعت كسيلة بكونه "من عظماء البربر"[121] و"من أكابر البربر"[122]. وعلى غرار أحوال مملكة يليان بأحواز طنجة، يبدو أن المسيحية قد ظلت بمثابة الدين السائد بالمملكة البرنسية. مصداق ذلك ما ورد من نعوت في وصف كسيلة البرنسي الذي "كان نصرانيا"[123]. ونميل إلى الاعتقاد بأن قبائل نفزة، من بني ورياغل وبني يطفت وبني يزناسن وبني يصليتن وبني ورتردين وغيرهم، قد اندمجت في سلك هذه المملكة البرنسية التي امتدت إلى أحواز مدينة تلمسان. ولم يكن ليخفى عن عموم أهل المغرب

---

[116] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (=الأنيس المطرب)، 209؛ كتاب العبر، ج6، 284. لمزيد من التفاصيل عن فروع ومواطن البرانس بالمغرب الأقصى، راجع: أحمد الطاهري، إمارة بني صالح في بلاد نكور (=إمارة بني صالح)، الدار البيضاء، 1998، 186- 89.

[117] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 117.

[118] كتاب الاستبصار، 194.

[119] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 90.

[120] البيان المغرب، ج1، 29.

[121] الاستقصا، ج1، 80.

[122] نهاية الإرب، 193.

[123] الاستقصا، ج1، 80.

"حال كسيلة وعظمه في البربر وانقيادهم إليه"[124]. كما انقاد له "جمع كثير من الروم"[125] الذين آثروا الاستقرار تحت حكمه، بعد انفراط الحكم البيزنطي.

كما تطالعنا المصادر العربية ببعض الاشارات الباهتة عن مملكة أمازيغية ظلت إلى حين فتح المغرب الأقصى قائمة بمضارب قبائل هوارة وزناتة وكتامة. مما يجعلنا أميل إلى مطابقة موقعها مع مضارب قبائل مكناسة الزناتية ولفوفها القبلية الضاعنة بنواحي سجلماسة. وثمة إشارة غاية في الأهمية تذكر اسم آخر ملوكهم ممن وقع في أسر الفاتحين، بالقول: "وكان عليهم رجل يقال له طامون"[126].

وبرغم إجماع المصادر العربية الأصيلة على أن "سجلماسة مدينة محدثة بنيت"[127] في الاسلام من طرف الأمير المدراري سنة أربعين ومائة هجرية، فثمة روايات متأخرة[128] تشير إلى أصول أقدم. وهو ما حذا ببعض الدارسين[129] ــ بدل إمعان النظر في المتون القديمة ــ إلى الانزلاق وراء تحليلات لفظية لا مخرج منها. وكما أمكننا في السابق الوقوف ــ من خلال بعض الإشارات المصدرية الباهتة ــ على ما يفيد قدم أصول مدينة نكور، التي أعيد تأسيسها في الإسلام بساحل ريف المغرب، تتكشف بعض الخيوط التي تربط تأسيس سجلماسة بعهود تاريخية غابرة.

---

[124] نهاية الإرب، 193.

[125] فتوح إفريقية والأندلس، 59.

[126] البيان المغرب، ج1، 41.

[127] الاستبصار، 201؛ الروض المعطار، 305.

[128] ورد الخبر بأن مؤسس سجلماسة "قائد روماني ذهب من موريطانيا فاحتل نوميديا بأسرها ثم زحف شطر الغرب حتى ماسة فبنى المدينة وسماها سجلوم ميسي لأنها كانت آخر مدن دولة ماسة ولأنها كانت كالخاتم الذي يسجل به نهاية فتوحاته فحرف هذا الإسم بعد ذلك وتحول إلى سجلماسة. وحسب رواية أخرى، هي في الواقع رواية الشعب ورواية جغرافينا البكري، فإن المدينة أسسها الإسكندر الكبير لفائدة المرضى والمعطوبين من جنوده" الحسن الوزان، وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، بيروت، 1983، ج2، 127.

[129] وقد دأب بعض الدارسين، مجاراة لكولان في المقال الذي صدر له ضمن مادة سجلماسة بدائرة المعارف الإسلامية، ولدراسة ماك كوك عن تأسيس سجلماسة، إلى البحث عن أصول مفترضة لكلمة سجلماسة من خلال تحليلات انطباعية لا تستند على أية أصول مكتوبة ولا المحفوظة في ذاكرة العامة من أهل البلد، بما يفسح المجال واسعا أمام القيل والقال، الذي لا يرجى منه طائل. انظر على سبيل المثال: L. Mezzine, “Sur l´Etimologie du toponyme Sijilmassa”, *Hesperis Tamuda*, vol. XXII, 1984, pp. 19-25.

فقد أفصح الفيلسوف أبومسلمة المجريطي عن الأصل الإغريقي لعبارة سجلماسة، إذ قال: "أن القدماء من اليونانيين يخصوا النيرنجات وقلب العين اسم الترجيح، وبالطلسمة اسم السجلموس: وهو استنزال قوى الأرواح العلوية، ويوقعوا على الجميع اسم السحر، ولم يكن لهؤلاء الحكماء قدرة على هذا العلم إلا بمعرفة الفلك"[130]. ومن الملاحظ أنه منذ القديم كان "موضع سجلماسة براح يجتمع فيه البربر وقتا من السنة يتسوقون"[131] فيه. وتتضح أهمية المكان من خلال ما تواتر ذكره لدى الإخباريين، إذ "كان يجتمع بالموضع بربر تلك النواحي"[132]. وهي ذات الأهمية التي اكتساها موقع آزرو ان تسريث ببلاد الريف، إذ كان في القديم "موضعا يحاذي مدينة نكور في الضفة الثانية من النهر وكانوا يقيمون هناك سوقا"[133].

لا غرابة في أن يكون أصل الموضعين اللذين اتخذت بهما أقدم حاضرتين بالمغرب الأقصى في الإسلام: نكور وسجلماسة، أكبر سوقين موروثين عن العهود البائدة. ولعل في توافق كافة القبائل الضاربة في الأحواز على الاجتماع في ذات المكان بصفة دورية، ما ينم عن أصول حضرية قديمة ظلت متداعية إلى حين انضواء البلد في دار الإسلام. وعلى غرار البرانس وغمارة وزناتة، كانت قبائل السوس الأقصى منتظمة هي الأخرى في مملكة محلية قائمة. وقد أمكننا الوقوف على اسم آخر ملوكها ممن انحاش إلى الطاعة، ويعرف باسم "مزدانة ملك السوس"[134]. ومن المعلوم أن "قاعدة بلاد السوس إيجلي"[135].

---

[130] أبو مسلمة المجريطي، غاية الحكيم في الأرصاد الفلكية والطلاسم الروحية، نشر محمود نصار، طبع في لبنان، بدون تاريخ، 343.

[131] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 149.

[132] الروض المعطار، 306.

[133] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 92.

[134] نفسه، ج1، 45.

[135] الروض المعطار، 330.

وفي أول بادرة من نوعها، استحدث معاوية بن أبي سفيان ولاية إفريقية سنة 50 للهجرة (670 ميلادية) وقد عمد إلى فصلها عن ولاية مصر، وأقر عل رأسها عقبة بن نافع الفهري. من الطبيعي أن يعمد الوالي الجديد إلى وضع الأسس الإدارية لولاية إفريقية "فاختط أولا دار الإمارة، ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم فاختطه"[136]. فما كان بعدئذ إلا أن "أخذ الناس في بنيان الدور والمساكن والمساجد"[137]. وبذلك أقيمت نواة أول حاضرة لبلاد إفريقية في الإسلام، لتحل محل حاضرة العهد البائد في قرطاجة. وبذلك أصبحت القيروان بمثابة قاعدة للبلد بعدما كان الناس "يغزون إفريقيا ثم يقفلون منها إلى الفسطاط"[138]. ومن المفيد الانتباه إلى أهمية استصحاب عقبة بن نافع منذ ولايته الأولى هذه "ثمانية عشر رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم"[139]، لتعليم البربر القرآن وتفقيههم في الأحكام. ولعل في ذلك ما يفصح عن موازاة المجهود العسكري ابتداء من هذا التاريخ بالعمل الثقافي. وهو ما انعكس في المصادر التاريخية التي احتفظت لهذا القائد بصورة رجل مقدام ومستجاب الدعوة، إلى الحد الذي يختلط فيه الواقع بالأسطورة.

إلا أن الخلافة الأموية سرعان ما استدركت الأمر، فتم عزل عقبة ابن نافع عن إفريقية، وولي مكانه أبو المهاجر دينار سنة 55 للهجرة (674 ميلادية). وبالموازاة لذلك أعيد ربط إفريقية بولاية مصر التي أسندت لمسلمة بن مخلد الأنصاري، اعتبارا لميوله الأموية ولمكانته السابقة من الخليفة عثمان بن عفان. ولم يتردد هذا الأخير من استعمال مولاه أبي المهاجر دينار على إفريقية، باعتباره من مواليه الأوفياء. وفي خطوة إلى الوراء، لم يتردد الوالي

---

[136] البيان المغرب، 20.

[137] نهاية الإرب، 189.

[138] فتوح إفريقية والأندلس، 57.

[139] البيان المغرب، ج1، 20.

الجديد عن إفساد ما تم إنجازه من طرف عقبة بن نافع، "وأمر الناس أن تحرق القيروان" لتظل إفريقية كما كانت تابعة إداريا وجبائيا لفسطاط مصر.

وبدلا عن الانخراط في تدوين دواوين إفريقية والمغرب وفقا للشرائع والأحكام الجديدة، وإعادة تنظيم أحوالهما الإدارية والمالية المختلة بفعل توالي الحروب، مال أبو المهاجر دينار إلى تغليب سياسة الفتوحات المستمرة، استدرارا للسبي والمغانم. ولم يتأخر عن "التوغل في ديار المغرب"[140] إلى أن "نزل عيونا عند تلمسان"[141] وهي التي نسبت منذ ذلك الحين له، فأصبحت معروفة باسم عيون أبي المهاجر. ومن موقعه جيوشه بتلمسان، وهو حد لم يبلغه أحد من الولاة قبله، لم يتوقف أبو المهاجر عن الإغارة على أطراف المملكة البرنسية.

من الطبيعي أن يتقدم كسيلة البرنسي لدرء المخاطر التي نزلت بكلكلها على الحدود الشرقية لمملكته مما أسفر عن اندلاع حرب بين الطرفين "حول تلمسان"[142]. وتجمع المصادر التي تناولت هذا الموضوع أن الملك البربري كسيلة قد "ظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام فأسلم"[143]. وبينما تكتفي بعض المصادر بالقول أن "كسيلة أظهر الإسلام"[144] تؤكد روايات أخرى أنه قد "أسلم في ولاية أبي المهاجر وحسن إسلامه"[145]. ولعل فيما ورد على لسان أبي المهاجر من إقرار بمكانة و"حال كسيلة وأنه من ملوك البربر"[146]، ما ينم عن إقدام الطرفين على إمضاء عقد مسالمة تنضوي بمقتضاها المملكة البرنسية بالمغرب الأقصى صلحا في كنف خلافة دمشق عبر ولاية إفريقية وفسطاط

---

[140] الإستقصا، ج1، 80.
[141] البيان المغرب، ج1، 28.
[142] الاستقصا، ج1، 80.
[143] البيان المغرب، ج1، 28-29.
[144] الإستقصا، ج1، 80.
[145] نهاية الإرب، 193.
[146] البيان المغرب، ج1، 29.

مصر. وهو ما أشارت إليه المصادر المتداولة إذ كشفت عن مآل كسيلة الذي "استبقاه أبو المهاجر واستخلصه"[147] ضمن بطانته في سياق رابطة الولاء.

وبعد وفاة معاوية بن أبي سفيان وتولية ابنه يزيد الخلافة، أعيد فصل إفريقية عن ولاية مصر. ونظرا لاندماج المملكة البرنسية بالمغرب الأقصى ضمن نظام الخلافة بدمشق، تم توسيع المجال الجغرافي للولاية التي غدت منذ هذا الحين تعرف باسم ولاية "بلاد إفريقية والمغرب كله"[148]، ونصب على رأسها عقبة بن نافع الفهري، وذلك سنة 62 للهجرة (681 ميلادية). وبمجرد حلول عقبة بن نافع بإفريقية "أوثق أبا المهاجر في وثاق شديد"[149]، وأسرع بإصدار الأمر بخراب المدينة التي اتخذها بديلا لحاضرته، "ورد الناس إلى القيروان"[150] من جديد. ورغبة في استئناف سياسته السابقة القائمة على موازاة المجهود العسكري بالعمل الثقافي اصطحب عقبة بن نافع "معه خمسة وعشرون رجلا من أصحاب رسول الله"[151]. والجدير بالذكر أن الخليفة يزيد بن معاوية قد خاطب عقبة بن نافع لما أقره على ولاية إفريقية بالقول: "أدركها قبل أن تفسد"[152]، مما يدل على هشاشة نفوذ دمشق بمجمل بلاد إفريقية والمغرب. وهو ما يتجلى من كثرة الغزوات التي قادها عقبة بن نافع خلال ولايته الثانية ضد الروم والبربر المتحصنين بمدن وقلاع باغاية وقرطاجة والمنستير وبوادي المسيلة من أرض الزاب وبتيهرت وأحوازها.

وليس مصادفة أن تتوقف عمليات عقبة بن نافع الحربية بأحواز تيهرت في اتجاه تلمسان، اعتبارا لما سلف ذكره عن اندماج المملكة البرنسية مسالمة في دار الإسلام. بل ومن الطبيعي في ظل رابطة الولاء المنعقدة في إطار

---

[147] الإستقصا، ج1، 80.
[148] البيان المغرب، ج1، 23.
[149] فتوح إفريقية والأندلس، 58.
[150] نهاية الإرب، 190.
[151] البيان المغرب، ج1، 23.
[152] نفسه، ج1، 22.

الصلح أن ينضم كسيلة بقواته إلى الجيش الفاتح. وهو ما أفصحت عنه الحوليات التاريخية بالقول:"وكان كسيلة الأوربي في جيش عقبة قد استصحبه في غزواته"[153]. ومن المعلوم أن عقبة بن نافع قد تعمق في بلاد طنجة، في أول اتصال حقيقي للفاتحين بالمغرب الأقصى. وهو ما عبرت عنه كتب الفتوح بالإشارة إلى أنه قد "دخل المغرب الأقصى، وذلك سنة 62 من الهجرة؛ وعقبة أول من دخله من عمال المسلمين"[154]. وبدلا عن المقاومة، لم يتردد يليان أمير غمارة عن مخاطبة ود عقبة بن نافع "وأهدى إليه هدية حسنة"[155]. وقد لخص ابن عذاري[156] هذا الحدث بالقول: "فلما قاربه، وجه إليه أرساله مستعطفا، وبعث له هدية عظيمة، وسأل منه المسالمة". لم يجد عقبة بن نافع بدا من إيثار السلم والاستجابة لرغبة يليان "وقبل منه واجتمع به"[157]. وعلى الرغم مما تواتر ذكره عن تأهب يليان للنزول عن حكمه[158] لعقبة بن نافع، إلا أن هذا الأخير سرعان ما "أمنه وأقره في موضعه"[159]. لعل في ذلك ما ينم عن إجراء مفاوضات بين الطرفين، أسفرت عن اندماج مملكة غمارة المصمودية صلحا في دار الإسلام. ومن المفيد الانتباه إلى انضواء كافة أنحائها، بما في ذلك بحر المجاز وكورة الجزيرة الخضراء بالعدوة الأندلسية، منذ هذا العهد المبكر في كنف الخلافة بدمشق. وهو ما لخصته المصادر التاريخية التي تناولت فتحُ بلاد طنجة من طرف عقبة بن نافع، بواسطة عقد "الصلح والمسالمة بسياسة يليان"[160].

وفي مقابل ذلك، لم يتورع عقبة بن نافع عن إلحاق أصناف المهانة بالملك البرنسي كسيلة بن لمزم، طوال مسار ركبه بالمغرب الأقصى؛ وقد بلغت

---

[153] الإستقصا، ج1، 83.
[154] فتح العرب للمغرب، 219.
[155] نهاية الإرب، 192.
[156] البيان المغرب، ج1، 26.
[157] نفس المصدر والصفحة.
[158] نهاية الإرب، 192؛ البيان المغرب، ج1، 26؛ الإستقصا، ج1، 82.
[159] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 104.
[160] البيان المغرب، ج1، 26.

به الصرامة أن أرغمه على سلخ الغنم مع السالخين. وبرغم توسل كسيلة إليه بطيب القول: "أصلح الله الأمير، هؤلاء فتياني وعبيدي يكفونني المؤنة"[161]، لم يتمكن من إقناع عقبة بن نافع للعدول عن قراره. كما تجرد الوالي المعزول أبي المهاجر لتنبيه عقبة بن نافع لسوء عاقبة سلوكه، إذ خاطبه قائلا: "بئس ما صنعت! كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألف جبابرة العرب، وأنت تأتي إلى رجل جبار في قومه، في دار عزه، قريب العهد بالشرك فتهينه"[162]. ومع ذلك أصر عقبة بن نافع على إهانة الملك البربري انتقاما واستصغارا، ولم يعبأ بما قيل له، وتمادى في "سب كسيلة وأمره بالقيام فقام مغضبا وذبح الشاة، وجعل يمسح لحيته بما على يديه من دمها"[163]توعدا بالانتقام.

وانطلاقا من بلاد طنجة، ومن تخوم المملكة البرنسية بأحواز مدينة وليلي بالذات، استأنف عقبة بن نافع حملته الشهيرة في اتجاه بلاد تامسنا بالسوس الأدنى نحو جبل درن وبلاد درعة بالسوس الأقصى. وثمة روايات تشير إلى نزول الحملة نحو بلاد الصحراء ومنتهاها إلى بلاد صنهاجة اللثام[164]. ولم يتردد أحد الرواة[165]عن التصريح بأن عقبة بن نافع قد تمكن من "فتح كورة من كور السودان". وتقدم الحوليات التاريخية وكتب الفتوح[166]التفاصيل المتعلقة بمختلف المواقع التي نزل بها عقبة بن نافع، مثل مدن: وليلي ونفيس وأغمات وريكة وإيجلي وتارودانت وماسة. كما ذكرت عددا من المواضع التي مر بها مثل: تانزلت وإيغير ان يطوف وتارنا وموضع شاكر وتانصمشت وتوسوفرا وإيصرول وسرنو والمزح وموضع يقال له إطار. وتندرج دكالة وهسكورة

---

[161] نفسه، ج1، 29.

[162] نفس المصدر والصفحة.

[163] نهاية الإرب، 193.

[164] الإستقصا، ج1، 82.

[165] أنظر: البيان المغرب، ج1، 28.

[166] لمزيد من التفصيل بهذا الخصوص راجع: فتح العرب للمغرب، 219- 20؛ البيان المغرب،ج1، 26- 28؛ نهاية الإرب، 192- 193؛ الإستقصا، ج1، 82.

وحاحة ورجراجة وصودة ودرعة من ضمن البلاد التي شملتها الحملة؛ إضافة لقبائل مسوفة وجزولة وبني ماكر. وبالإضافة لجبل درن، ورد في ذات السياق ذكر وادي أم ربيع ووادي نفيس ووادي سوس.

وعلى الرغم مما قيل عن تدويخ عقبة بن نافع لمجموع هذه البلاد، وإثخانه في أهلها، ووضع السيف في جموعهم، وكثرة ما ناله من محاسن سبيهم، إلا أن معظم القرائن تدل على أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد نزهة عسكرية لم تصادف أية مقاومة. وهو ما عبر عنه الفقيه القرطبي ابن عبد البر النمري بالقول في عبارة مقتضبة دالة: "وجال هنالك، ولا يقاتله أحد، ولا يعارضه"[167]. كما أكد ذلك ابن عبد الحكم[168] في سياق حديثه عن غزاة عقبة بن نافع في بلاد السوس، إذ قال:"فجول في بلادهم لا يعرض له أحد ولا يقاتله". وبالمثل، دأب غيرهما من رواة أخبار الفتح على القول بأن قبائل المغرب الأقصى لم تعترض عقبة بن نافع و "إنهم أطاعوه ولم يقاتلوه"[169]. وفي نفس السياق، أشار النويري[170] إلى أن عقبة "سار حتى بلغ البحر المحيط لا يدافعه أحد". ومن المفيد التذكير بالحدث الذي ذاع صيته في الآفاق إلى أن غدا شبيها بالأسطورة، مفاده أن عقبة بن نافع سار "من إيجلي حتى وصل ماسة، فأدخل فرسه في البحر حتى وصل الماء تلابيبه، وقال: اللهم إنك تعلم أني لم أطلب إلا ما طلب عبدك ووليك ذو القرنين ألا يعبد في الأرض غيرك"[171]. وفي رواية أخرى، أنه لما سارت الحملة في السوس و"انتهى عقبة إلى البحر، أقحم فرسه فيه حتى بلغ نحره، ثم قال: اللهم إني أشهدك أن لا مجاز ولو وجدت مجازا

---

[167] انظر: البيان المغرب، ج1، 28.
[168] فتوح إفريقية والأندلس، 58.
[169] فتح العرب للمغرب، 219.
[170] نهاية الإرب، 192.
[171] البيان المغرب، ج1، 28.

لجزت"[172]. مما يكشف عن السهولة الغير المنتظرة في اختراق البلاد، ويفصح عن طبيعة هذا الحملة في التعريف بقواعد الدين وأحكام الإسلام.

وقد نسب ليليان أمير غمارة القول بأن سكان بلاد السوس من "البربر وهم مثل البهائم لم يدخلوا في دين نصرانية ولا غيرها، وهم يأكلون الجيف ويأكلون مواشيهم ويشربون دماءها من أعناقها، فقد كفروا بالله العظيم، ومعظمهم من المصامدة"[173]. وفي روايات أخرى أن أهل "السوس الأدنى قوم ليس لهم دين"[174]، وأنهم على الفطرة "لا يعرفون أن الله حق"[175]. ولم يتردد ابن عبد الحكم[176] عن التصريح بأن "البربر كفار". ولا تعوزنا القرائن المتواترة في كتب الفتح، التي تنسب سكان أهل البلاد الأمازيغ إلى المجوسية؛ فقد ورد القول أن "الروم والبربر هم إذ ذاك مجوس ونصارى"[177]. كما أشار ابن خلدون إلى أن "صنهاجة أهل اللثام هم يومئذ على دين المجوسية، ولم يدينوا بالنصرانية"[178]. مع ذلك، فمن المفيد الانتباه إلى الاستثناءات التي لا تساير هذه القاعدة، علما بأن عقبة بن نافع لما "نزل على أغمات، وجد فيها نصارى البربر"[179]. وبالمثل، تذكر بعض المصادر أن "مدينة نفيس مدينة قديمة أزلية غزاها عقبة بن نافع رحمه الله وحاصرها، وفيها الروم والنصارى والبربر"[180]. بل وينص البكري[181] تصريحا أن الأمر يتعلق بـ "الروم ونصارى البربر وكانوا قد اجتمعوا بها لحصانتها".

---

[172] فتوح إفريقية والأندلس، 60.
[173] البيان المغرب، ج1، 26.
[174] نهاية الإرب، 192.
[175] الإستقصا، ج1، 82.
[176] فتوح إفريقية والأندلس، 60.
[177] البيان المغرب، ج1، 24.
[178] الأستقصا، ج1، 82.
[179] فتح العرب للمغرب، 219.
[180] كتاب الاستبصار، 208.
[181] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 160.

ولا تخفى المهمة الدينية والثقافية والدبلوماسية التي نسبت لحملة عقبة بن نافع في المغرب الأقصى. فقد أجمعت الروايات التي تعرضت لهذا الحدث إقدامه على بنيان "مسجد بدرعة ومسجد بالسوس الأقصى"[182]، وهو المعروف في رواية أخرى بـــ"مسجد وادي سوس"[183]. ونتوفر على جملة من الروايات التي تناقلت عن كتاب المسالك للإشبيلي قوله: "إن المسجد الذي على وادي نفيس بناه عقبة رضي الله عنه"[184]. وقد أكد ذلك البكري[185] الذي نص على أن عقبة بن نافع قد "بنى بها مسجدا [المشهور باسمه][186] إلى اليوم". ومن المعلوم أن الناس قد دأبوا بعدئذ على نسب العديد من المساجد التي أقاموها بعموم المغرب الأقصى إلى عقبة بن نافع تيمنا. وهو ما تم توضيحه بالقول: "وأما غير ذلك من المساجد المسماة باسمه فإن الناس ـ والله أعلم ـ بنوها بموضع نزوله"[187].

وليس أدل على ميل عقبة بن نافع إلى إيثار العمل الحضاري، وبذر البذور الأولى لتعريف أهل المغرب الأقصى بالدين الإسلامي، مما ذكر عن كونه "ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام، منهم شاكر صاحب الرباط وغيره"[188]. ولعل فيما نسب إلى عقبة بن نافع إثر دخوله القيروان في ولايته الثانية من قول: "يا رب املأها علما وفقها"[189]، ما يفصح عن النوايا المعلنة للوالي الجديد، بما يختلف عن التوجهات العامة للخلافة الأموية بإفريقية وبلاد المغرب. والجدير بالذكر، أن تحويل الخلافة ملكا وراثيا بتولية يزيد بن معاوية قد أثار خلافا واسعا في مجمل دار الإسلام. ومن المعلوم

---

[182] البيان المغرب، ج1، 28.
[183] فتح العرب للمغرب، 220.
[184] البيان المغرب، ج1، 28؛ فتح العرب للمغرب، 219.
[185] المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، 160.
[186] الزيادة من: فتح العرب للمغرب، وهي ساقطة من كتاب البكري.
[187] البيان المغرب، ج1، 28.
[188] نفسه، ج1، 43.
[189] تاريخ إفريقية والمغرب، 8.

أن عبد الله بن الزبير قد أعلن الخلاف بمكة وخلع طاعة يزيد بن معاوية سنة 61 هجرية (680 ميلادية). وخوفا من اختلال الأمور ببلاد المغرب، فمن الحنكة أن يتم إسناد الأمور لوال كفيل بإبراز المقاصد الأصلية للفتح الإسلامي، وتجميد الاندفاع المنفعي القائم على المغنم والسبي والتكسب. وهو ما تنم عليه العبارة التوجيهية المقتضبة الشكل، الدالة المعنى، التي خاطب بها الخليفة يزيد بن معاوية واليه الجديد على بلاد إفريقية والمغرب، بالقول: "أدركها قبل أن تفسد"[190].

من المفيد الانتباه إلى تماسك الملك البرنسي كسيلة بن لمزم الأوربي، وعدم انسياقه مع دعوة أهل مملكته للانتفاض على عقبة بن نافع، أثناء وجوده بالمغرب الأقصى. وتفصح الروايات العربية عن مبادرة عقبة إلى مهاجمة كسيلة، عملا برأي أبي المهاجر الذي نصحه بالقول: "عاجله قبل أن يجتمع أمره"[191]. وبدلا من المواجهة، آثر الزعيم البربري تفادي المعركة. فلما سأله أصحابه: "لم تتنحى عنه وهو في خمسة آلاف ونحن في خمسين ألفا ؟"[192]، لم يتردد عن إجابتهم بالقول: "إنكم كل يوم في زيادة وهو في نقصان، ومدد الرجل قد افترق عنه، فإذا طلب إفريقية زحفت إليه"[193]. واضح أن تطلعات كسيلة لم تقتصر على مجرد ربح معركة، ولا على إشفاء الغليل بتحقيق انتقام شخصي مما تعرض له من إهانة وسوء معاملة. بل وقد اتخذ الأمر شكل صراع سياسي وعسكري بين زعيمين متعارضين على السلطة والنفوذ. فبصرف النظر عما اشتهر به عقبة بن نافع من خصال، فقد كان ممن يستمسك بالسلطة. مصداق

---

[190] البيان المغرب، ج1، 22.
[191] نهاية الإرب، 194.
[192] البيان المغرب، ج1، 29.
[193] نهاية الإرب، 194.

ذلك، ما ورد على لسان عبد الله بن عمرو بن العاص مخاطبا إياه بالقول: "إني أعلمك تحب الإمارة"[194].

وليس مصادفة أن يتربص كسيلة بطالعة عقبة بن نافع عندما حلت بظاهر مدينة تهودة لكي ينقض عليها، بقوة قوامها حسب بعض الروايات: "خمسين ألف مقاتل من البرابر"[195]. ويتعلق الأمر حسبما يتضح من المادة المصدرية المتداولة بإقدام كسيلة ـ في مقام أول ـ على نقض العهد الذي سلف أن وقعه مع الوالي السابق أبي المهاجر دينار، والتحرر من تبعاته. وهو ما أفصحت عنه الحوليات التاريخية في عبارة واضحة الدلالة، بالقول: "فانتهز كسيلة فرصة فنكث"[196]. وفي رواية أخرى أن كسيلة "رأى فرصة وثب فقام"[197]. وهو ما فصله أحدهم بالقول: "فقام في أهل بيته وقبائله من البربر"[198]. واضح أن الأمر يتعلق بنكث ووثب وقيام، بما يفصح عن العمق السياسي والاجتماعي للصراع بين أهل البلد من قبائل البربر الأمازيغ، والجيش الأموي الفاتح الذي بعثه يزيد بن معاوية.

وليس هناك ـ في حدود علمنا ـ ما يدل على ارتداد كسيلة عن العقيدة، بعدما "أسلم ... وحسن إسلامه"[199]. وبالمثل، ليس لدينا ما يدل على حدوث خلاف ديني بالمغرب الأقصى بين كفار مستمسكين بعبادة مفترضة للأصنام، ومسلمين داعين إلى عبادة الواحد الأحد، شبيه بما حدث بالحجاز مع كفار قريش. يبدو أن تاريخ المغرب الأقصى خلال هذه العهود الأولى الموسومة من لدن رواد الباحثين بالقرون المظلمة قد ناله تأويل فاضح، خارج عن القواعد الابتدائية للمعرفة التاريخية. فبالإضافة لإسقاط ماضي الجزيرة

---

[194] فتوح إفريقية والأندلس، 60.
[195] فتح العرب للمغرب، 220.
[196] البيان المغرب، ج1، 29.
[197] نهاية الإرب، 194.
[198] البيان المغرب، ج1، 26.
[199] نهاية الإرب، 193.

العربية الجاهلي وتاريخ كفار قريش على تاريخ المغرب الأقصى دون أدنى فحص تاريخي، من المفيد الانتباه إلى مزالق الدراسات المعاصرة المنغلقة ضمن تصورات عرقية لمكونات دار الإسلام.

وبعد إتلاف جيش عقبة بن نافع، ومقتله مع كافة أصحابه سنة 63 للهجرة (682 ميلادية)، تابع كسيلة مسيره إلى مدينة القيروان قاعدة الولاية فدخلها منتصرا في مستهل السنة الموالية. وبالإضافة لأهل مملكته بالمغرب الأقصى، لم يتخلف عن الانضمام إلى كسيلة "جموع أهل المغرب الأوسط"[200]،كما "اجتمع إليه أهل المغرب قاطبة"[201]. ينطبق نفس الشيء على روم المغرب وإفريقية من النصارى الذين مالوا جملة إلى مشروع الزعيم البربري، حسبما يتجلى من خلال مراسلة "النصارى بمدينة تهودة"[202]لكسيلة، أثناء مطاردته لجيش عقبة. ناهيك عما تواتر ذكره عما "اجتمع مع كسيلة من البربر والروم"[203]. والجدير بالملاحظة أن روم إفريقية والمغرب قد تدحرجوا إلى الصف الخلفي متخلين عن الزعامة في مناطق نفوذهم السابقة بالشريط الساحلي من البلاد. أما الحامية العسكرية المتخلفة بالقيروان تحت إمرة زهير بن قيس البلوي فقد آثرت الانسحاب مع الفلول المهزومة نحو برقة بأطراف مصر.

كل المؤشرات تدل على أن المملكة البرنسية بالمغرب الأقصى، قد تحولت تحت زعامة كسيلة بن لمزم الأوربي إلى إمبراطورية مغربية، تمتد من أقصى بلاد السوس إلى تخوم برقة. ويحتفظ ابن عذاري[204]بهذا الخصوص بنص رواية إخبارية بالغة الدلالة عميقة المعنى، إذ قال: "فأمن كسيلة من بقي

---

200 فتح العرب للمغرب، 221.
201 البيان المغرب، ج1، 29- 30.
202 الإستبصار، 174؛ الاستقصا، ج1، 83؛ نهاية الإرب، 194.
203 تاريخ إفريقية والمغرب، 16.
204 البيان المغرب، ج1، 31.

بالقيروان من المسلمين، وأقام بالقيروان أميرا على سائر إفريقية والمغرب، وعلى من فيه من المسلمين". تجدنا إذا حسب منطوق هذا النص أمام أول أمير مغربي للمسلمين، ممن ينتمي في قبائل أوربة البرنسية المتأصلة بالمغرب الأقصى. كما يتضح بأن كسيلة بن لمزم قد احتفظ لنفسه بإمارة إفريقية والمغرب، حسب نفس التدبير الإداري المعتمد من طرف خلافة دمشق، في سياق استكمال بناء الجناح الغربي لدار الإسلام. ولا غرو، فقد استبقى على القيروان حاضرة لملكه، ولم يتم النكوص عنها إلى حاضرة العهد البائد بقرطاجة. وفي مضمون هذا النص ما يؤكد الموقف الإيجابي للبربر الأمازيغ تجاه الدين الإسلامي، ويكشف خطأ الزعم الشائع بقيام حرب دينية مفترضة بين بربر كفار وعرب مؤمنين.

ظل كسيلة على رأس الإمبراطورية الفتية منذ دخوله القيروان سنة 64 هجرية (683 ميلادية) إلى حين انهزامه على يد زهير بن قيس البلوي سنة 69 للهجرة (688 ميلادية). وهي السنوات التي لم تنل أدنى اهتمام من طرف الإخباريين العرب. وهو ما عبر عنه أحدهم في عبارة مقتضبة بليغة المعنى، إذ قال: "ولم يكن في المغرب في [تلك] الأيام ما يؤرخ"[205]، مما يفصح عن طبيعة المادة التاريخية المتاحة، إذ تقتصر على رواية تاريخ الفاتحين، من عشائر العرب وقبائلهم ومواليهم من الأجناس الأخرى، في المغرب. ويخيل إلينا أن انقطاع سلطان دمشق بصفة تامة عن إفريقية والمغرب طوال هذه السنوات، قد انعكست أيضا على روابط التبعية الهشة التي نسجت بين إمارة يليان بمنطقة المجاز وخلافة دمشق عبر ولاية إفريقية.

لم يكن بمقدور النظام الأموي القائم بدمشق القبول بما آلت إليه الأوضاع ببلاد المغرب، اعتبارا لطبيعته القبلية القائمة على التراتب العشائري

---

[205] فتح العرب للمغرب، 221.

حول النواة العربية المروانية. ومن المعلوم أن النواة المتحكمة في مقدرات دار الإسلام، قد نجحت منذ عهد عثمان في نسج أواصر الهيمنة عبر ثنائية قبلية متأرجحة بين القيسية واليمانية. وهي الثنائية المبنية على قاعدة عرقية عربية متحكمة عبر رابطة الولاء، فيما لا يحصى من القبائل والعشائر والأتباع من الأمم والشعوب الأخرى. ولا يخفى دور المغانم المتدفقة من البلاد المفتوحة، منذ تفكيك الإمبراطورية الساسانية واقتطاع أجزاء من الإمبراطورية البيزنطية، في إنعاش اقتصاد لا يحتمل توقف المغازي والمجابي. وليس مصادفة أن يلجأ النظام الأموي إلى إسناد قيادة الفتح ببلاد المغرب خلال هذه المرحلة الدقيقة لشخصيات من أمثال عقبة بن نافع المستجاب الدعوة والمنسوب إلى الولاية، أو لزهير بن قيس البلوي المعروف بشهامته وفضله ودينه. وبالمثل، فنظرا لما اشتهر به حسان بن النعمان الذي أردفه في ولاية شؤون إفريقية والمغرب من حسن الطوية وكرم الخلق، "كان يسمى الشيخ الأمين"[206]. إنها واجهة أخرى للصراع في ظل نظام يفتقر للوازع الديني، ويسعى قدر المستطاع إلى إخفاء أنيابه الكاسرة ومواراة مقاصده الحقيقية.

فلما استقامت الخلافة لعبد الملك بن مروان بدمشق، جهز جيشا عظيما فوضعه تحت إمرة زهير بن قيس البلوي، فسار بجموعه نحو إفريقية. فلما علم كسيلة بذلك بادر إلى الإنسحاب عن القيروان نحو الموضع المعروف باسم ممش[207]. وهو ما علله بالقول: "إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة، فإن بها قوما من المسلمين لهم علينا عهود؛ ونحن نخاف إن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا. ولكن ننزل موضع ممس وهي على الماء، فإن عسكرنا خلق عظيم، فإن هزمناهم إلى إطرابلس قطعنا آثارهم فيكون لنا الغرب إلى آخر

---

[206] البيان المغرب، ج1، 39.

[207] نهاية الإرب، 195 وهي القراءة التي نعتمدها وقد وردت في معظم المصادر بالسين وبرسوم مختلفة: ممس، لميس، مميس.

الدهر، وإن هزمونا كان الجبل منا قريبا والشعراء فنتحصن بهما"[208]. واضح أن الأمر يتعلق بنقل ساحة المعركة المرتقبة إلى مكان أنسب، يضمن استمرار المقاومة في حالة الهزيمة. وفي مضمون القول ما يفصح أيضا عن تعايش المسلمين الوافدين من الشرق مع غيرهم من أهل الديانات الأخرى بمدينة القيروان، في ظل حكم كسيلة. ولم تكن حالة الحرب المعلنة من قبل دمشق لتثني الزعيم البربري عن الوفاء بالعهود التي قطعها للمسلمين من العرب، الذين أثروا العيش في كنفه. وعلى عكس ما شاع لدى جمهور الدارسين عن شرك البربر ومحاربتهم للإسلام والمسلمين، لا يخفى العمق السياسي للصراع. فغاية رجاء كسيلة حسب منطوق النص، استمرار أهل البلد في حكم بلدهم.

التحم الجمعان في موقع ممش حيث جرت إحدى أشرس المعارك، "وكثر القتل في الفريقين حتى يئس الناس من الحياة"[209]. ومن المعروف أن الزعيم الأوربي قد سقط في المعركة إلى جانب "ملوك وأشراف وفرسان البربر"[210]. والجدير بالذكر أن الفاتحين ظلوا يطاردون فلول القبائل البرنسية المنهزمة، وجدوا في طلبهم "إلى وادي ملوية"[211]. ومنذ ذلك الحين "انكسرت شوكة أوربة"[212]التي افتقدت حماتها ورجالها. أسفر ذلك عن انحسار نفوذ أهل المغرب الأقصى عن إفريقية، وفقدان قبائله لزمام المبادرة. بينما آلت المملكة البرنسية إلى الانكماش في كيان محلي حول مدينة وليلي. أما روم إفريقية فقد أخذ بهم الفزع مأخذه فلجأوا إلى الحصون والقلاع. ولم تكن أحوال الجيش الفاتح الذي أعاد ربط القيروان بدمشق بأحسن حالا، بعد ما قاساه من أهوال المعركة.

---

[208] البيان المغرب، ج1، 32.
[209] تاريخ إفريقية والمغرب، 20.
[210] البيان المغرب، ج1، 32.
[211] الاستقصا، ج1، 91؛ البيان المغرب، ج1، 32؛ تاريخ إفريقية والمغرب، 20.
[212] الإستقصا، ج1، 91.

لم تتأخر الإمبراطورية البيزنطية عن العودة من جديد إلى الميدان، مستغلة ما أصاب المنتصرين والمنهزمين على السواء. فما كان إلا أن تجرد البيزنطيون لإنفاذ حملة بحرية من القسطنطينية لضرب القاعدة الخلفية لجيوش الفتح، وقطع طريق الوصل بين القيروان ودمشق؛ "فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة عظيمة فأغاروا على برقة"[213]. لم يفلح زهير بن قيس البلوي المنصرف من القيروان في صد البيزنطيين عن قاعدته الخلفية ببرقة، فوضعوا السيف فيما تبقى من جيشه، وسقط شهيدا مع كافة أصحابه في ساحة المعركة. وسرعان ما انعكست الوضعية الجديدة على روم إفريقية الذين اجتمعوا من كافة أنحاء البلاد إلى حاضرتهم القديمة قرطاجنة. وليس أدل على ذلك عما "كان بها من الروم، خلق لا يحصى"؛ وقد تجردوا لإعادة ترتيب أوضاعهم في مملكة قائمة. ولم يتأخر "ملك قرطاجنة"[214] عن السعي لاسترجاع مكانة حاضرته القديمة في كافة البلاد، باعتبار" قرطاجنة دار ملك إفريقية"[215]. كما سعى إلى استرجاع مكانته في الصف الأول باعتباره "من أعظم الملوك قدرا"[216].

أما أهل إفريقية والمغرب من قبائل البربر الأمازيغ، فمن المعلوم أن جموعهم قد انفضت على إثر مقتل كسيلة[217] وتفكك النواة القبلية البرنسية. إلا أن مجمل القبائل المغربية سرعان ما بادرت إلى الانتظام من جديد حول النواة البترية التي تجردت لتنظيم المقاومة بمبادرة من قبيلة جراوة الزناتية. وقد تألقت فيهم طوال خمس وثلاثين سنة زعامة "امرأة يقال لها الكاهنة وهي بجبل أوراس"[218]. وبعكس ما اندرجت عليه بعض الأقلام المتسرعة، ليس في عبارة الكاهنة ما يقلل من شأن هذه الملكة المغربية. فالجدير بالملاحظة أن هذه العبارة

---

[213] البيان المغرب، ج1، 33.
[214] فتح العرب للمغرب، 222.
[215] البيان المغرب، ج1، 34.
[216] نفس المصدر والصفحة.
[217] الاستقصا، ج1، 93.
[218] فتح العرب للمغرب، 222.

قد اقترنت في أفصح ألسنة العرب بحصافة وسداد الرأي ونفاذ البصيرة "وكان [المرء] يدعى الكاهن لصحة رأيه"[219]. عرفت بذلك لما اشتهرت به لدى عامة أهل البلد "من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهت إليها رئاستهم ووقفوا عند إشارتها"[220]. أما اسمها الأصلي، فهو "دهيا بنت ماتية بن تيفان ملكة جبل أوراس وقومها من جراوة ملوك البتر"[221]. وفي ذلك ما يفصح عن انتقال الزعامة بعموم بلاد المغرب وإفريقية عن قبيلة أوربة البرنسية ولفها من قبائل المغرب الأقصى ذات العمق الحضري، إلى يد قبيلة جراوة الزناتية ومن لف بها من قبائل البتر البدوية بالمغرب الأوسط وتخوم إفريقية. وقد تمكنت دهيا، بفضل حنكتها السياسية وقدراتها القيادية وإقدامها العسكري، من تأكيد زعامتها على كافة قبائل إفريقية والمغرب. وهو ما عبر عنه ابن عبد الحكم[222] في سياق ما أورده من خبر "الكاهنة وهي إذ ذاك ملكة البربر". وليس أدل على عظم سلطانها مما خاطب به أهل القيروان حسان بن النعمان كاشفين له عن أحوالها وبأنها "الكاهنة، وجميع من بإفريقية من الروم منها خائفون، وجميع البربر لها مطيعون، فإن قتلتها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضاد ولا معاند"[223].

ومن المعلوم أن حسان بن النعمان قد عهد له الخليفة عبد الملك بن مروان بولاية إفريقية سنة 73 هجرية (692 ميلادية)[224]؛ فزحف بجمع عظيم، قدر حسب بعض الروايات بأربعين ألف رجل، فدخل بهم القيروان. وكان أول ما استهل به الوالي الجديد أمره بإفريقية مهاجمة "مدينة قرطاجنة وفيها الروم،

219 ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1994، ج1، 321.
220 الاستقصا، ج1، 93.
221 العبر، ج6، 143.
222 فتوح إفريقية والأندلس، 63.
223 البيان المغرب، ج1، 35.
224 فتوح إفريقية والمغرب، 62. وفي رواية أخرى أن ولاية حسان بن النعمان إفريقية كانت في سنة 69 هجرية. كما قيل بأن ذلك حدث سنة 74 للهجرة؛ أنظر: نهاية الإرب، 196.

فلم يصب فيها إلا قليلا من ضعافهم" حسب رواية ابن عبد الحكم[225]. والراجح أنه قد مال إلى حصارهم في مواقعهم بالحاضرة، وفي بنزرت وتينجة وسطفورة، وغير ذلك مما تحصنوا به من المواقع والمدن الساحلية[226]. وسرعان ما أخذ اليأس روم إفريقية، فـ"اجتمع رأي من بقي بها على الفرار منها. وكانت لهم مراكب كثيرة، فمنهم من مضى إلى صقلية، ومنهم من مضى إلى الأندلس"[227]. كما ذاع الخبر في الآفاق بـ "هروب الملك عنها"[228] واضعا بذلك حدا نهائيا لحكم الروم ببلاد إفريقية. ونتيجة للفراغ السياسي المترتب عن إخلاء الروم لحواضر البلاد، لم يتأخر البدو المقيمين في الضواحي والأقاليم المجاورة عن التدافع إليها من كل حدب وصوب فاحتلوها. إلا أن حسان بن النعمان بادر إلى إصدار أمره لأهل البوادي "بتخريب قرطاجنة وهدمها، فخربوها حتى صارت كأمس الغابر"[229]. وكان قد سبق إلى وضع السيف في جموع أهل البادية "فقتلهم قتلا ذريعا وسباهم ونهبهم"[230].

وبذلك، انفتح الطريق أمام حملة حسان بن النعمان للتوجه صوب جبال الأوراس للقاء الملكة البربرية داهيا. وحتى تمنع عن القائد العربي فرصة التحصن بقواته، "سبقته إلى مدينة باغاية وأخرجت منها الروم وهدمت حصنها"[231]. وتزخر المصادر التاريخية بالتفاصيل عن المعركة التي دارت رحاها بين الطرفين، على بعد ثمانية عشر ميلا من باغاية، عند الموضع الذي اشتهر منذ ذلك الحين باسم وادي العذارى[232]. وقد تواتر الخبر عن شراسة القتال الذي كان "قتالا شديدا ما سمع قط، فعظم البلاء وظن الناس أنه الفناء

---

[225] فتوح إفريقية والأندلس، 62.
[226] نهاية الإرب، 196.
[227] البيان المغرب، ج1، 35.
[228] نفس المصدر والصفحة.
[229] نفس المصدر والصفحة.
[230] نفس المصدر والصفحة.
[231] تاريخ إفريقية والمغرب، 24.
[232] البيان المغرب، ج1، 36.

فانهزم حسان بن النعمان. وقتلت [الكاهنة] العرب قتلا ذريعا وأسرت من [أعيان] أصحابه ثمانين رجلا"[233]. لم يبقى أمام الفلول المنهزمة من الجيش الفاتح إلا الانسحاب جملة نحو قاعدتهم الخلفية ببرقة، حيث أقام حسان بن النعمان القصور التي نسبت إليه "فسميت قصور حسان"[234].

والجدير بالملاحظة أن الروايات العربية لم تخف مظاهر المعاملة الطيبة التي حظي بها الأسرى العرب ممن وقع في يد الملكة داهيا، إذ "أحسنت إليهم وأرسلت بهم إلى حسان"[235]أحرارا. بل وثمة تفاصيل عن إقدام الملكة على مؤاخاة "خالد بن يزيد القيسي وكان من خيار المسلمين وأفضلهم"[236] مع ابنيها، "وكان لها ابنان أحدهما بربري والآخر يوناني... فقالت: قد صرتم إخوة"[237]. مما يفصح عن عدم إبداء المغاربة الأمازيغ لأية معاداة للدين الإسلامي ولا رفض للعرب، وتأهبم على عكس ما هو شائع لمد جسور الإخاء والتعايش بين البربر والروم والعرب ببلاد المغرب. ولعل في التحذيرات التي وجهتها الملكة داهيا لقومها منادية إياهم بالقول: "ويلكم مضى ملككم"[238]و "يا معشر البربر ذهب ملككم"[239]، ما يدل على اقتصار الصراع بين الطرفين على السيادة والملك.

ومرة أخرى، تنتظم كافة بلاد إفريقية والمغرب تحت راية مملكة واحدة، تمتد من تخوم إطرابلس إلى أطراف بلاد طنجة، مسيرة ألفي ميل في مثله حسب بعض التقديرات. وقد أشارت بعض المصادر إلى ذلك في عبارة مقتضبة دالة، بالقول: "وملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين"[240].

---

233 تاريخ إفريقية والمغرب، 24-25؛ الكلمتين الزائدتين المثبتتين بين معقوفتين من البيان، ج1، 36.
234 فتوح إفريقية والأندلس، 63.
235 البيان المعرب، ج1، 37؛ تاريخ إفريقية والمغرب، 26.
236 فتح العرب للمغرب، 222.
237 البيان لمغرب، ج1، 37.
238 تاريخ إفريقية والمغرب، 29.
239 البيان المغرب، ج1، 37؛ تاريخ إفريقية والمغرب، 30.
240 البيان المغرب، ج1، 36.

إلا أن تصدر البدو الزناتيين من البربر البتر للف القبلي الذي قامت عليه قواعد المملكة، كان له أبلغ الأثر على العمران الحضري الذي آل في مجمله إلى الخراب. وهو ما كشفت عنه الملكة داهيا الجراوية في قولها الشهير مخاطبة خاصة أهل مملكتها: "إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها، حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر"[241]. وقد احتفظت المصادر العربية برواية فائقة الأهمية منسوبة لعبد الرحمن بن زياد بن أنعم أحد فقهاء وقضاة القيروان، إذ قال: "إن إفريقية كانت ظلا واحدا من إطرابلس إلى طنجة وقرى متصلة ومدائن منتظمة حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن وحصونا من إقليم إفريقية والمغرب مسيرة ألفي ميل في مثله فخربت الكاهنة ذلك كله"[242].

لا يتعلق الأمر بمجرد خطة عسكرية، بل تجاوز ذلك إلى تجرد قبائل البتر من البدو لاستغلال فترة زعامتهم، بإتلاف كافة مظاهر الحضارة التي تستند عليها قوة البرانس، وسكان الحواضر سواء من البربر أو الروم. وقد أشارت بعض المصادر إلى ذات الحقيقة بالقول: فلما "ملكت الكاهنة إفريقية كلها أساءت السيرة في أهلها"[243]. سرعان ما أسفر ذلك عن بروز شرخ ضمن اللف القبلي بين البتر والبرانس، حتى قيل: "إن البربر متفرقون لا رأي لهم ولا نظام عندهم"[244]. ويتواتر في المصادر العربية الخبر عن "البربر [الذين] استأمنوا إلى حسان"[245] وعمن تلقاه بعدئذ "من النصارى يستغيثون إليه من الكاهنة فيما نزل

---

[241] نفس المصدر والصفحة.

[242] البيان المغرب، ج1، 36؛ عن مصدر الرواية أنظر: تاريخ إفريقية والمغرب، 31. كما ورد مقتطف من نفس الرواية منقولا عن كتاب: تاريخ فتوح المغرب لابن حمادة، أنظر: فتح العرب للمغرب، 222. وقد توفي عبد الرحمن بن زياد بن أنعم سنة 161 هجرية.

[243] نهاية الإرب، 197.

[244] تاريخ إفريقية والمغرب، 27- 28.

[245] الاستقصا، 93.

بهم من خراب ضياعهم"[246] وعن أهل قفصة وقصطيلية الذين "بعثوا إليه أيضا يستغيثون به من أمر الكاهنة"[247]. وقد بلغ الخراب بالبلاد أن "خرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة، فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية"[248]. ويخيل إلينا أن يليان أمير غمارة وصاحب سبتة قد مال منذ هذا التاريخ إلى ممالئة مملكة القوط بالأندلس والارتباط بخدمة عرشهم القائم بطليطلة[249].

بلغت المملكة البربرية الجراوية من التآكل بفعل الصراعات الداخلية أن تنبأت الملكة داهيا بسقوطها، حسبما ورد مفصلا في جملة من المصادر المتداولة[250]. لذلك لم تتردد — رغم موقعها على رأس المملكة البربرية — في تهيئ مستقبل ولديها السياسي لدى والي إفريقية من قبل خلافة دمشق. فمن المعروف أنها قد بعثت بهما سرا إلى حسان بن النعمان، مذكرة مرافقهما خالد بن يزيد القيسي بالقول: "وأما أولادي فسوف يدركون سلطانا مع هذا الرجل الذي يقتلني فيعقدون للبربر غرائم، ثم قالت: اركبوا واستأمنوا إليه"[251]. وعندما تقدم حسان بن النعمان بالجيوش مرة ثانية سنة 78 للهجرة (693 ميلادية)، كانت نتائج المعركة معروفة مسبقا، مع ذلك أصرت داهيا على المواجهة، مذكرة من دعاها للاستسلام بالقول: "الملوك لا يفرون من الموت"[252]. وقد لقيت حتفها فعلا بالموضع الذي جرت به المعارك "في أصل جبل فسميت بئر

---

[246] تاريخ إفريقية والمغرب، 31.
[247] نفسه، 32.
[248] البيان المغرب، ج1، 26-27.
[249] فتوح إفريقية والأندلس، 72.
[250] تاريخ إفريقية والمغرب، 32- 33؛ البيان المغرب، ج1، 37- 38؛ فتح العرب للمغرب، 222- 223.
[251] البيان المغرب، ج1، 38.
[252] فتح العرب للمغرب، 223؛ تاريخ إفريقية والمغرب، ج1، 32.

الكاهنة"[253] عن سن يناهز – حسب رواية هانئ بن بكور الضريسي – مائة وسبعا وعشرين سنة[254].

وبذلك استقام أمر البلاد لحسان بن النعمان الذي "دانت له إفريقية، فدون الدواوين، وصالح من ألقى بيده على الخراج، وكتب الخراج على عجم إفريقية، وعلى من أقام معهم على النصرانية من البربر والروم"[255]. وهو ما فسره ابن عبد الملك[256] في رواية فريدة تنص على أن "من أقام معهم على النصرانية من البربر عامتهم من البرانس إلا قليلا من البتر". واضح أن نموذج المجتمع الإسلامي الأول الذي وضع حسان بن النعمان أسسه ببلاد إفريقية يقوم على التعدد الديني: مسلمين ونصارى، وعلى التنوع العرقي: بربر وروم وعرب. وواضح أيضا أن اعتناق الإسلام ظل بالنسبة للجميع مسألة عقيدة تتم اختيارا بالاقتناع. أما السيف فما وضع إلا لترسيخ النفوذ السياسي والإداري لخلافة بني أمية في البلاد. وإلى جانب ذلك، لم يذخر حسان بن النعمان جهدا في إدماج قبائل وقيادات البربر ضمن رايات جند الخلافة الأموي، وفق رابطة الولاء. مصداق ذلك ما ورد عن "جماعة البربر [الذين] استأمنوا إليه، فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألفا يجاهدون مع العرب، فأجابوه وأسلموا على يديه، فعقد لولدي الكاهنة لكل احد منهما على ستة آلاف، وأخرجهم مع العرب يجولون في المغرب"[257]. والجدير بالذكر أن الأمر يتعلق برايات الجند البربري التي وضعت لاحقا تحت إمرة والي المغرب الأقصى – من قبل صاحب القيروان – القائد طارق بن زياد النفزي.

---

[253] فترح إفريقية والأندلس، 64.

[254] الاستقصا، ج1، 93.

[255] تاريخ إفريقية والمغرب، 34.

[256] فتوح إفريقية والأندلس، 64-65.

[257] البيان المغرب، ج1، 38.

وبمجرد ما انتظمت الأمور لصاحب إفريقية، كشف النظام الأموي على وجهه الثاني القائم على الجشع والمحاباة وحب التملك واحتجان الأموال. فقد سارع صاحب مصر عبد العزيز بن مروان المتحكم في ولاية إفريقية إلى إرسال وفد لمراقبة ما تجمع لدى حسان بن النعمان من سبي ومغانم وأموال "وأمرهم أن يحفظوا جميع ما معه"[258] تمهيدا لمصادرته. أردف ذلك بعزل حسان بن النعمان، بعدما استنفذ النظام الأموي كافة طاقاته، وتم قطف ما تحقق على يديه من نتائج. فلما اطلع حسان على طوية صاحب مصر عبد العزيز بن مروان "عمد إلى الجوهر والذهب والفضة"[259] فأخفاه متجنبا بذلك وقوعه تحت يده. ومن المعلوم أن عبد العزيز قد استطال عليه و"سلبه جميع ما كان معه"[260]؛ كما عمد إلى أخذ "كل ما كان معه من السبي، وكان قد قدم معه من وصائف البربر بشيء لم ير مثله جمالا ...مائتي جارية منها ما يقام بألف دينار"[261]. لم يتمالك حسان بن النعمان الذي جاهد بالأمس في خدمة النظام عن إعلان خيبة أمله بمحضر الخليفة الوليد بن عبد الملك، مذكرا إياه بالقول: "إنما خرجت مجاهدا في سبيل الله...[والله] لا أولي لبني أمية أبدا"[262]. وهي الحقائق التي أدركت بصيرة ملوك البربر الأمازيغ منذ الوهلة الأولى كنهها، فتجردوا للوقوف بحزم في وجه الخلافة الأموية، كما تتبعنا ذلك سلفا.

رابعا ــ إسلام أهل المغرب الأقصى

لقد سلفت الإشارة إلى أن أول احتكاك للمغرب الأقصى بالإسلام والمسلمين قد تم بتخومه الشرقية عند تلمسان في ولاية أبي المهاجر دينار،

---

[258] تاريخ إفريقية والمغرب، 36.
[259] البيان المغرب، ج1، 38.
[260] نفسه، ج1، 39.
[261] فتوح إفريقية والأندلس، 67.
[262] البيان المغرب، ج1، 39.

خلال النصف الثاني من العقد الخامس الهجري. ومن المفيد الانتباه إلى أن كسيلة بن لمزم الأوربي البرنسي يعتبر أول من أسلم من أهل المغرب الأقصى. تم ذلك في تقديرنا عن اختيار وطواعية، إذ "عرض عليه الإسلام فأسلم"[263] قبل دخول الفاتحين للمغرب الأقصى بسنوات عدة. وليس مصادفة أن يميل أحد عظماء ملوك البربر إلى الإسلام بدون عناء وعن اقتناع، باعتباره ممن تمرس بالكتب السماوية، إذ "كان نصرانيا"[264]. ولا تعوزنا القرائن الدالة على أن "من أقام على النصرانية من البربر عامتهم من البرانس"[265]. وعلى عكس ما هو شائع لدى عموم الدارسين العرب ممن انساقوا مع أهوائهم في لعن كسيلة وكيله التهم بالشرك، فقد صح لدى القدامى أنه قد "أسلم في ولاية أبي المهاجر وحسن إسلامه"[266].

مع ذلك، فإن أول اتصال حقيقي بين أهل المشرق من المسلمين وعموم أهل المغرب الأقصى قد تم في ولاية عقبة بن نافع الثانية سنة 62 للهجرة (681 ميلادية). وقد سلفت الإشارة أنه اخترق المغرب الأقصى إلى أن بلغ البحر الأخضر المحيط وتعمق ببلاد السوس، في جولة عسكرية خاطفة لم تتجاوز مدتها سنة ونيف. ومن المعلوم أن مقامه بمجموع بلاد إفريقية والمغرب، لم يتعد "ثلاثة أعوام"[267]. وهي الجولة التي وجهت أساسا إلى بلاد السوس، علما بأن أهلها لم يكن لهم دين حسب بعض الروايات، أو كانوا على المجوسية حسب أخرى. ومع ذلك، لا تعوزنا الدلائل عمن كان يدين بالنصرانية في بعض حواضر البلاد، كما هو الشأن بمدينتي أغمات ونفيس. ناهيك عما ورد من إشارات عن قبائل البربر ممن "دانوا بدين اليهودية"[268]. وتتواتر

---

[263] نفسه، ج1، 28-29.
[264] الاستقصا، ج1، 80.
[265] فتوح إفريقية والأندلس، 64- 65.
[266] نهاية الإرب، 193.
[267] البيان المغرب، ج1 30.
[268] الإستقصا، ج1، 67.

الإشارات المصدرية عمن كان أجداده خلال الفترة السابقة للإسلام على دين اليهودية في بلاد تامسنا وفي أرض سجلماسة[269] وغيرهما.

وقد أجمعت المصادر التي تعرضت للموضوع على ذكر إقدام عقبة بن نافع على تأسيس أولى المساجد التي عرفتها البلاد. ويتعلق الأمر بمسجد إيجلي وبمسجدي درعة ونفيس. وبصرف النظر عما قد يكون نشب من مناوشات حربية، أو عمن تحصن من القبائل في القلاع أثناء مرور الحملة، فالغالب على الظن أنه عقبة بن نافع كان يستقبل وفود القبائل فترد عليه فيعرض عليهم الإسلام. فلما نزل بوادي سوس على سبيل المثال، "أرسل إلى قبائل جزولة فوصلوا بوادي سوس فأسلموا ورجعوا"[270]. والغالب على الظن أن ما قيل عن غزواته وفتوحاته وسبيه وغنائمه بالمغرب الأقصى، لا تعدو أن تكون قصصا من نسج الخيال. وقد تجلى ذلك من خلال ما سلفت الإحالة عليه في متون أوثق المصادر التي تضمنت ذكر وصول عقبة بن نافع إلى بلاد السوس "فجول في بلادهم لا يعرض له أحد ولا يقاتله"[271].

إلا أن أهم ما أقدم عليه عقبة بن نافع – فيما يبدو – يتجلى في تركه لبعض حملة القرآن ورواة الأحاديث والأحكام بالمغرب الأقصى، إذ اصطحب "معه خمسة وعشرون رجلا من أصحاب رسول الله"[272]. ويخيل إلينا أن أولئك هم الذين زرعوا البذور الأولى التي كانت وراء معرفة أهل المغرب الأقصى بقواعد الإسلام. ويتعلق الأمر بمجهود فكري ذي طبيعة اعتقادية وطرق إخبارية ومناهج جدالية، تمت بصورة منفصلة عن عمليات الفتح الحربية. وثمة إحالة مصدرية إلى إقدام بعضهم على إنشاء أولى الرباطات لتكون بمثابة نبراس للعلم والحكمة والصلاح. مصداق ذلك، ما ورد عن "شاكر صاحب

---

[269] الاستبصار، 197، 202.
[270] فتح العرب للمغرب، 220.
[271] فتوح إفريقية والأندلس، 58.
[272] البيان المغرب، ج1، 23.

الرباط وغيره"[273]، ممن تركهم عقبة بن نافع بالمغرب الأقصى لتعليم الناس القرآن وشرائع الإسلام.

وثمة إشارة بالغة الدلالة في ربط إسلام قبائل بلاد تامسنا والسوس الأدنى والأقصى بحملة عقبة بن نافع الفهري، إذ "لم يعرف المصامدة غيره وقيل أن أكثرهم أسلموا طوعا على يديه"[274]. مما يفند التصورات البطولية ذات المضامين العرقية التي روجت لمقولة انتشار الإسلام بحد السيف. والراجح أن الأمر لا يعدو خلال هذه الفترات المبكرة أن يكون إقرارا بالقول من طرف أولي الأمر من مشايخ القبائل وملوك البربر بوحدانية الله وبرسالة المصطفى الأمين. ولا تعوزنا بهذا الخصوص المعلومات المصدرية عن الشروط التي جرت عادة الفاتحين توجيهها للمقاومين يخيرونهم بين حالات ثلاث، بالقول: "فإنا قد كتبنا لك فيما يحبه الله ورسوله (صلعم) وهو أن تقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فيكون لك ما لنا وما علينا، أو تؤدي الجزية أو القتال. والسلام على من اتبع الهدى"[275]. أما الاعتقاد المبني على الإيمان والحكمة والمعرفة بالأحكام، فهو مما كان عامة الفاتحين أنفسهم يفتقرون إليه. ولا نستبعد أن يكون قد تم الشروع منذ هذا الوقت المبكر في تحفيظ القرآن ورواية السيرة النبوية والأحاديث السائرة لمن تحلق من أهل القبائل على مجالس العلم والحكمة بالرباطات الأولى التي أنشئت من طرف رواد المرابطين.

ومن أبرز الرباطات التي أنشئت لهذه الغاية خلال هذه الفترة الباكرة، نذكر "رباط نكور"[276] بشمال المغرب الأقصى. تم ذلك على يد صالح بن منصور الذي "دخل أرض المغرب في الافتتاح الأول فنزل مرسى تمسامان

---

[273] نفسه، ج1، 43.
[274] نفسه، ج1، 42.
[275] الواقدي، فتوح إفريقية، تونس، 1966، ج1، 5.
[276] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 91.

على البحر بموضع يقال له بدكون بوادي أمقران"[277]، حيث مستقر فروع قبائل نفزة البربرية. ويحدد صاحب البيان[278] تاريخ ذلك بقوله: "دخل أرض المغرب في الافتتاح الأول زمن الوليد بن عبد الملك فنزل في بني تمسامان". ونميل إلى الاعتقاد أن نزوله بها قد حدث في خلافة سلفه، خلال العقد السابع من القرن الهجري الأول. مصداق ذلك ما ورد في بعض الروايات أنه ممن "وجهه حسان بن النعمان الغساني أمير عبد الملك بن مروان بإفريقية لفتح المغرب فنزل الريف"[279]. وليس أدل على صحة هذا الاعتقاد من إقرار بعض المؤرخين أن صالح بن منصور "دخل أرض المغرب قبل موسى بن نصير"[280].

ومن المعروف أن حسان بن النعمان قد تعرض للعزل بقرار من صاحب مصر عبد العزيز بن مروان "فاستخلف حسان على المغرب رجلا من جنده اسمه صالح"[281]. ومن المفيد الانتباه إلى أنه بينما كان الخليفة "عبد الملك مريضا، وجه عبد العزيز موسى بن نصير إلى المغرب" [282]. فلما حل بإفريقية "سنة تسع وسبعين عزل أبا صالح"[283] قبل إقرار ولايته رسميا من طرف خلافة دمشق. وفي رواية أخرى أن موسى بن نصير "قدم القيروان وبها صالح خليفة حسان فعزله ورأى أن البربر قد طمعت في البلاد"[284]. ويخيل إلينا أن الأمر يتعلق بصالح بن منصور الذي آثر التوجه خلال هذا التاريخ من تلقاء نفسه إلى المغرب الأقصى. ومهما يكن من أمر، فليس هناك ما يدل على تجريد حملة

---

[277] نفس المصدر والصفحة. ورد اسم النهر في الأصل مصحفا كالتالي /وادي البقر/ والتصحيح من عندنا إذ ما زال إلى اليوم يعرف بلسان أهل البلد بأغزار أمقران أي الوادي الكبير.

[278] البيان المغرب، ج1، 176. ومن المعلوم أن الوليد بن عبد الملك قد تولى الخلافة بدمشق خلال الفترة الممتدة من سنة 86 للهجرة إلى غاية سنة 96 للهجرة. أنظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك (=الأمم والملوك)، بيروت، 1987، ج3، 669 وكذا ج4، 28.

[279] الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا (=الترجمانة الكبرى)، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، المحمدية، 1967، 79.

[280] كتاب الاستبصار، 136.

[281] الاستقصا، ج1، 94.

[282] فتوح إفريقية والأندلس، 68.

[283] نفسه، 69.

[284] الاستقصا، ج1، 96.

عسكرية من الجند العربي اليماني لفتح بلاد الريف، كما شاع في التصورات الخيالية التي روجها الجمهور الأعظم من الدارسين. غاية ما في الأمر أن صالح بن منصور ذي الأصول الأمازيغية النفزية قد توجه في رحلة بحرية من إفريقية لينتهي به الأمر في مرسى تمسامان حيث نجح في إقامة كيان سياسي غير مفارق، الأول من نوعه في تاريخ المغرب، كما فصلنا ذلك في دراسة سابقة[285].

ولا يخالجنا شك في دور صالح بن منصور في إسلام قبائل نفزة من بني ورياغل وبني يصليتن وبني ورتردين وكزناية وغيرهم. وهو ما عبرت عنه المصادر التاريخية بالقول:"فأسلم على يديه بربر تلك الجهات"[286]. كما تواتر القول في الحوليات التاريخية والمصنفات الجغرافية أن "على يديه أسلم بربرها وهم صنهاجة وغمارة"[287]. ويتعلق الأمر في مقام أول بقبائل صنهاجة البرنسية الضاربة في المرتفعات الجبلية ببلاد الريف، حول موقع بالش. أما قبائل غمارة فقد سلفت الإشارة إلى مواطنها الممتدة في أقصى الشمال الغربي للمغرب الأقصى. ومن المعلوم أن أميرهم يليان قد ظل ـــ رغم توقيعه عقد الصلح والمسالة مع عقبة بن نافع الفهري ـــ على دين النصرانية. وبالمثل، فثمة إشارة لصالح بن منصور تثبت أن "عليه أسلم قبائل لواته"[288].

ولعل في هذه الملاحظات ما يفصح عن دور صالح بن منصور في انتشار الإسلام لدى المجموعات القبلية الثلاث الكبرى المكونة لبلاد طنجة: نفزة وصنهاجة البرنسية وغمارة المصمودية، فضلا عن فروع لواتة المتشعبة ببلاد الريف. ونظرا لاعتماد صالح بن منصور على دعوة أهل البلاد إلى الإسلام

---

285 راجع بهذا الخصوص، إمارة بني صالح، 15- 43.

286 ابن الخطيب، المغرب العربي في العصر الوسيط من كتاب أعمال الأعلام (=أعمال الأعلام)، تحقيق أحمد مختار العبادي/ محمد إبراهيم الكتاني، الدر البيضاء، 1964، 171- 72.

287 البيان المغرب، ج1، 176؛ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 91؛ كتاب الاستبصار، 136.

288 الترجمانة الكبرى، 79.

بالحكمة والموعظة الحسنة، دون ربط ذلك بالتحكم في الرقاب وغنم الأموال وسبي النساء، فقد استجابوا له عن طواعية واختيار. بل وقد أجمعوا على نسبه إلى التعبد والصلاح الذي لازمه في رباط نكور، حتى أصبح لدى عامتهم "معروفا بالعبد الصالح"[289]. وليس أدل على صحة هذا التحليل من اضطرار موسى بن نصير إلى الانصراف بجموع عسكره من العرب عن بلاد الريف، إذ "كانوا قد دخلوا الإسلام وحسن إسلامهم"[290].

ويبدو أن القبائل التي اعتنقت الإسلام من أهل المغرب الأقصى قد تاقت إلى النهل من المنابع الأولى عن طريق حفظ القرآن وإدراك كنه آياته. وهو ما لم يكن متاحا إلا لعدد قليل من علية القوم، الذين كانت لهم دراية باللغة العربية. وقد ذكرت بعض المصادر كيف "كان ملوك إفريقية عارفين بلسان العرب"[291] قبل الإسلام. كما أشارت إلى بعض رجالات العرب ممن كان على دراية بلغة نصارى المغرب "وكان يعرف لغتهم وقد تعلمها بالشام"[292]. ولا يستبعد أن يكون من بين العرب الوافدين إلى المغرب من كان يتقن اللغة الأمازيغية، اعتبارا لتأصل العلاقات بين موريطانية الطنجية وبلدان المشرق منذ أقدم العصور. ولربما في اشتراك بعض أهل الشام من العرب وبعض أهل بلاد طنجة من البربر في معرفة اللسانين الإغريقي واللاتيني، ما وفر إمكانيات إضافية للتخاطب. إلا أن عامة أهل المغرب قد شرعوا منذ هذا التاريخ في الاحتكاك المباشر باللغة العربية عن طريق حفظ القرآن وخط رسومه في الألواح. واستئنافا لمجهود المعلمين الأوائل من أصحاب عقبة بن نافع الذين تخلفوا بالمغرب الأقصى لتعليم أهله القرآن والإسلام، بادر موسى بن نصير هو

---

[289] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 91.
[290] تاريخ إفريقية والمغرب، 40.
[291] الواقدي، فتوح إفريقية (=فتوح إفريقية)، تونس، 1966، ج1، 7.
[292] نفسه، ج1، 36.

الآخر إلى ترك "سبعة عشر رجلا من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام"[293].

والجدير بالذكر أن المغرب الأقصى قد تحول جملة إلى الإسلام على يد طارق بن زياد النفزي الريفي، الذي ترسخت في عهده قواعد الدين في كافة ربوع البلاد، من تخوم تلمسان إلى مشارف السوس الأقصى. تم ذلك خلال سنة 85 للهجرة (704 ميلادية) في أواخر أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. ويبدو أن معظم من كان من البربر على دين أهل الكتاب محسوبا على النصارى واليهود قد تحول خلال هذا التاريخ إلى الإسلام. ونتوفر بهذا الخصوص على رواية تاريخية غاية في الأهمية، قلما استرعت انتباه الدارسين. فقد أرخ ابن عذاري[294] كيف "كانت ولاية طارق على طنجة والمغرب الأقصى في سنة 85، وفي هذا التاريخ تم إسلام أهل المغرب الأقصى، وحولوا المساجد التي كان بناها المشركون إلى القبلة وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات، وفيها صنع [منبر][295] مسجد أغمات هيلانة". وهو ما أكده أحد الرواة في سياق حديثه عن "منبر أغمات هيلانة [الذي] استعمل في سنة 85 من الهجرة"[296]. وفي رواية مماثلة ما يفصح عن دخول أهل المغرب الأقصى في دين الله أفواجا، بعدما أسند أمرهم لوال من بني جلدتهم وهو طارق بن زياد. لذلك لم يترددوا فـ"عزموا على الإسلام بنية صحيحة، فبنوا المساجد وحولوا القبلات للمساجد التي كانت لهم قبل ذلك، واستعملوا المنابر في المساجد التي عزموا أن يجعلوا فيها الجمعات"[297]. وليس أدل على صحة هذا التحليل مما ذكره أحد المؤرخين

---

[293] البيان المغرب، ج1، 42.
[294] نفسه، ج1، 43.
[295] زيادة من: فتح العرب للمغرب، 223.
[296] نفس المصدر والصفحة.
[297] نفس المصدر والصفحة.

تصريحا بأنه لما "ولي عليهم طارق بن زياد...تم إسلام أهل المغرب الأقصى فأسلموا كلهم إسلاما صحيحا"[298].

واضح بأن عموم أهل المغرب الأقصى قد آثروا الانتماء في الإسلام اختيارا، منذ مال أحد عظماء ملوكهم كسيلة بن لمزم البرنسي إلى العقيدة المحمدية حوالي سنة 55 للهجرة، إلى حين إجماعهم على اعتناق الاسلام في ولاية طارق بن زياد سنة 85 للهجرة، على مدار حوالي ثلاثين سنة. يتجلى ذلك بوضوح تام من خلال إحدى الفتاوى الفقهية التي تناولت الوضعية العقارية للأرض بالمغرب الأقصى وكيف "اتفق أشياخ بلادنا من أهل العلم أنها أسلم عليها أربابها وليس فيها صلح ولا عنوة"[299]. ولعل في هذا التحليل ما يدعو المختصين وعموم المهتمين بتاريخ المغرب إلى الحذر من السير في متاهات رواد الدارسين الأجانب الذين أثاروا زوبعة حول مسألتي التعريب وانتشار الإسلام بالمغرب. وهي الزوبعة التي ما زالت إلى الآن ممسكة بأقلام جمهرة المقلدين المغاربة المختصين في ترويج أفكار غيرهم.

خامسا ـ ولاية المغرب الأقصى: النشأة والأصول

من المفيد الانتباه إلى أن صاحب مصر عبد العزيز بن مروان هو الذي "أمّر موسى بن نصير على إفريقية سنة تسع وسبعين "[300]للهجرة (698 ميلادية)، في خلافة عبد الملك بن مروان، إثر إقدامه على عزل الشيخ الأمين حسان بن النعمان. ولا غرو، فحينذاك "كان الوالي على مصر يولي على إفريقية"[301]دون الاضطرار إلى أخذ رأي الخليفة بدمشق. والجدير بالذكر أن

---

[298] نفسه، 224.

[299] المعيار المعرب، ج6، 133- 34.

[300] فتوح إفريقية والأندلس، 69. وثمة روايات أخرى تشير إلى أن ذلك قد حدث سنة سبع وسبعين وقال آخرون سنة سبع وثمانين، أنظر: الإستقصا، ج1، 95. بينما تحدد معظم المصادر التاريخية ولاية موسى بن نصير إفريقية والمغرب سنة 86 للهجرة. أنظر: البيان المغرب، ج1، 41. في حين ذهب البعض إلى أن ولاية موسى بن نصير على إفريقية كانت سنة 89 هجرية، أنظر: نهاية الإرب، 200.

[301] البيان المغرب، ج1، 38.

الفضل يرجع إلى عبد العزيز بن مروان في نجاة موسى بن نصير من الإعدام، بعدما نالته التهمة "باحتجان الأموال على ما ذكر لنفسه"[302] أثناء إقامته عاملا على خراج البصرة. فما كان بعدما تأكدت خيانته للأمانة، إلا أن"عتب عليه [الخليفة] عبد الملك وأراد قتله، فافتداه منه عبد العزيز بمال"[303] فصار منذ ذلك الحين ضمن أتباعه وخوله. واضحة من خلال هذه التفاصيل نوعية السياسة التي رغبت ولاية مصر تطبيقها ببلاد المغرب في ظل ولاية عبد العزيز بن مروان الذي أسرف في جمع الأموال واحتجان الفيء والمغانم. وقد بلغ الخلاف بين خليفة دمشق عبد الملك بن مروان وواليه على مصر عبد العزيز بن مروان حول السياسة الأموية تجاه البلاد المغربية، أن "أراد أن يخلع أخاه عن مصر في سنة 85، على ما فعل من عزل حسان بن النعمان وفيئه"[304].

ومن الملاحظ أن موسى بن نصير لم يتأخر عندما حل بالمغرب عن بذل ما في وسعه لإرضاء ولي نعمته، من خلال الإسراف في الإغارة والقتل والسبي والغنم. وبرغم توقف أهل المغرب عن المقاومة، إذ "لم يدافعه أحد"[305] و "لم يلق حربا منهم"[306]، فإن موسى بن نصير لم يتعفف عن وضع السيف في قبائلهم المسالمة "فتبعهم وقتلهم قتلا فاحشا وسبى منهم سبيا كثيرا"[307]. ولم يذخر جهدا في محاربة بقايا ممالك "البتر والبرانس ممن لم يكن دخل في الطاعة. فلما دنا من طنجة بث السرايا فانتهت إلى السوس الأدنى فوطئهم وسباهم وأدوا إليه الطاعة"[308]. مما يؤكد مرة أخرى أن الأمر بالنسبة للخلافة الأموية وولاتها يتعلق بفرض الطاعة، لا بنشر الإسلام.

[302] نفسه، ج1، 39.
[303] فتوح إفريقية والأندلس، 68.
[304] البيان المغرب، ج1، 41.
[305] نهاية الإرب، 200.
[306] البيان المغرب، ج1، 42.
[307] تاريخ إفريقية والمغرب، ج1، 38.
[308] فتوح إفريقية والأندلس، 71.

بديهي أن تستقطب المملكة البرنسية المنتظمة حول حاضرة سقوما أو سجومة اهتمام موسى بن نصير الذي بادر بأخذها غرة "وقتل ملوكها، وأمر أولاد عقبة: عياض وعثمان وأبا عبدة أن يأخذوا حقهم من قاتل أبيهم فقتلوا من أهل سجومة ستمائة رجل من كبارهم"[309]، مما ينم على روح الانتقام. وإمعانا في إذلال أهل البلد لم يتردد موسى بن نصير عن "سبي ذراريهم، وحمل من مدينة سجومة بنات كسيلة وبنات ملوكهم"[310]. كما سبق له أن أغار على قبائل هوارة وزناتة وكتامة المنتظمة في مملكة أمازيغية قائمة حول قاعدة سجلماسة، "وكان عليهم رجل يقال له طامون"[311]. وقد انتهت العمليات باختلال أمرها وأسر ملكها الذي حمل إلى مصر وقتل صبرا بين يدي عبد العزيز بن مروان. أما "بنو مسور ومزدانة ملك السوس"[312] فقد مالوا إلى الطاعة.

ويخيل إلينا أن موسى بن نصير قد أغار على أطراف بلاد الريف أيضا. والغالب على الظن أن الأمة المعروفة باسم: راح أو راحا أو رداحا كانت من بين نساء بربر نفزة اللواتي وقعن في أسر موسى بن نصير، فحملت من ضمن السبايا إلى عبد العزيز بن مروان بفسطاط مصر، ومنها بعثت إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بدمشق. ويتعلق الأمر بوالدة عبد الرحمن الداخل مؤسس الإمارة الأموية بالأندلس، إذ كشفت المصادر عن تأصل "أخواله [في] نفزة من قبائل البربر"[313]، مؤكدة في أكثر من مناسبة أن "أمه بربرية من سبي المغرب"[314]. أما مملكة غمارة المصمودية المنتظمة حول حاضرة سبتة

---

[309] البيان المغرب، ج1، 41.
[310] فتح العرب للمغرب، 224.
[311] البيان المغرب، ج1، 41.
[312] نفسه، ج1، 45.
[313] ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1963، ج1، 35.
[314] البيان المغرب، ج2، 47؛ عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب (=المعجب)، تحقيق محمد بن سعيد العريان/ محمد العربي العلمي، القاهرة، 1949، 16.

فقد مالت إلى مسالمة موسى بن نصير "فصانعه صاحبها يليان الغماري بالهدايا وأذعن للجزية، وكان نصرانيا"[315].

وباستثناء مستخلص صالح بن منصور بتمسامان ومملكة يليان بسبتة، واضح أن موسى بن نصير قد عمد إلى إتلاف كافة الأنظمة السياسية المحلية بالمغرب الأقصى، وتخريب أجهزتها التقريرية وتفكيك أنسجتها المجتمعية. أردف ذلك ببناء سلطات بديلة كفيلة بضمان انخراط المغرب الأقصى في سلك التبعية لنظام دمشق عبر ولاية القيروان. فعلى إثر تفكيك مملكة سجلماسة، أعاد موسى بن نصير ترتيب أوضاع قبائل هوارة وزناتة وكتامة "فولى عليهم رجلا منهم"[316]. وبالمثل، فلما أفلح في إخضاع قبائل تامسنا المصمودية بالسوس الأدنى "وأدوا إليه الطاعة ولى عليهم واليا أحسن فيهم السيرة"[317]. ينطبق نفس الشيء على بقية أهل المغرب الأقصى الذين "استأمنوا لموسى بن نصير وبذلوا له الطاعة فقبل منهم وولى عليهم"[318].

فلما انتظمت أمور المغرب الأقصى لموسى بن نصير ودانت له البلاد "ولى طارق بن زياد"[319] مقاليد أمورها. وقد ضبط ابن عذاري تاريخ انتظام هذه الولاية بأقصى مغرب دار الإسلام، بالقول: "وكانت ولاية طارق على طنجة والمغرب الأقصى في سنة 85" هجرية (704 ميلادية). ونتوفر على نص منسوب للواقدي بالغ الدلالة في التأريخ لتأسيس ولاية المغرب الأقصى من قبل موسى بن نصير الذي "فتح طنجة ونزلها، وهو أول من اختط فيها للمسلمين"[320]. وقد بادر حينئذ إلى تكوين أداة للحكم ممثلة في نواة جيش وضع

---

[315] الإستقصا، ج1، 96.
[316] البيان المغرب، ج1، 41.
[317] فتوح إفريقية والأندلس، 71.
[318] الاستقصا، ج1، 96.
[319] فتوح إفريقية والأندلس، 71.
[320] أنظر: فتوح البلدان، 232.

تحت إمرة "طارق بن زياد، وكانوا ألفا وسبعمائة"[321]. ويتعلق الأمر بفرقة من رهائن البربر الذين جمعهم حسان بن النعمان من القبائل التي استأمنت إليه بإفريقية. وقد أضيف إليهم "رهائن المصامدة [الذين] جمعهم موسى بن نصير"[322] من تامسنا وبلاد السوس؛ فضلا عما حصل عليه بسجلماسة من "رهائن كتامة وزناتة وهوارة، فجمعهم مع رهائن حسان وولى عليهم طارق بن زياد"[323]. هكذا فبقدر ما تم ضمان تبعية كافة قبائل المغرب لسلطان طارق بن زياد بفضل رهائنها الموضوعين تحت إمرته، بقدر ما ساهمت جميعها من خلالهم في حكم البلاد. فما كان إلا أن استقر "طارق يومئذ بتلمسين، وموسى بن نصير بالقيروان"[324]. وبذلك تألقت تلمسان باعتبارها أول حاضرة للمغرب الأقصى، بعد اندماجه السياسي وانتظامه الإداري في دار الإسلام.

وإضافة لما حققه موسى بن نصير من نجاح سياسي، فقد ظل حريصا على بعث أخماس مغانم المغرب وآلاف السبايا مما وقع في شباك جنده إلى ولي نعمته بمصر، الذي كان يسارع إلى إرسال ذلك جملة للخليفة بدمشق، ملتمسا الدعم لسياسته المغربية. وهو ما لم يتأخر، إذ سرعان ما أقر الخليفة ما أمضاه واليه على مصر مخاطبا إياه بالقول: "قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من رأيك في عزل حسان وتولية موسى، وقد أمضى لك أمير المؤمنين ما كان من رأيك وولاية من وليت"[325]. وقد كشف أحد الإخباريين بوضوح تام عن حجم الأموال المتدفقة من المغرب ودورها في تغيير موقف الخليفة من موسى بن نصير، إذ قال: فلما "بعث بغنائمه وأنهاها عبد العزيز إلى عبد الملك، سكن ذلك من عبد الملك بعض ما كان يجد على موسى"[326]. وبالمثل، فقد شاع بربوع

---

[321] فتوح إفريقية والأندلس، 71. وقد ورد اسمه في الأصل كالتالي: طارق بن عمرو
[322] البيان المغرب، ج1، 42.
[323] فتح العرب للمغرب، 224.
[324] فتوح إفريقية والأندلس، 72.
[325] البيان المغرب، ج1، 40.
[326] فتوح إفريقية والأندلس، 69.

المشرق أنه "لم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير"[327]. وسرعان ما تألقت صورته في بلاط بني أمية، فلم يتردد الوليد بن عبد الملك إثر مبايعة بالخلافة سنة 86 للهجرة عن فصل ولاية إفريقية والمغرب عن ولاية مصر، رابطا قاعدة القيروان مباشرة بحاضرة دمشق. وبذلك غدت ولاية المغرب الأقصى المنتظمة حول قاعدة تلمسان تابعة إداريا لولاية إفريقية التي تضمن ارتباط مجمل الغرب الإسلامي بحاضرة الخلافة بدمشق. وقد بعث الخليفة كتابا لواليه على مصر يعلمه بالتغيير الإداري و "بولاية موسى بن نصير إفريقية والمغرب وقطعها عنه"[328]. وهو ما أربك جمهرة المؤرخين القدامى والمحدثين الذين اعتقدوا خطأ أن موسى بن نصير قد ولي على إفريقية وبلاد المغرب من طرف الوليد بن عبد الملك سنة 86 هجرية. والصواب ـ كما بينا ذلك سلفا ـ أنه قد ولي من قبل صاحب مصر سنة تسع وسبعين للهجرة، ثم أعيد تعيينه من طرف الخليفة مباشرة، بعد ربط ولاية إفريقية والمغرب بدمشق سنة ست وثمانين للهجرة. إن في ذلك ما يدعو المؤرخين إلى إعادة النظر في تسلسل الأحداث وتفاعل الوقائع وفق سياقها التاريخي.

وبقدر ما أصبح موسى بن نصير مفوض السلطة بكافة إفريقية والمغرب من قبل الخليفة، فقد حظي طارق بن زياد النفزي بنفس السلطات التفويضية بالمغرب الأقصى. حقيقة أن المصادر لم تحتفظ بنص التعيين، مع ذلك فالغالب على الظن أن موسى بن نصير قد فوض له فتح ما استطاع إليه سبيلا من البلاد القاصية. ويظل تحصيل المغانم واستيفاء المجابي والأموال وبعثها توا نحو القيروان من الشروط الملزمة، حسبما تقتضيه طبيعة النظام الأموي. ومنذ تعيينه على رأس الولاية سنة 85 هجرية إلى حين عبوره المجاز لفتح الأندلس، يكون طارق بن زياد قد أمضى حوالي سبع سنوات في حكم

---

327 الاستقصا، ج1، 69.

328 البيان المغرب، ج1، 41.

المغرب الأقصى. وهي في تقديرنا السنوات السبع التي وضعت الأسس الأولى لكيان حضاري متميز، كان له أبلغ الشأن في صياغة تاريخ الجناح الغربي لدار الإسلام.

وبصرف النظر عما سلف ذكره عن تحويل كافة المعابد والكنائس والشنوعات الموروثة عن العهد القديم اختيارا إلى مساجد، وتوجيه محاريبها نحو الكعبة في ظل حكم طارق بن زياد، فقد نجح في استقطاب كافة أهل المغرب للانخراط الإيجابي في صياغة معالم دار الإسلام. إنها السنوات السبع التي تحقق فيها تحول أهل المغرب الأقصى من منطق مواجهة المشروع الحضاري العربي الإسلامي إلى الانخراط في بنائه. ولم يذخر طارق بن زياد وسعا في تكوين الأداة العسكرية الكفيلة بتحقيق ذلك، ممثلة في قوة من عامة قبائل المغرب الأقصى، تراوحت باختلاف التقديرات بين "سبعة آلاف"[329] نفر و "اثني عشر ألفا من البربر"[330]. أما العرب، فلم يبق منهم بالمغرب الأقصى بعد انصراف ممثل ولاية إفريقية مروان بن موسى بن نصير عن بلاد طنجة قافلا إلى القيروان إلا "ستة عشر رجلا"[331] حسب بعض الروايات. وهو ما كشف عنه ابن القطان[332] بوضوح تام في سياق حديثه عن تنصيب طارق بن زياد على ولاية المغرب الأقصى، إذ قال مدققا في عددهم: "وترك موسى بن نصير سبعة عشر رجلا من العرب". لم يكن هذا الرقم ليروق لكثير من الرواة العرب المأخوذين بهوس التفوق العرقي، فلم يتورعوا عن تفخيمه بإضافة الأصفار على يمين العدد الذي غدا محسوبا بما يطمس الحقيقة "في سبعة عشر ألفا من العرب"[333].

---

[329] أخبار مجموعة، ورقة 3.

[330] البيان المغرب، ج1، 24.

[331] فتح إفريقية والأندلس، 71.

[332] أنظر: البيان المغرب، ج1، 43.

[333] نفس المصدر والصفحة.

وبعدما استقامت له أمور المغرب الأقصى من حدود تلمسان إلى مشارف بلاد السودان، لم يتأخر طارق بن زياد عن الشروع في الإعداد لفتح الأندلس. وحتى يتحقق ذلك في أحسن الظروف، باشر القائد المغربي الاتصال بأحد أبناء الملك غيطشة المخلوع عن عرش القوط بالأندلس بواسطة انقلاب قاده الحاكم العسكري لذريق. وقد أشارت بعض المصادر التاريخية إلى ترتيب أمر فتح الأندلس من قبل طارق بن زياد ووريث العرش القوطي عند وفادة هذا الأخير على تلمسان، فـ"قال له طارق: وما جاء بك؟ قال له: إن أبي مات ووثب على مملكتنا بطريق يقال له لذريق، وبلغني أمركم فجئت أدعوكم إليها وأكون دليلكم عليها"[334]. كما باشر طارق بن زياد الاتصال بـ "يليان صاحب سبتة"[335] وأمير غمارة لتنسيق المواقف والإعداد للمجاز إلى الأندلس. والغالب على الظن أن أمير غمارة يليان قد سارع إلى فك الارتباط بنظام لذريق العسكري القائم بطليطلة، وأعاد الاستمساك من جديد بعقد الصلح والمسالمة الموقع قديما مع نظام الخلافة بدمشق، بإيعاز من طارق بن زياد الوالي على المغرب الأقصى. مصداق ذلك استجابة يليان لطارق بن زياد لما خاطبه بالقول: "إني لا أطمئن إليك حتى تبعث إلي برهينة، فبعث إليه بابنتيه ولم يكن له ولد غيرهما، فأقرهما طارق بتلمسين واستوثق منهما"[336].

ويخيل إلينا أن طارق بن زياد قد بادر إلى اختراق النسيج المجتمعي بشبه جزيرة إيبيريا عن طريق استمالة اليهود إلى مشروعه، إذ كانوا مستاءين من طغيان الحاكم العسكري لذريق المتسلط على مقاليد الحكم بطليطلة. لذلك دأب الفاتحون المغاربة إثر دخولهم الأندلس "في كل بلد يفتحونه أن يضموا

[334] تاريخ إفريقية والمغرب، 42. ويتعلق الأمر فيما يبدو بالمند بن غيطشة. ولقد وقع الرقيق القيرواني في الخلط معتقدا أن الأمر يتعلق بغلام يدعى إليان، علما بأن إليان أو يليان كان حاكما على سبتة.
[335] فتوح إفريقية والأندلس، 72.
[336] نفس المصدر والصفحة.

بهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها "[337]. وحتى يستكمل كافة الترتيبات، عمد طارق بن زياد إلى بعث سرية عسكرية لاستكشاف حصانة مملكة القوط، وهي المعروفة بسرية طريف التي نزلت بأحواز كورة شذونة، بالموقع الذي ما زال إلى اليوم منسوبا إليه، والمقصود مدينة طريفة.

ويتعلق الأمر حسب محمد بن يوسف الوراق التاريخي عمدة مؤرخي المغرب "بطريف أبا ملوك برغواطة من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحق....، وإلى طريف نسبت جزيرة طريف"[338]. ومن المفيد الانتباه إلى أننا أمام رواية أصيلة وردت على لسان أحد أوثق المصادر المغربية. ويتعلق الأمر بأبي صالح زمور بن موسى بن هشام بن واريزن البرغواطي، الذي بادر إلى توضيح أن طريف "كان على ديانة الإسلام"[339]. وليس مصادفة أن تتجرد بعض الأقلام لطمس الأصل المغربي الأمازيغي لطريف باعتباره أول من وطأت قدماه بلاد الأندلس في الإسلام. ولم تتورع عن نسب ذلك لشخصية مشرقية من أصل عربي ترجم لها تارة باسم "طريف بن مالك النخغي"[340] وطورا باسم "أبي زرعة طريف بن مالك المعافري"[341].

ومن المعلوم أن طارق بن زياد قد برهن على قدرات فذة في نقل كافة قواته بالمراكب بحرا نحو الضفة الأخرى، وإقامة معسكره عند الجبل الذي أصبح منذ ذلك الحين يعرف باسمه: جبل طارق. وقد تم عمليات الانزال في سرية تامة خلال شهر رمضان من سنة 92 هجرية (710 ميلادية) "لا يشعر بهم أهل الأندلس ولا يظنون إلا أن المراكب تختلف بمثل ما كانت تختلف به

---

[337] المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (=نفح الطيب)، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968، ج1، 263.

[338] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

[339] نفس المصدر والصفحة.

[340] الاستقصا، ج1، 98.

[341] تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نصان جديدان (= تاريخ الأندلس لابن الكردبوس)، تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد، 1971، 45.

من منافعهم، وكان طارق في آخر فوج ركب"[342]. وبذلك تحقق لطارق بن زياد أحد شروط التفوق العسكري متمثلا في مفاجأة لذريق الذي هرول في جموعه مذعورا للقاء غريمه. وبعد التحام الجمعان في معركة فاصلة "على نهر لكه من أعمال شذونة"[343] قتل لذريق وانهزم القوط فلم يلووا على شيء حتى دخل طارق بن زياد ــ فيما يشبه نزهة عسكرية ــ عاصمة ملكهم بطليطلة.

وعلى غرار صالح بن منصور النفزي وطريف بن شمعون المصمودي وغيرهما من عظماء أهل المغرب ومشاهير رجالاته، ليس مصادفة أن يتم التشكيك في نسب طارق بن زياد. فبصرف النظر عن اختلاف الرواة في ضبط اسمه، بين قائل أنه طارق بن زياد، ومعتقد بأنه "طارق بن عمرو"[344]، وما ترتب عن ذلك من ارتباك في ضبط نسبه، فقد "فقيل ابن زياد وقيل ابن عمرو"[345]، فالأدهى من ذلك طمس أصله. ومن المعلوم أن ثمة روايات تنسبه عربيا في عشيرة بني الليث، بالقول: "طارق بن زياد الليثي"[346]. بينما ذهب الخلط بآخرين بعيدا فنسبوا "طارق بن زياد فارسيا همذانيا"[347]. وقد نبهت جملة من المصادر التاريخية[348] إلى شذوذ الرواية التي تنسب طارق بن زياد إلى الفرس. بينما تميل المصادر المتداولة إلى اعتبار طارق بن زياد مولى لموسى بن نصير، فثمة إشارة إلى "أنه ليس مولاه وأنه من موالي صدف"[349]، إحدى العشائر العربية. ومن المفيد بهذا الصدد التذكير بموقف أبناء طارق بن زياد وأحفاده الذين ظلوا "بالأندلس ينكرون ولاء موسى إنكارا شديدا"[350]. وقد احتفظ

---

342 فتوح إفريقية والأندلس، 73.
343 نهاية الإرب، 205.
344 فتوح إفريقية والأندلس، 71.
345 المعجب، 9.
346 الترجمانة الكبرى، 94.
347 أخبار مجموعة، ورقة 3.
348 البيان المغرب، ج2، 5؛ نفح الطيب، ج1، 254.
349 أخبار مجموعة، ورقة 3.
350 نفح الطيب، ج1، 254.

ابن عذاري[351] بشجرة "نسب طارق: هو طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو بن ورفجوم بن يزناسن بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاو". وهو ما اختصره في نفس السياق بالقول: "فهو نفزي"[352]. وقد فصلنا في دراسة سابقة[353] أصول قبائل نفزة ومواطنها ببلاد الريف في شمال المغرب الأقصى، كما فككنا بطونها وأفخاذها وأحصينا تشعب فصائلها. ويقدم الفقيه القرطبي ابن حزم[354] إضافات قيمة عن نسب "ميمون بن أبي جميل: وهو ابن أخت طارق بن زياد". ومن المعلوم أن بني جميل من ضمن الفصائل القبلية التي ما زالت إلى اليوم محتفظة باسمها القديم على مقربة من موقع بادس الأثري ببلاد الريف شمال المغرب الأقصى.

وعلى عكس بلاد إفريقية والمغرب التي استغرق فتحها ما ينيف عن نصف قرن من الزمن، اندمجت الأندلس في أقل من سنة، بفضل حكمة طارق بن زياد وحنكته وإقدام جيوشه من أهل الريف وعموم قبائل المغرب الأمازيغية. إن في ذلك ما يذكر بسرعة فتوح عمر بن الخطاب في العراق وخراسان ومصر والشام. ولا غرو، فقد نجح طارق بن زياد في كسب عامة أهل الأندلس من النصارى واليهود للاندماج طوعا في دار الإسلام. كما أضفى تمام الشرعية على عمليات الفتح بممالأة الأسرة المالكة المخلوعة من أبناء غيطشة آخر ملوك القوط. ولعل في حسن معاملته لعامة أهل البلد والتزامه بالعهود والتسجيل للناس بحقوقهم على الأرض[355] ومراعاته قواعد العدل، ما جعل فتح الأندلس على يد طارق بن زياد بمثابة تحرير لأهلها من قبضة الطاغية لذريق وسطوة نظامه العسكري.

---

[351] البيان المغرب، ج1، 43.
[352] نفس المصدر والصفحة.
[353] إمارة بني صالح، 170- 178.
[354] جمهرة أنساب العرب (جمهرة أنساب العرب)، بيروت، 1983، 502.
[355] لمزيد من التفصيل بهذا الخصوص راجع دراستنا: A. Tahiri, *Agricultura y poblamiento rural en Sevilla durante la época abbadí*, Sevilla, 2001, pp. 57-59.

وبالإضافة لــ"رهائن المصامدة"[356] فقد كان لقبائل نفزة[357] من سكان بلاد الريف التي ينتمي إليها طارق بن زياد، ومن لف بهم من قبائل مكناسة الضاربة في نواحي ملوية، أبلغ الأثر في فتح الأندلس، إذ استقروا على طول المنطقة الممتدة بين قرطبة وبلاد جليقية. ينطبق نفس الشيء على البرانس[358] من بربر صنهاجة مفتاح المنحدرين من بلاد الريف أيضا، الذين استقروا بكورة إشبيلية وبنواحي قرطبة. ولا تعوزنا التفاصيل عن أماكن استقرار الفاتحين الأوائل من بربر هوارة وزناتة[359] المنحدرين من أحواز سجلماسة إثر دخولهم الأندلس. ناهيك عن "عامة البتر"[360] وغيرهم من بطون وأفخاذ وفصائل قبائل المغرب الأقصى التي فصلنا في دراسة سابقة[361] مواطن استقرارها بالأندلس. ونظرا لاندماجهم السريع مع جيرانهم من أهل الأندلس الأصلين، فقد اندرج الإخباريون الأوائل على نعتهم بـــ"البلديين"[362]. تجدنا إذا أمام حقيقة تاريخية ثابتة مفادها أن فتح الأندلس قد تم إنجازه بصفة تامة من طرف طارق بن زياد النفزي، بواسطة قوة بربرية أمازيغية من أهل المغرب الأقصى، ومن عضدهم من رهائن عموم البرابر. ولذلك "اندرجت ولاية الأندلس يومئذ في ولاية المغرب" تحت إمرة طارق بن زياد.

لم يكن موسى بن نصير ينتظر أن يتم فتح الأندلس بالسرعة في الحسم والفعالية في الإنجاز والكفاءة العالية في التدبير التي باشر بها طارق بن زياد

---

[356] فتح العرب للمغرب، 224.

[357] المسالك والممالك، 44.

[358] ابن حيان، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس (=المقتبس 1937)، نشر ملتشور أنطونية، باريس، 1937، 68.

[359] جمهرة أنساب العرب، 465، 499-500.

[360] ابن حيان، المقتبس في أنباء أهل الأندلس (=المقتبس 1971)، تحقيق محمود مكي، القاهرة، 1971، 171-72.

[361] A. Tahiri, "Beréberes en al-Andalus, origines de una historia compartida entre la Península Ibérica y el Magrib", in: *El Rif en al-Magrib y al-Andalus durante los tres primeros siglos del Islam* (en prensa)

[362] ابن حزم، رسالة التلخيص لوجوه التخليص، ضمن الرسائل، تحقيق إحسان عباس، ج3، بيروت، 1980، 175

الأمر. لذلك فما أن وصله "كتاب طارق بالفتح والغنائم حركته الغيرة"[363] فأسرع مهرولا نحو الأندلس التي غدت بفضل أهل المغرب الأقصى جزءا من دار الإسلام. وبدلا من تهنئة طارق بالفتوح، أخذ الحقد والغيرة بلب موسى بن نصير و"خرج مغيظا على طارق"[364] خلال سنة 93 هجرية (711 ميلادية)، "فعبر البحر غاضبا على طارق"[365] أشد ما يكون الغضب. وعندما حل بالأندلس فارسا بدون ساحة قتال، التمس لنفسه مسلكا مخالفا، بهدف إثارة الشكوك تمهيدا لطمس الحقيقة. وبرغم تواضع طارق بن زياد لموسى بن نصير مخاطبا إياه بالقول: "إنما أنا مولاك وهذا الفتح لك"[366]، تجاسر عليه موسى "فشده وثاقا وحبسه وهم بقتله"[367]. ويتواتر ذكر ما تعرض له طارق من إهانة وسوء معاملة، تنم عن دناءة خلق موسى بن نصير وخبث سريرته وضيق نفسه، إذ "ضربه موسى بالسوط على رأسه ووبخه"[368].

من الطبيعي أن يعمد موسى بن نصير على إثر ذلك إلى حبك مؤامرة واسعة لطمس كافة ما يتعلق بفتح الأندلس من حقائق، ويحرك الضمائر والأقلام للنيل من هوية الفاتحين ونسب أعمالهم لشخصه. وهي الروايات التي يبدو أنها قد انطلت على جملة من الرواة القدامى والمحدثين الذين باشروا بثها بدون تحقيق، في مصنفاتهم ودراساتهم. إلا أن إخضاع مجمل ما يتعلق بهذه المرحلة المؤسسة لتاريخ المغرب والأندلس، كفيل بالكشف عن مواطن التدليس والزلل. وهو ما تجرد طارق بن زياد من حينه لمقارعة آثاره، وهو في الأسر مرددا بصوت مرتفع قوله: "إن فتح الأندلس كان على يدي وان موسى حبسني"[369]. ما

---

[363] الاستقصا، ج1، 98.
[364] فتوح إفريقية والأندلس، 76.
[365] البيان المغرب، ج1، 43.
[366] فتوح إفريقية والأندلس، 76.
[367] نفسه، 80.
[368] نهاية الإرب، 207.
[369] فتوح إفريقية والأندلس، 80.

كان لطارق أن ينجو من القتل لولا إسراعه إلى بعث مولاه مغيثا الرومي رسولا إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، فأخبره بالذي "كان من فتح الأندلس على يدي طارق، وبحبس موسى إياه والذي أراد به من القتل"[370]. وبالمثل، لم يتأخر موسى بن نصير عن مراسلة الخليفة و"كتب إليه وادعى أنه هو الذي فتح الأندلس"[371]. حري بجمهرة المؤرخين والمهتمين بتاريخ المغرب والأندلس أن يتحروا الدقة عند استنطاق مصادر معارفهم بهذا الخصوص، ويميزوا بين صناع الحدث الحقيقيين من أهل الريف وعموم بلاد المغرب الأقصى، وقد خنق صوتهم وطمست بطولاتهم وأتلفت مناقبهم، وبين المدعين ممن راجت مزاعمهم واكتسحت أباطيلهم كتب التاريخ قديما وحديثا.

وبعد إمساكه بزمام الأمور بالأندلس، "جمع موسى من الأموال ما لا يقدر على صفته ودفع طارق كل ما كان غنم إليه"[372]. أردف ذلك بعزل طارق بن زياد عن ولاية المغرب الأقصى والأندلس وباشر الفصل بينهما في ولايتين: ولاية الأندلس وأسندها لابنه عبد العزيز، وولاية المغرب الأقصى وأسندها لابنه عبد الملك. وهو نفس المعنى الذي أشار إليه ابن عذاري[373] بذكره تنصيب موسى بن نصير "على طنجة ابنه عبد الملك". ويبدو أنه قد عمد إلى عزل يليان صاحب سبتة عن حكم بلاد غمارة التي آلت منذ هذا التاريخ إلى التفكك والانحلال. وعند ما هم موسى بن نصير بالعودة إلى المشرق سنة 95 هجرية (713 ميلادية)، محملا بأثقاله من التحف والذخائر والنفائس والأمتعة والأموال والسبايا، "استخلف على إفريقية وأعمالها ابنه الكبير عبد الله"[374]. وبذلك تكون

---

[370] نفسه، 81.
[371] نهاية الإرب، 208.
[372] فتوح إفريقية والأندلس، 76- 77.
[373] البيان المغرب، ج1، 44.
[374] نهاية الإرب، 208.

كافة بلاد إفريقية والمغرب والأندلس قد وقعت ـ إلى حين ـ تحت قبضة آل موسى بن نصير.

ولعل فيما تواتر من أخبار عن قدوم موسى بن نصير بغنائم المغرب والأندلس، ما يميط اللثام عن درجات الجشع التي ألمت بدواليب النظام الأموي. ففي طريق عودته من المغرب، "مرض الوليد بن عبد الملك فكان يكتب إلى موسى يستعجله، ويكتب إليه سليمان بالمكث والمقام ليموت الوليد ويصير ما مع موسى إليه"[375] بعد توليه الخلافة. ومن المعلوم أن موسى بن نصير قد لقي على يد الخليفة سليمان بن عبد الملك نفس المصير الذي جرعه لطارق بن زياد، كما تعرض أبناؤه وأملاكهم ببلاد المغرب للقتل والمصادرة والاستصفاء. وفي ذلك ما يفصح من زاوية ثانية عن طبيعة النظام الأموي الذي سرعان ما يقلب المجن لرجاله وصناع عزه، حالما انتفت الحاجة إليهم.

تتابع بعدئذ تعيين الولاة في تلمسان، على وقع التغييرات التي دأبت الخلافة الأموية على إجرائها ـ كما هو معلوم ـ على رأس ولاية إفريقية التي ظلت متحكمة إداريا في ولاية المغرب الأقصى. منهم من كان "عادلا حسن السيرة"[376]، مثل محمد بن يزيد. ومنهم من "كان خير وال وخير أمير"[377]، مثل إسماعيل بن أبي المهاجر الذي ولاه الخليفة عمر بن عبد العزيز. ومن الولاة من "كان ظلوما غشوما"[378] من أمثال يزيد بن أبي مسلم "كاتب الحجاج"[379] وقد أمره الخليفة يزيد بن عبد الملك. ومنهم من "أساء السيرة وتعدى"[380] على أموال عامة أهل البلاد.

---

[375] فتوح إفريقية والأندلس، 81- 82.
[376] الاستقصا، ج1، 100.
[377] تاريخ إفريقية والمغرب، 62.
[378] البيان المغرب، ج1، 48.
[379] فتوح إفريقية والأندلس، 87.
[380] تاريخ إفريقية والمغرب، 72.

ويبدو أن الولاة الأمويين على إفريقية قد عمدوا خلال هذه الفترة إلى تقسيم ولاية المغرب الأقصى في ظل التدبير الإداري الجديد إلى عمالتين: الأولى ببلاد طنجة والثانية بالسوس. فقد ورد الخبر أن عبيد الله بن الحبحاب الذي أسندت له ولاية إفريقية سنة 116 هجرية (734 ميلادية) قد "استعمل ابنه إسماعيل بن عبيد الله على السوس"[381]. ومن المعلوم أن عبيد الله بن الحبحاب قد "استعمل على طنجة وما والاها عمر بن عبد الله المرادي"[382]. ويبدو أن تعمق مجال المغرب الأقصى نحو تخوم بلاد السودان، كان وراء الإقدام على هذا التعديل الإداري. فقد تواتر الخبر عن إنفاذ حملة بقيادة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة "فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان"[383]. وليس مصادفة أن يتم خلال نفس المدة إنفاذ الحملة المشهورة إلى ما وراء جبال البرانس "فغزا عبد الرحمن [الغافقي] إفرنجة، وهم أقاصي عدوة الأندلس"[384]. واضح أن الاندفاع العسكري لنظام بني أمية قد بلغ أقصى الغايات، مخترقا هوامش الأندلس نحو الأرض الكبيرة خلف جبال البرتات، ومندفعا وراء صحراء المغرب الأقصى نحو تخوم بلاد السودان. ومن المعلوم أن استنفاذ إمكانيات الفتح، سرعان ما ينعكس سلبا على اقتصاد هش قائم على المغازي.

لذلك، وبرغم انتظام بلاد المغرب في دار الإسلام، وانقطاع السبي والغنم عنها، لم يتوانى خلفاء بني أمية عن مطالبة ولاتهم بأصناف في المجابي والهدايا والأموال. وهو ما لخصه أحد الرواة بالقول: "وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية؛ فيبعثون لهم البربريات السنيات"[385]. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل سرعان ما انعكست

---

[381] فتوح إفريقية والأندلس، 94.
[382] نهاية الإرب، 213.
[383] فتوح إفريقية والأندلس، 94؛ تاريخ إفريقية والمغرب، 72؛ البيان المغرب، ج1، 51؛ الاستقصا، ج1، 106.
[384] فتوح إفريقية والأندلس، 92.
[385] البيان المغرب، ج1، 52.

المطالبات المتزايدة لبني أمية على التوجهات المالية لنظام الخلافة تجاه عموم بلاد إفريقية والمغرب والأندلس. ويبدو أن عبيد الله بن الحبحاب قد سبق أن "مناهم بالكثير، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة"[386]. وهي التوجهات التي بالغ عمر بن عبد الله المرادي في وضعها موضع التطبيق ببلاد طنجة وما والاها "فأساء السيرة، وتعدى في الصدقات والعشر، وأراد أن يخمس البربر، وزعم أنهم فيء المسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كانت الولاة يخمسون من لم يؤمن ولم يجب إلى الإسلام"[387].

ولما بالغ ولاة بني أمية في وضع الوظائف والمطالبات و"كثر عيثهم بذلك في أموال البربر"[388] تأهب أهل بلاد طنجة وما والاها، واجتمع إليهم عامة أهل المغرب الأقصى فثاروا على الخلافة الأموية وقتلوا عامليها ببلاد طنجة والسوس. حدث ذلك سنة 122 هجرية (739 ميلادية) فكانت أول ثورة بالمغرب الأقصى في الإسلام[389]. تم ذلك بزعامة ميسرة المطغري الذي اجتمعت كافة قبائل المغرب الأقصى على ترشيحه "للخلافة وتسمى بها وبويع عليها"[390]. وبذلك انفصلت البلاد جملة عن الخلافة الأموية القائمة بدمشق للشروع في صياغة فصل جديد من تاريخها ضمن دار الإسلام؛ وهو ما سنتناوله بتفصيل في الفصل اللاحق.

---

[386] نفس المصدر والصفحة.

[387] تاريخ إفريقية والمغرب، 73.

[388] الإستقصا، ج1، 106.

[389] البيان المغرب، ج1، 52.

[390] فتوح إفريقية والأندلس، 94.

الفصل الثاني

بواكير التيارات الفكرية والمذهبية
بالمغرب الأقصى

"جل من يعتقد مذهبا من مذاهب الفقهاء فإن فيهم الجهمي والرافضي والخارجي إلا مذهب مالك فإني ما سمعت أن أحدا تقلد مذهبه قد قال بشيء من البدع".

ابن سهل، الأحكام الكبرى، مخطوط المكتبة العامة بالرباط رقم 838 ق، 401

من المفيد الانتباه إلى دور الأصول الفكرية السابقة للإسلام، في صياغة المنحنيات الثقافية التي تحكمت في انتقال أهل المغرب الأقصى، من الانتماء في العصر القديم، والانخراط جملة في صياغة معالم الفكر الإسلامي بالجناح الغربي لدار الإسلام. وقد سلفت الإشارة إلى تعايش الديانتين السماويتين اليهودية والمسيحية، إلى جانب المعتقدات الوثنية، سواء لدى المجموعات القبلية أو في المراكز الحضرية. ولا تعوزنا الإشارات المصدرية التي تناولت بالذكر "نصارى البربر"[1] وكذا قبائل "البربر [ممن] دانوا بدين اليهودية"[2]. وهو من المواضيع التي تحتاج إلى مزيد من الاستقصاء في بحث مستقل، من خلال النبش عن النتف المتناثرة والمؤشرات الدالة، اعتمادا على المنهج الذي أخذنا به في مناسبات سابقة، عند البحث في الزوايا المطموسة من تاريخ المغرب. ويتعلق الأمر بمنهجية في العمل تعتمد القراءة الواسعة التي لا تكل في مختلف المصادر المتداولة، مع التنقيب في ثناياها عما تخلف بين السطور من رقع مفككة، وعلق بالرسوم من بصمات باهتة، تفيد أيما إفادة في إعادة بناء الجوانب المبتورة من تاريخ البلد.

إلا أن أهم ما يثير الانتباه عند التجرد للنظر في الأصول الفكرية، عدم انخراط أهل المغرب الأقصى في مواجهة العقيدة الإسلامية، ولا في إقصاء أولى الموجات الفكرية المشرقية المنشأ، ممثلة في الروايات المأثورة على لسان الصحابة والتابعين. والملاحظ أن التصورات الانطباعية الغير الموثقة، التي دأبت على إسقاط الصراع الثنائي الذي دار بالحجاز بين كفار قريش والمسلمين من المهاجرين والأنصار، قياسا على أوضاع المغرب، لا تتماسك عند التجرد لصياغة تاريخ المغرب الأقصى من خلال مصادره. وقد تبين سلفا كيف انضوى أهل المغرب الأقصى في الإسلام طوعا واختيارا، فحولوا كافة معابدهم

[1] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 160.
[2] كتاب العبر، ج6، 140.

اقتناعا نحو الكعبة. أما وأن يصيب التأريخ لخلافة بني أمية هوى في أقلام الباحثين، فينخرطوا في إسقاط الخلاف السياسي بين ملوك المغرب وولاة بني أمية، والحروب بين الآلة العسكرية الأموية والقبائل المغربية، على القضايا المرتبطة بالمعتقدات الدينية والتصورات الفكرية، معتبرين إياه صراعا بين الإسلام والشرك فذاك مكمن الخلط.

وليس أدل على تخلي أهل المغرب الأقصى اختيارا عن النهل من منابع المعتقدات الموروثة عن العصر القديم، من انخراطهم منذ البدايات الأولى في التيارات الفكرية والمذهبية التي راجت بدار الإسلام. نخص منها بالذكر مذهب أهل السلف الذين كان لهم مدرسة رائدة في السنة والجماعة بشمال المغرب الأقصى، قلما أثارت انتباه الدراسين في أصول الثقافة والفكر بالمغرب والأندلس. كما شاع التيار الخارجي بشقيه الصفري والإباضي، فكان له أبلغ وقع في صياغة الفصول الأولى من تاريخ الفكر المغربي. ولا يقل المذهب الإعتزالي الواصلي أهمية، إذ شاعت مقالاته في جملة من المناطق. ينطبق نفس الشيء على التيار الشيعي بشقيه العلوي الزيدي الذي شاع في البدايات، والإسماعيلي الفاطمي الذي راج فيما بعد. ويشكل المذهب البرغواطي تركيبا مذهبيا مغربيا، أثار من القدح المنفعل أكثر مما استماله من أقلام البحث التاريخي الرصين.

أولا ــ مذهب أهل السلف في الاستقامة والإقتداء

ترجع الأصول الأولى لأهل السلف المقتدين في المغرب الأقصى بمجتمع الأخوة الأول بالمدينة، المستمسكين بالعدل والصلاح وفق مقتضيات السنة النبوية، المسترشدين بتجربة الخلفاء الأربع الراشدين وبأقوال الصحابة والتابعين، إلى فترة مبكرة. ويمكن التأريخ لذلك بمنتصف العقد السابع من القرن

الهجري الأول، عندما تمكن صالح بن منصور من نشر تعاليم الإسلام، انطلاقا من رباط نكور، في أوساط قبائل نفزة وصنهاجة البرنسية وغمارة المصمودية ولواتة، وغيرها من قبائل بلاد نكور. يتجلى ذلك من خلال إقرار الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، الذي أوصى واليه على إفريقية والمغرب موسى بن نصير، بألا يعرض لصاحب نكور ولا يتدخل في شؤون بلده، "لعدله ويتركه على رأيه"[3].

ما عسى أن يكون الرأي الذي كان عليه صاحب نكور منذ هذا الوقت المبكر؟ وعلى أي أساس من الأحكام والشرائع أقام عدله؟ لعل فيما ورد في بعض المتون التاريخية من نعوت في حق صالح بن منصور "المعروف بالعبد الصالح"[4]، ما يقدم خيطا باهتا يساعد في الجواب على هذين السؤالين. ولا يخفى المقصود بمضامين العبادة والصلاح المجتمعتين في شخص صالح بن منصور، لدى مؤرخي أهل السنة من أمثال محمد بن يوسف الوراق التاريخي المعتمد في رواية أبي عبيد الله البكري. وفي تقديرنا أن الجهد الأوفر المبذول من أجل تأصيل مذهب الاستقامة والإقتداء بالسلف الصالح في بلاد نكور، قد تم على يد ثاني أمرائها المعتصم بن منصور، الذي اشتهر بالزهد في شؤون الحكم وأمور السياسة. ولذلك عرف لدى معاصريه من الخاصة والعامة بأخلاقه الفاضلة، إذ كان "شهما شريف النفس كثير العبادة"[5].

ويخيل إلينا أن مذهب الخوارج الصفرية قد تمكن على إثر تغلغله في كافة قبائل المغرب الأقصى من النيل لحين من بلاد نكور أيضا. وهو ما عبرت عنه المصادر التاريخية بالقول:"وارتد أكثرهم لما ثقلت عليهم شرائع الإسلام وقدموا على أنفسهم رجلا يسمى داوود ويعرف بالرندي"[6]. تم ذلك على يد

---

[3] الترجمانة الكبرى، 81.
[4] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 91.
[5] كتاب العبر، ج6، 384.
[6] البيان المغرب، ج1، 176.

داوود الرندي النفزي مقدم الصفرية بقبائل نفزة، حوالي سنة 121 للهجرة (738م). ولا مجال لقبول الأحكام المتسرعة[7] المبنية على سوء تقدير هذه المرحلة من تاريخ المغرب الأقصى، في تصنيف ما حدث لأهل نكور باعتبارها معتقدات خارجة عن الإسلام، تندرج جدلا في سياق الآراء الهرطقية الهدامة. ومن المفيد الانتباه إلى أن المقصود بالردة هنا الثورة على الأمير القائم صالح بن منصور، وليس الارتداد عن الإسلام كعقيدة. ولا حاجة للتذكير بما شاع في سياق الخلاف الكلامي بين الملل والنحل من مقالات في تكفير الخوارج واتهامهم بالردة والخروج عن الدين كما يخرج السهم من الرمية. ولعل فيما تم إثباته من قول بخصوص ثقل شرائع الإسلام على أهل نكور، ما يؤكد درجات العمل بمضامين الكتاب والسنة والالتزام بسياسة الراشدين وإجماع الصحابة والتابعين.

إلا أن أهل نكور سرعان ما عمدوا إلى طرد الصفريين من بلدهم، والتنصل من بيعة المدعي بالخلافة ميسرة المطغري رأس الصفرية بالمغرب الأقصى، وخلفه خالد بن حميد الزناتي. وهو ما كشفت عنه المصادر بالقول "ثم تلافاهم الله بهداه وتابوا من شركهم وقتلوا الرندي واستردوا صالحا"[8]. بمعنى أنهم قد تخلوا بسرعة عن الارتباط بالمذهب الصفري، وعادوا كما كانوا في الأصل إلى الإقتداء بمذهب سلف الأمة من الصحابة والتابعين. وليس أدل على رسوخ مذهب السنة والجماعة ببلاد نكور، مما قيل في حق صالح بن سعيد خامس أمراء بني صالح، إذ سار على النهج في "تقبل مذهب سلفه في الاستقامة والإقتداء"[9] ، عند توليه مقاليد الحكم بحاضرة نكور سنة 180 هجرية (798م). ولا يخفى المقصود بالاستقامة في العقائد لدى مؤرخي أهل السنة. كما لا تخفى

---

[7] سحر السيد عبد العزيز سالم، المغرب في العصر الإسلامي، الإسكندرية، 1993، 58-59.

[8] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 91.

[9] كتاب العبر، ج6، 283.

الدلالات الاصطلاحية لعبارة الاقتداء، في الإحالة على مرجعية أهل نكور في العقائد والأحكام وأصول الدين.

أما دأب الرواة على إثبات تمسك خامس أمراء بني صالح بمذهب سلفه في الاستقامة والإقتداء، فدليل على ثبات أهل نكور على مبادئ السنة والجماعة، رغم الاضطراب المذهبي الذي عم دار الإسلام بقيام خلافة بني العباس، المحسوبين على آل البيت. ومن المعلوم أنه فضلا عن حركات الخوارج الصفرية والإباضية، فقد عمت دعوات الشيعة الزيدية، ومقالات المعتزلة الواصلية، مشرق دار الإسلام ومغربه، خلال القرن الثاني الهجري. وهو ما لخصه محمد بن يوسف الوراق التاريخي[10] في عبارة مقتضبة دالة بالقول: "ولم يزل آل صالح في السنة والجماعة والتمسك بمذهب مالك بن أنس رضي الله عنه". ولم يكن التشيع الفاطمي[11] ذي المنحى الإسماعيلي لينال من عزيمة أهل نكور الذين تصدوا ببسالة منقطعة النظير لموجاتهم المتعاقبة على المغرب الأقصى. وهو ما عبر عنه المؤرخون في إحالتهم على سابع أمراء نكور صالح الملقب باليتيم الذي "لم يزل على هدي أوليه من الإقتداء إلى أن هلك سنة خمس عشرة وثلاثمائة (927م)"[12].

ولا يخفى التأثير البالغ الذي كان للأخذ بمذهب مالك في الفقه والأحكام على الاستمساك بالسنة والجماعة في مجال العقائد والكلام. وهو ما عبر عنه خليفة الأندلس العالم الحكم المستنصر بالقول: "جل من يعتقد مذهبا من مذاهب الفقهاء فإن فيهم الجهمي والرافضي والخارجي، إلا مذهب مالك فإني ما سمعت أن أحدا تقلد مذهبه قد قال بشيء من البدع"[13]. لذلك، لم يتردد أمراء وخلفاء بني أمية بقرطبة في السير على نهج أمراء بني صالح في نكور والأخذ بمذهب

---

[10] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 97.
[11] وقد خصصنا لذلك فصلا مستقلا ضمن كتابنا: إمارة بني صالح، 73- 99.
[12] كتاب العبر، ج6، 285.
[13] ابن سهل، الأحكام الكبرى، مخطوط المكتبة العامة الرباط، رقم 838 ق، 401.

مالك بن أنس، باعتبار أن "الاستمساك به نجاة"[14]، على حد تعبير الخليفة الحكم المستنصر. ومن المعلوم أن أهل الأندلس كانوا على مذهب أهل الشام الأوزاعي، منذ أدخله صعصعة بن سلام[15] إلى حين إلغاء العمل به في إمارة الحكم بن هشام الربضي(ت 206 للهجرة/821 م).

وقد أمكننا الوقوف على جملة من القنوات الدالة على دور خاضرة نكور وإمارتها في تحول الأندلس من العمل بمذهب الأوزاعي إلى الأخذ بمذهب مالك، في حلقة مفقودة من تاريخ الفكر الفقهي بالغرب الإسلامي. حقيقة أن ثمة إجماع على مكانة يحيى بن يحيى الوسلاسي المصمودي المشهور بالليثي المتوفى سنة 234 هجرية (848م)، فـــ "إليه انتهت الرياسة بالفقه في الأندلس وبه انتشر مذهب مالك"[16]. إلا أن إقدام أرباب التراجم على نسبه أندلسيا بحكم إقامته في الأندلس، على غرار غيره من علماء نكور النفزية وغمارة المصمودية، قد ساهم في إغفال موطنه الأصلي بريف غمارة فكاد يمر ضياعا. كما أن إشاعة انتسابه بولاء مفترض لبطن بني ليث العربي قد ساهم في طمس هويته الأمازيغية المغربية. ومن المفيد الانتباه إلى أن "يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس وقيل وسلاسن ... أصله من قبيلة يقال لها مصمودة"[17]. ولا غرو، فقد أشار ابن خلدون[18] إلى أن "قبائل غمارة [المصمودية] وصنهاجة [البرنسية] أسلموا على يد" صالح بن منصور صاحب نكور.

ينطبق نفس الشيء على عبد الله بن عيسى بن أبي زمنين وابنه محمد بن عبد الله بن أبي زمنين وغيرهما من آل ابن أبي زمنين الذين ترسخ بفضلهم

---

[14] المعيار المعرب، ج6، 357.
[15] الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، القاهرة، 1967، 324.
[16] الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، بيروت، 1983، ق2، 610.
[17] نفسه، ق2، 609.
[18] كتاب العبر، ج6، 283.

مذهب مالك بالأندلس وبلغ على يدهم المرتبة الرفيعة في الفقه والأحكام. ومن الملاحظ أن عبد الله بن أبي زمنين قد نسب لموطن هجرته بإلبيرة أندلسيا، في حين أن انتماؤه الأصلي في بلاد نكور. فقد احتفظ القاضي عياض بإشارة هامة تفيد أن "أصله من نفزة من البربر من العدوة"[19]. وقد كشفنا في دراسة سابقة[20] عن تراجم جملة من الفقهاء والعلماء والقضاة المالكية من أهل القرن الثالث والرابع والخامس الهجري المنحدرين من حاضرة نكور، بما يدعو إلى إعادة ترميم هذه الحلقة المفقودة من تاريخ الفقه المالكي بالغرب الإسلامي.

ومن أبرز فقهاء نكور الراسخين في مذهب مالك، ومن أقدم صلحائها الزهاد، نذكر الأمير عبد الرحمن بن سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور الملقب بالشهيد. "وكان عبد الرحمن فقيها بمذهب مالك، وحج أربعا وعبر إلى الأندلس للجهاد فقطع عليه ابن حفصون الطريق فقتل من كان معه، وتخلص عبد الرحمن على فرسه وحضر غزاة أبي العباس القائد واستشهد فيها"[21]. تجدنا أمام الجذور الفكرية الأولى المتأصلة بحاضرة نكور التي تعمد إلى الجمع بين التفقه بمذهب مالك، والزهد في الدنيا وفي أمور الحكم وحياة القصور، والتماس الشهادة عبر الرباط والجهاد في أقصى ثغور المسلمين بأطراف الأندلس.

ولا يخفى دور أمراء بني صالح في تأسيس مدرسة رائدة في حفظ القرآن بحاضرة نكور، وفي دمج الإمامة الصغرى للصلاة بالإمامة الكبرى في الحكم والسلطان، على هدي خليفة رسول الله أبي بكر الصديق. فعلى الرغم من بيعة المعتصم بن صالح بن منصور على إثر وفاة أبيه سنة 132 للهجرة (749م) أميرا على بلاد نكور، "كان يلي الصلاة والخطبة لهم بنفسه"[22] مدة

---

[19] ترتيب المدارك وتقريب المسالك في التعريف بأعلام مذهب مالك، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، 1982، ج4، 18.
[20] إمارة بني صالح، 208- 211.
[21] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 92.
[22] كتاب العبر، ج6، 284.

حكمه. وبالمثل، فقد كان الأميرين "سعيد وأبوه صالح يصليان بالناس ويخطبان ويحفظان القرآن"[23]. والراجح أن الأجيال الأولى من فقهاء المغرب والأندلس قد حفظوا القرآن، وتلقوا أصول الدين على مذهب السلف في الاستقامة والإقتداء بحاضرة نكور، ومنها كانت رحلاتهم المشرقية إلى الحجاز، حيث تلقوا العلم سماعا عن أمام المدينة مالك بن أنس .

ولا غرو، فمنذ البدايات الأولى إلى حين توالي الخراب عليها في موجات متعاقبة، ظلت حاضرة نكور وعموم مملكة بني صالح نبراسا منيرا لأهل السنة والجماعة، وقلعة حصينة في مواجهة الفرق المخالفة من الخوارج والشيعة والمعتزلة. وعلى مدى ما ينيف عن ثلاثة قرون من الزمن، تفانى أهل نكور في الحفاظ على جذوة السنة والجماعة متقدة وسط الإعصارات المذهبية التي هبت رياحها بقوة على مجمل بلاد المغرب والأندلس. كما ظلوا مستمسكين بمذهب مالك فيما يشبه جزيرة منفردة بعد المحنة الشهيرة[24] التي نالت المالكية بإفريقية. وهي المهمة الحضارية التي سرعان ما انتقلت مقاليدها من نكور إلى الأندلس، على إثر إعلان الخلافة بقرطبة، التي حجبت بتألقها كثيرا من معالم القرون الثلاث الغابرة.

ثانيا ـ مذهب الخوارج الصفرية والإباضية

يشكل الخوارج الصفرية والإباضية تيارا مذهبيا مشرقي المنشأ، كان له إلى جانب مذهب السلف في الاستقامة والإقتداء السالف الذكر، أبلغ الأثر في صياغة الفصول الأولى من تاريخ الفكر بالمغرب الأقصى. ويكشف ابن حوقل عن أولى الموجات المذهبية التي حلت بتخوم إفريقية واستقرت بجبل نفوسة

[23] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 97.

[24] لمزيد من التفصيل، راجع: محمود إسماعيل: محنة المالكية في إفريقية المغربية رؤية اجتماعية، ضمن مغربيات دراسات جديدة، فاس، 1977، 57-81.

"منذ أول الإسلام، بل منذ عهد علي عليه السلام، وقت انصرافهم عنه بمن سلم معهم من أهل النهروان"[25] سنة 38 للهجرة (658 ميلادية). وقد ظل دور هذه الجماعة الأولى من الخوارج الناجين من القتل، باهتا في مكان نزولهم بجبل نفوسة، الذي اعتبر منذ ذلك الحين دار هجرة للخوارج ببلاد المغرب. وما كان للمذهب الخارجي أن ينتشر على أوسع نطاق إلا مع نهايات القرن الأول وبدايات القرن الثاني للهجرة. تم ذلك انطلاقا من حاضرة القيروان بإفريقية، حسبما تواتره أئمة المذهب الإباضي، إذ تواتر الخبر بأن "أول من جاء بهذه الصفة يريد مذهب الإباضية ونحن بقيروان إفريقية سلمة بن سعيد، قدم علينا من أرض البصرة هو وعكرمة مولى ابن عباس، وهما راكبان على جمل واحد حملا عليه زادهما: سلمة بن سعيد يدعو إلى الإباضية، وعكرمة [مولى] ابن عباس يدعو إلى الصفرية"[26].

ومن المعلوم أن الخوارج قد افترقوا بالمشرق في عدة فرق[27] تراوحت على اختلاف التقديرات بين أربعة عشر فرقة، أو سبعة عشر فرقة، إلى ستة وثلاثين فرقة. ومن أشهر تلك الفرق: الأزارقة والنجدات والإباضية والصفرية. وقد أجمعوا باختلاف مشاربهم على جواز إمامة كل مسلم عالم بالكتاب والسنة دون اشتراط النسب القرشي أو الانتماء في آل البيت. وبصرف النظر عن ارتباط نشأتهم بحادثة التحكيم الشهيرة بصفين، فقد أجمعت كافة فرقهم على "وجوب الخروج عن السلطان الجائر"[28]. وقد آلت جميع فرقهم خصوصا الغلاة منهم إلى الاندثار، باستثناء اثنتين: الإباضية والصفرية. وهو ما أشار إليه ابن حزم[29] بالقول: "ولم يبق اليوم من فرق الخوارج إلا الإباضية والصفرية فقط".

---

[25] صورة الأرض، 95.

[26] ابو زكريا، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، 1982، 40- 41.

[27] وهو ما تناولته كتب الملل والنحل ومقالات الإسلاميين وفرقهم بتفصيل. عن أبرز فرقهم، انظر: عبد القاهر البغدادي، كتاب الملل والنحل (=الملل والنحل)، تحقيق ألبير نصري نادر، بيروت، 1986، 57- 82.

[28] الملل والنحل، 58.

[29] الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر / عبد الرحمن عميرة، بيروت، 1985، ج5، 53.

ومن الملاحظ أن قلة هي القبائل التي أعتنقت المذهب الإباضي في المغرب الأقصى. ذكر ابن خلدون من ضمنها "مطماطة ومكناسة وزناتة ...[باعتبارهم] جميعا على دين الخارجية، وعلى رأي الإباضية"[30]. ومعلوم أنهم يضربون في السهوب الشبه الجافة بنواحي ملوية. ينطبق نفس الشيء على "قبائل بني واسين فهم إباضية "[31] أيضا. وقد حدد ابن حيان[32] مواطنهم في سياق حديثه عـ "من كان على ملوية وصاع من قبائل بني واسين". والجدير بالذكر أن المذهب الصفري هو الذي كان له ــ دون غيره ــ أبرز تأثير بالمغرب الأقصى. وبرغم تضارب الآراء حول أصل تسميتهم، وترجيح كتب الفرق انتسابهم لشخص يقال له زياد بن الأصفر، فالغالب على الظن أن الفرقة اقتبست اسمها من مؤسسها عبد الله بن الصفار. حدث ذلك سنة 65 هجرية (684 ميلادية) إثر خلاف فقهي بين عبد الله بن الصفار ونافع ابن الأزرق حول مسألة القعدة، فمالوا إلى بلورة مقالة خاصة بهم ميزتهم كفرقة قائمة الذات في موقف وسط بين الأزارقة المتطرفين والإباضية المعتدلين[33].

ومن المفيد الانتباه إلى أن الداعية للمذهب الصفري ببلاد المغرب عكرمة بن عبد الله البربري (25 ــ 105 للهجرة/ 645 ــ 723 ميلادية) أمازيغي الأصل. ويعتبر فضلا عن ذلك من التابعين، إذ كان مولى للفقيه الشهير ابن عباس، مما أتاح له فرصة مخالطة أعلام الفقهاء والمحدثين كأبي هريرة والسيدة عائشة فسمع منهم وأخذ عنهم، حتى أصبح من الثقاة في الفقه والحديث[34]. إلا أنه سرعان ما مال إلى المذهب الصفري، فأصبح من فقهائه

---

[30] كتاب العبر، ج6، 158.

[31] جمهرة أنساب العرب، 498.

[32] المقتبس ، ج5، نشر ب. شالميتا وف. كورينطي وم. صبح، المعهد الاسباني العربي للثقافة، مدريد، 1979، 370.

[33] محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري (=الخوارج في بلاد المغرب)، الدار البيضاء، 1976، 45.

[34] نفسه، 47.

ودعاته، ثم انتقل من العراق نحو القيروان حيث جلس مجلس الداعية الموكول إليه بث أصول المذهب في أوساط قبائل المغرب.

وفي المصادر التاريخية ما ينم عن دور ميسرة المطغري في تلقي أصول المذهب الصفري بالقيروان على يد عكرمة بن عبد الله البربري. ويؤصل علماء الأنساب[35] مدغرة أو مضعرة أو مطغرة باعتبارهم من بطون فاتن بن ضريسة من البرابرة البتر المستقرين بالمغرب الأقصى. وتجتمع معهم في نفس النسب بطون مديونة ومغيلة ومطماطة وكذا مكناسة الضاربة في أحواز ملوية. وفضلا عن تفوقهم العددي، فقد امتازت قبيلة مطغرة بميلها نحو الاستقرار. مصداق ذلك ما ورد على لسان ابن خلدون[36] بأن "مضغرة هم من أوفر هذه الشعوب وكانوا خصاصين آهلين". وتشغل مواطنهم[37] تلال المغرب الأقصى الممتدة ما بين فاس وتلمسان. كما تستقر بعض فروعهم بجبل مطغرة قبلة من الموقع الذي بنيت فيه مدينة فاس، وكذا بنواحي سجلماسة وتوات في اتجاه الصحراء. وتكشف المصادر التاريخية عمن تصدر زعامة قبائل مطغرة خلال هذا العصر، إذ "كان شيخهم ميسرة"[38]. وقد ورد ذكر هذه الشخصية في أقدم ما وصلنا من روايات إخبارية بصفته "ميسرة بن الفقير البربري ثم المدغري"[39]. كما نعت في الحوليات التاريخية باسم "ميسرة السقاء... وكان خارجيا صفريا وسقاء"[40]. ولعل فيما قيل عن احترافه السقاية ونعته بـ"بائع الماء بسوق القيروان"[41]، ما يدل على إيثاره التقية والاستخفاء عن عيون ولاة

---

[35] راجع: كتاب العبر، ج6، 155؛ الاستقصا، ج1، 108.

[36] كتاب العبر، ج6، 155. ومن المعلوم أن الإخصاص يحيل على اتخاذ مساكن للاستقرار بها بعد التخلي عن حياة الترحال.

[37] راجع: نفسه، ج6، 157- 58.

[38] نفسه، ج6، 155. وبعد مقتل ميسرة أسندت رئاسة مطغرة بعده ليحيى بن حارث المطغري. ومن مشاهير مشايخ قبيلة مطغرة نذكر بهلول بن عبد الواحد الذي يعتبر إلى جانب عبد الحميد الأوربي عماد الدولة الإدريسية، انظر: نفسه، ج6، 157.

[39] فتوح إفريقية والأندلس، 94.

[40] الكامل في التاريخ، م3، 349.

[41] افتتاح الأندلس، 39.

بني أمية، قصد مداومة الاتصال بداعية المذهب الصفري بالقيروان عكرمة بن عبد الله البربري. والراجح أنه قد انتسب فقيرا حتى لا يثير الشكوك، ثم عمد المخالفون من أهل المذاهب الأخرى بعدئذ إلى وسمه بـــ "الحقير"[42].

وسرعان ما استوعب ميسرة المطغري مقالات الخوارج وتدرج في أصولهم حتى غدا "مقدما في ذلك المذهب"[43] ببلده. ونظرا لرسوخ علمه بقواعد التيار الصفري، نعت بكونه "مقدم الصفرية من الخوارج"[44]. وهو ما أشار إليه ابن عذاري بوضوح تام في وصف "ميسرة المدغري [بـــ] رأس الصفرية"[45] بالمغرب الأقصى. ولا يخالجنا شك في تمكن ميسرة المطغري من نشر المذهب الصفري في أوساط قبيلته التي لم يتردد أهلها عن الانحياز جملة إلى مقالاته "فكانوا على رأي الصفرية"[46]. وهو ما أكده أحد المؤرخين بالقول: "ولما سرى دين الخارجية في البربر أخذ مضغرة هؤلاء بمذهب الصفرية"[47].

ومن أبرز مشايخ قبائل المغرب الأقصى التي تلقت أصول الدعوة الخارجية الصفرية على يد عكرمة بن عبد الله البربري، نذكر سمكو بن واسول المكناسي، شيخ قبائل مكناسة. وتشير المصادر التي تناولته بالذكر إلى رحلته منذ وقت مبكر إلى المشرق، طلبا للعلم والمعرفة. وهو ما تناقله المؤرخون بالقول أنه "من حملة العلم، ارتحل إلى المدينة فأدرك التابعين"[48] وأخذ عنهم الفقه والحديث. ومال بعد رجوعه إلى المغرب إلى داعية المذهب الصفري بالقيروان

---

[42] ذكر ابن عبد الحكم أنه "المعروف بالحقير"، نفس المصدر والصفحة. وفي البيان أيضا "ميسرة الحقير" ج1، 52. وبالمثل، فقد أشار إليه البكري بالقول: "ميسرة المطغري المعروف بالحقير"، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135. ومن الملاحظ أن هذه العبارة قد تعرضت للتصحيف مع اضطراب رسمها في جملة من المصادر المتداولة. فلدى صاحب الاستقصا أنه "المعروف بالخفير" ج1، 108 وعند ابن خلدون أنه "يعرف بالجفير" ج6، 155.

[43] الاستقصا، ج1، 108.

[44] كتاب العبر، ج6، 145.

[45] البيان المغرب، ج1، 53.

[46] الاستقصا، ج1، 108.

[47] كتاب العبر، ج6، 155.

[48] نفسه، ج6، 172.

فـ "لقي بإفريقية عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه"[49]. وهو ما أكده ابن خلدون[50] بقوله: أن سمكو بن واسول قد "أخذ عن عكرمة مولى ابن عباس" أصول المذهب الصفري.

وعلى غرار ميسرة شيخ قبائل مطغرة، سرعان ما اكتمل تكوين سمكو بن واسول على يد الداعية بالقيروان، فأصبح هو الآخر "مقدم الصفرية"[51] في بلده. تجدنا إذا أمام أصول انتشار الدعوة الصفرية في أوساط قبائل مكناسة، "وكانت مواطنهم على وادي ملوية من لدن أعلاه سجلماسة إلى مصبه في البحر"[52]. وليس أدل على انخراط كافة فروع قبائل مكناسة وبطونها للدعوة الصفرية، مما ذكره بعض الرواة بالقول: "كان أهل مواطن سجلماسة من مكناسة يدينون لأول الإسلام بدين الصفرية من الخوارج"[53]. وهو ما أكدته الحوليات التاريخية التي أشارت إلى "دخول سائر مكناسة من أهل تلك الناحية في دينهم"[54].

كما لا تعوزنا الدلائل عن انتشار المذهب الصفري ـ حول ذات التاريخ ـ ببلاد تامسنا والسوس الأدنى. مصداق ذلك ما نص عليه ابن عذاري[55] في إشارة لمن "كان بالمغرب حينئذ، قوم ظهرت فيهم دعوة الخوارج، ولهم عدد كثير وشوكة كبيرة، وهم برغواطة". ويرجع الفضل في ذلك إلى شيخهم الذي استمال أهل بلده "برغواطة، [وهم] قبيل من قبائل البربر على البحر المحيط"[56]، حسب توضيحات ابن حوقل. وبرغم ما أثير من خلاف حول

---

[49] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 149.
[50] كتاب العبر، ج6، 172. وهو ما أشار إليه في مكان آخر بالقول: "فكان من مشاهير حملة العلم فيهم سمكو بن واسول جد بني مدرار ملوك سجلماسة، أدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس" ج6، 138.
[51] محمد الشطي المغربي، الجمان في أخبار الزمان، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 1416 تاريخ، ورقة 203، نقلا عن: الخوارج في بلاد المغرب، 48.
[52] كتاب العبر، ج6، 170.
[53] نفسه، ج6، 171- 72.
[54] الاستقصا، ج1، 124.
[55] البيان المغرب، ج1، 52.
[56] صورة الأرض، 82.

أنسابهم وما شاع بخصوص أصولهم من غموض، نميل إلى ترجيح الرأي الذي يقر بأن "برغواطة بطن من المصامدة"[57]. وهو ما كشف عنه ابن خلدون[58] الذي أثبت أصولهم باعتبارهم من "الجيل الأول منهم، كان لهم في صدر الإسلام التقدم والكثرة، وكانوا شعوبا كثيرة مفترقين، وكانت مواطنهم خصوصا من بين المصامدة في بسائط تامسنا وريف البحر المحيط، من سلا وأزمور وأنفا وآسفي" إلى مشارف جبل درن. تجدنا إذا أمام أقدم البطون القبلية التي عمرت مجمل هذه المناطق المغربية قبل اختلاط الأعراق بها. فهم بذلك "أهل تامسنا، وهم الذين يقال لهم في القديم برغواطة"[59].

وقد تم انتشار المذهب الخارجي الصفري في أوساطهم على يد كبيرهم وشيخهم "طريف من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحق"[60]. وهو المكنى في بعض المصادر باسم "طريف أبو صبيح"[61]. وقد أشار أحد المؤرخين[62] إلى اتصاله هو الآخر بعكرمة البربري مولى ابن عباس، وتلقيه أصول المذهب على يديه بالقيروان. وليس أدل على انتمائه في المذهب الصفري، مما ورد على لسان البكري الذي أكد أن "طريفا ...كان من أصحاب ميسرة المطغري"[63]. وهو ما أكده ابن خلدون[64] بالتصريح أن "طريف أبو صبيح كان من قواد ميسرة الحقير القائم بدعوة الصفرية". وقد تواتر في المصادر المتأخرة الخبر بأن "طريف أحد قواد ميسرة المدغري"[65].

---

[57] الاستقصا، ج1، 114.

[58] كتاب العبر، ج6، 276.

[59] أبو راس المعسكري، الحلل السندسية في شان وهران والجزيرة الأندلسية (=الحلل السندسية)، تحقيق سليمة بنعمر، ليبيا، 2002، 506.

[60] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135. وهو ما أشار إليه ابن عذاري أيضا بالقول "طريف من ولد شمعون بن إسحاق"، البيان المغرب، ج1، 56.

[61] كتاب العبر، ج6، 276؛ الاستقصا، ج1، 114.

[62] الخوارج في بلاد المغرب، 48.

[63] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

[64] كتاب العبر، ج6، 276.

[65] الحلل السندسية، 506.

ونظرا لسيادته في قومه، فقد ورد ذكره على لسان الراوية أبو صالح زمور بن موسى بن هشام بن واردیزن البرغواطي بصفته "طريفا أبا ملوك"[66] برغواطة. ولقد سلفت الإشارة لإسناده مهمة قيادة أول حملة استكشافية لسواحل الأندلس من طرف طارق بن زياد أمير المغرب الأقصى. وهو ما دأبت أوثق المصادر التاريخية بالإشارة إليه بالقول: "فإلى طريف نسبت جزيرة طريف"[67]. وليس مصادفة أن يتم النيل من شخصه، على غرار ما تعرض له قادة الخوارج الصفرية من تجريح واتهام بالزندقة والمروق في الدين، على لسان خصومهم من أهل الملل الأخرى. وهو ما حذا بزمور بن وارديزن البرغواطي إلى الاصرار توكيدا على أنه "كان على ديانة الإسلام"[68].

ولا تعوزنا الدلائل الكاشفة عن سريان المذهب الخارجي الصفري في معظم مناطق المغرب الأقصى. وهو ما أشارت إليه المصادر بالقول: "وظهرت الخوارج في كل جهة"[69]. وقد كشف زمور البرغواطي[70] في لائحة مفصلة عن مختلف البطون القبلية التي أخذت بقواعد المذهب الخارجي الصفري بالمغرب الأقصى. نخص منهم بالذكر جراوة وزواغة ومطغرة وبنو دمر ومطماطة. ومن المفيد الإشارة إلى انخراط "زناتة الجبل ...وبني يفرن"[71] وغيرها من القبائل المغربية في المذهب الصفري. وليس أدل على تصاعد مكانة زناتة ضمن المنظومة القبلية، وحدة شوكتها وكثرة عددها وأوليتها في الانتماء للمذهب، من تنصيب زعيمها "خالد بن حميد الزناتي"[72] على رأس كافة صفرية بلاد المغرب، على إثر مقتل ميسرة المطغري.

---

[66] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.
[67] نفس المصدر والصفحة.
[68] أنظر: نفس المصدر والصفحة.
[69] كتاب العبر، ج6، 157.
[70] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 140-41.
[71] نفسه، 141.
[72] البيان المغرب، ج2، 54.

ويخيل إلينا أن داوود الرندي النفزي المنسوب إلى رندة بكورة تاكرنا المجاورة بالضفة الأخرى من العدوة الأندلسية، قد انخرط في المذهب الصفري. ولا نستبعد أن يكون هو الآخر من ضمن مشايخ قبائل المغرب الأقصى الذين تتلمذوا على الداعية عكرمة البربري بالقيروان. وهو ما يتضح من خلال رواية محمد بن يوسف الوراق التاريخي الذي أشار إلى تنصل أهل نكور من قبائل نفزة وغمارة وصنهاجة المنضوين في كنف إمارة بني صالح، من بيعته. وقد أشار إلى ذلك بالقول :"ثم ارتد أكثرهم لما ثقلت عليهم شرائع الإسلام وقدموا على أنفسهم رجلا يسمى داوود ويعرف بالرندي وكان من نفزة"[73]. والراجح أن المقصود بالارتداد في هذا السياق، التخلي عن مذهب السنة والجماعة الذي كان عليه أهل البلد، والأخذ بمذهب الخوارج الصفرية.

نخلص إلى أن عكرمة البربري قد تمكن بصفته داعية للمذهب الصفري من تكوين شبكة من مقدمي الصفرية في أوساط مشايخ أبرز المجموعات القبلية بالمغرب الأقصى وأشدها شوكة: مطغرة ومكناسة وزناتة ومصمودة ونفزة وغيرها. وقد اعتمد في ذلك على استمالة ذوي الجاه والسطوة والنفوذ، ممن كان لهم باع في العلم والحكمة، وممن سبق له أن تلقى أصول الفقه ورواية الأحاديث. ولعل في ذلك ما يكشف عن مكونات أقدم نخبة من أهل المعرفة وعلم الكلام بالمغرب الأقصى: سمكو بن واسول المكناسي وميسرة المطغري وطريف بن شمعون وداوود النفزي وخالد الزناتي "ومغرور بن طالوت"[74]، وغيرهم ممن لم نتمكن من استقصاء أسمائهم. ومن خلال هذه الشبكة، أمكن للمذهب الخارجي الصفري أن يتغلغل إلى أعماق المغرب الأقصى "وصار منهم عدد كبير وشوكة قوية"[75].

---

[73] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 91.
[74] نفسه، 135.
[75] نهاية الإرب، 214.

والغالب على الظن أن مقدمي الصفرية بالمغرب الأقصى قد بادروا، خلال العقد الثاني من القرن الثاني الهجري، إلى الانتظام في مجلس للنظر في شؤون البلاد وأمور الحكم والسلطان. فما كان إلا أن أجمعوا على تقديم ميسرة المطغري ليكون رأسهم وإمامهم. وهي المرتبة التي تناولتها المصادر المتداولة بذكر "ميسرة المطغري رأس الصفرية، أمير الغرب"[76]. فما كان على ميسرة المطغري إلا أن أعلن على إثر ذلك إمامة الظهور بقيادة ثورته المشهورة ضد ولاة بني أمية بالمغرب الأقصى، عملا بأحد مبادئ الخوارج القائل "بوجوب الخروج على السلطان الجائر"[77].

والجدير بالملاحظة أن ثورة الخوارج الصفرية بالمغرب الأقصى قد تم الإعداد لها بعناية فائقة. تشير بعض المصادر إلى تزعم ميسرة المطغري وفدا من البربر المغاربة متوجها بهم إلى الشام لمقابلة الخليفة هشام بن عبد الملك، والشكوى من جور عبيد الله بن الحبحاب وولاته على بلاد طنجة والسوس. وهو ما اعتبره أحد المختصين[78] مبادرة للوقوف على مسؤولية الخلافة الأموية فيما يحدث بالمغرب، وإقامة الحجة عليها فيما سلف ذكره عن تخميس البربر، وللتأكد "أعن رأي أمير المؤمنين هذا أم لا ؟"[79]. لم ينل أعضاء الوفد المغربي حظوة لقاء الخليفة، إذ أحيل بينهم وبينه، فما كان إلا أن تيقن الجميع من تواطؤ دار الخلافة بدمشق مع ولاتها بإفريقية حول تفاصيل ما يتعرض له أهل المغرب من تعسف ومظالم. كما تم اختيار الوقت المناسب للخروج وإعلان الثورة، أثناء غياب جيش إفريقية في حملة عسكرية ضد روم صقلية. "فلما بلغ البربر خروج حبيب بن أبي عبيدة إلى بلد الروم، انتفضوا على عبيد الله بن

---

[76] البيان المغرب، ج2، 53.
[77] الملل والنحل، 58.
[78] الخوارج في بلاد المغرب، 63- 64.
[79] حسب رواية الطبري، أنظر: نفسه، 64.

الحبحاب"[80] وأعلنوا مفارقتهم لسلطان بني أمية، وانسحاب بلاد المغرب من نظام الخلافة القائم بدمشق.

تم ذلك سنة 122 هجرية (739 ميلادية)، إذ انتفضت بلاد طنجة بأسرها، وتداعت كافة أهل هذه الجهة من المغرب الأقصى ضد رموز الخلافة الأموية. وهو ما لخصه قدماء رواة الأخبار، بالقول: "وانتقضت البربر على عبيد الله بن الحبحاب بطنجة، فقتلوا عامله عمر بن عبد الله المرادي"[81]. وهو الانتقاض الذي اعتبر من طرف الرواة "أول فتنة كانت بإفريقية في الإسلام"[82]. وليس مصادفة أن يتم ذلك بالمغرب الأقصى وببلاد طنجة بالذات، التي كانت منذ أقدم العصور وفي ظل دار الإسلام القلب المحرك لمجمل البلاد المغربية، بما في ذلك شبه جزيرة الأندلس. ولا غرو، "فلما بلغ أهل الأندلس ثورة البربر بطنجة ثاروا على واليهم عقبة بن الحجاج فخلعوه"[83].

وفي خضم تلك الأحداث، بادر ميسرة المطغري وأهل الحل والعقد من مقدمي الصفرية بإعلان خلافة بديلة للأمويين بالمغرب الأقصى. وهو ما عبر عنه ابن عبد الحكم في عبارة مقتضية دالة بالقول: "تولى ذلك ميسرة بن الفقير البربري ثم المدغري، وهو الذي قام بأمر البربر وادعى الخلافة وتسمى بها وبويع عليها"[84]. وبرغم صمت المصادر العربية عن إيراد تفاصيل إعلان أقدم نظام بديل للخلافة الأموية بالمغرب الأقصى، فقد تواتر الخبر على أن الأمر يتعلق فعلا ببيعة، وفق قواعد الشورى. فثمة إشارات مقتضبة وردت في جملة من المصادر المتداولة تشير أن ميسرة المطغري "قد بويع بالخلافة"[85] و"خوطب

---

[80] تاريخ إفريقية والمغرب، 73.

[81] فتوح إفريقية والأندلس، 94. وقد تناول ابن القوطية أيضا هذا الحدث بالقول:"انتقضت البربر بطنجة على عبيد الله بن الحبحاب"، افتتاح الأندلس، 39.

[82] تاريخ إفريقية والمغرب، 73؛ فتوح إفريقية والأندلس، 94؛ نهاية الإرب، 214.

[83] افتتاح الأندلس، 39.

[84] فتوح إفريقية والأندلس، 94.

[85] نهاية االإرب، 214.

بأمير المؤمنين"[86]. وثمة خبر ورد عرضا بما يفيد أن الأمر يتعلق باستلهام تجربة الخلفاء الراشدين. يتجلى ذلك من خلال تعاقد الخليفة بواسطة بيعة الترشيح مع الخاصة من أهل الحل والعقد من مقدمي الصفرية. كما تعاقد في جولة ثانية بواسطة بيعة العامة مع عموم أهل المغرب الأقصى عن طريق إثبات "ما كانوا بايعوه عليه"[87]من الشروط.

وثمة إشارة كاشفة عن شروع ميسرة المطغري في ممارسة سلطانه بوصفه خليفة للمسلمين بالمغرب الأقصى. ومن مظاهر ذلك الإقدام على تنصيب وال يمثله في بلاد طنجة، إذ "استعمل ميسرة على طنجة عبد الأعلى بن حديج الإفريقي، وكان أصله روميا وهو مولى لابن نصير"[88]. واضح أن عبد الأعلى بن حديج والي ميسرة على بلاد طنجة ليس بربريا أمازيغيا، بل "كان [روميا] من موالي العرب وأهل خارجيتهم، وكان يرى رأي الصفرية"[89]. ولعل في ذلك ما يفصح عن خطأ مزاعم القدامى والمحدثين على السواء، ممن دأب على إدراج ثورة الخوارج بالمغرب ضد النظام الأموي، في زاوية تصادم عرقي مفترض بين البربر والعرب. أردف ميسرة المطغري ذلك بمد نفوذ خلافته ليشمل كافة أقاليم وأرجاء المغرب الأقصى. وقد تحقق ذلك بعدما "سار إلى السوس وعليها إسماعيل بن عبيد الله فقتله"[90]. والراجح أنه قد عمد إلى تعيين عامل بدله على بلاد السوس، اختاره من بين أتباعه الراسخين في المذهب الصفري.

وما دامت الخلافة قد أعلنت ببلاد طنجة وشملت بلاد السوس وكافة أرجاء المغرب الأقصى، فقد أصبح لزاما على جميع من ببلاد إفريقية والأندلس

---

[86] الكامل في التاريخ، ج3، 349.
[87] تاريخ إفريقية والمغرب، 74.
[88] فتوح إفريقية والأندلس، 94.
[89] كتاب العبر، ج6، 156.
[90] فتوح إفريقية والأندلس، 94.

من المخالفين لبني أمية التنصل من بيعتهم والالتحاق بسلك الخلافة المعلنة والإقرار بالبيعة لميسرة. بمعنى أن فصلا جديدا من المواجهة بين الخلافة الأموية القائمة بدمشق، وخلافة الخوارج الصفرية المعلنة بطنحة، قد انفتح في ظل الخلاف المذهبي المستحكم ضمن دار الإسلام الواحدة. وهو ما أشار إليه المؤرخون بالقول: "واضطرم المغرب نارا وانتقض أمره على خلفاء المشرق، فلم يراجع طاعتهم بعد"[91].

وسواء بالمغرب أو بإفريقية والأندلس، فمن المعلوم أن ثورة الخوارج الصفرية بقيادة ميسرة المطغري سرعان ما دبت دبيب النار في الهشيم، مما أسفر عن اختلال سلطان بني أمية بمجمل الجناح الغربي لدار الإسلام. وهو ما أشارت إليه الحوليات التاريخية بالقول: وما لبث أن "وثب كل قوم من البربر على من يليهم"[92]من ولاة وعمال بني أمية. وليس أدل على شيوع المذهب الصفري في أوساط عامة أهل البلد، من ذعر الأمويين الذين لم يتمالكوا عن التصريح: "فما بال التحكيم قد فشا فيهم ورفع المصاحف وحلق الرؤوس إقتداء بالأزارقة وأهل النهروان؟"[93]. كما سار أهل الأندلس على ذات المنوال، فأقروا بالبيعة و"حلقوا رؤوسهم إقتداء بميسرة"[94]. وتكشف بعض الروايات ميل البربر البلديين بالأندلس إلى الانتظام في سلك الخلافة الصفرية المعلنة بالمغرب الأقصى، إذ "رأست البربر بالأندلس على أنفسهم ابن مدين"[95]مقدم الصفرية.

وللوقوف في وجه تقدم الخوارج الصفرية نحو القيروان، لم يجد والي بني أمية عبيد الله بن الحبحاب بدا من تجريد حملتين عسكريتين متلاحقتين: الأولى بقيادة خالد بن أبي حبيب الفهري الذي سار "حتى عبر وادي شلف، وهو

---

[91] كتاب العبر، ج6، 156.
[92] مجموعة (=أخبار مجموعة 1989)، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة - بيروت، 1989، 35.
[93] نفسه، 37.
[94] نفسه، 44.
[95] نفسه، 43.

نهر بمقربة من تيهرت"[96] في اتجاه تخوم المغرب الأقصى، ومضى "حتى لقي ميسرة دون طنجة"[97]. وهو نفس التحديد الجغرافي الذي كشفت عنه رواية ابن عذاري، إذ قال: إن خالد "لقي ميسرة بمقربة من طنجة"[98]. ولم يكن ابن الأثير[99] ليختلف مع الروايات السالفة في ضبط موقع "التقاء خالد وميسرة بنواحي طنجة". على منوالهم، أشار البعض الآخر إلى أن اللقاء قد تم "بأحواز طنجة"[100]. أما الموجة العسكرية الثانية التي بعثت من القيروان فقد تقدمت بقيادة حبيب بن أبي عبيدة "حتى نزل على وادي شلف فأقام ولم يبرح"[101]مكانه، تحسبا لكل الاحتمالات. وتجمع المصادر التي تعرضت للقاء بين الخصمين، أنهم "اقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع بمثله"[102]. ويبدو أن المعركة قد حدثت عند التخوم الشرقية للمغرب الأقصى، في مكان ما بين تلمسان وتيهرت. وبدلا عن الوقوف في وجه الخصم واختراق صفوفه كما هو منتظر، "انصرف ميسرة إلى طنجة"[103]، في عملية انسحاب ظلت إلى اليوم غير مفهومة الأسباب. إلا أن ثمة رواية وردت على لسان أحد المؤرخين تشير إلى حدوث اقتتال شديد بين الفريقين، إلى أن يئس كلاهما عن حسم الأمور فـــ"تحاجزوا ورجع ميسرة إلى طنجة"[104].

والراجح أن ثمة خلافات قد دبت بين قيادات الصفرية في خضم المعارك، حسبما يستفاد من الإشارات المصدرية التي تناولت بالذكر مؤاخذة ميسرة بعدم الالتزام بمضمون البيعة، إذ "أنكرت عليه البربر سيرته وتغيره عما

---

[96] البيان المغرب، ج2، 52.
[97] تاريخ إفريقية والمغرب، 74.
[98] البيان المغرب، ج2، 53.
[99] الكامل في التاريخ، م3، 349.
[100] الاستقصا، ج1، 109.
[101] تاريخ إفريقية والمغرب، 74.
[102] الكامل في التاريخ، م3، 349؛ البيان المغرب، ج1، 53؛ نهاية الإرب، 214.
[103] فتوح إفريقية والأندلس، 95؛ البيان المغرب، ج1، 53؛ نهاية الإرب، 214؛ الكامل في التاريخ، م3، 349.
[104] الاستقصا، ج1، 109.

كانوا بايعوه عليه"[105]. ويخيل إلينا أن ثمة انقسام إلى تيارين في صفوف الثوار: الأول بقيادة الخليفة ميسرة المطغري الذي يبدو أنه قد آثر وقف القتال والاكتفاء باقتطاع المغرب الأقصى وبلاد الأندلس من نفوذ خلافة دمشق، مع رسم الحدود بين الخلافتين الأموية بدمشق والصفرية بطنجة، عند المكان الذي تحاجزوا فيه. بينما استمسك الفريق الثاني بالمبادئ والأصول التي تدعو إلى الاستمرار في القتال إلى حين إسقاط الخلافة الأموية الجائرة بدمشق، وإقامة خلافة خارجية عادلة لكافة المسلمين. وبدلا من تقويم الوضع بالطرق المناسبة، لم يتمكن الخوارج الصفرية بالمغرب الأقصى من تجاوز الآفة التي لازمت تاريخ الخوارج الدامي. ومرة أخرى تتأجج خلافاتهم الداخلية في خضم المعارك وأثناء الأوقات العصيبة. وبدلا عن التريث في تطبيق مبادئهم المعلنة، بادروا توا إلى خليفتهم ميسرة المطغري الذي حاد عن شروط البيعة، "فقتلوه، وولوا أمرهم بعده خالد بن حميد الزناتي"[106].

لم تتأخر جموع الخوارج الصفرية عن الالتئام تحت قيادتهم الجديدة لاستئناف القتال ضد جيوش ابن الحبحاب المرابطة في معسكرين قتاليين متدرجين، الأول بأحواز تلمسان والثاني عند وادي شلف. وحتى يتمكن خالد بن حميد الزناتي من اختراق معسكر خالد بن حبيب الفهري المتحصن في شكل "حاجز"[107]، بعث بفرقة ثانية من جيشه في حركة التفاف من الخلف لقطع الاتصال بين المعسكر المتقدم وقاعدته الخلفية المرابطة عند وادي شلف. ولما تأهب الجيش الأموي لقتال طلائع الصفريين المهاجمة والتحم الجمعان، "ظهر عليهم كمين من البربر"[108] فهاجمهم من الخلف، فوقعوا فيما يشبه كماشة. أسفرت المعركة عن إبادة الجيش الأموي برمته ومقتل قائده خالد بن حبيب

---

[105] فتوح إفريقية والأندلس، 95؛ البيان المغرب، ج1، 35؛ نهاية الإرب، 214؛
[106] البيان المغرب، ج1، 53.
[107] الاستقصا، ج1، 109.
[108] الكامل في التاريخ، م1،

الفهري "حتى لم يبق من أصحابه رجل واحد، فقتل في تلك الوقعة حماة العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها، فسميت الغزوة غزوة الأشراف"[109].

لم يتمالك الخليفة هشام بن عبد الملك أمام فداحة الهزيمة عن الانفعال متعصبا في حمية عرقية غير مناسبة لمنصبه كأمير للمؤمنين. فقد صرح قائلا في عبارة مأثورة: "والله لأغضبن لهم غضبة عربية ولأبعثن إليهم جيشا أوله عندهم وآخره عندي"[110]. وهو الجيش الذي أمر عليه كلثوم بن عياض القشيري، وعهد بخلافته إن قتل إلى بلج بن بشر، ومن بعده إن قتل لثعلبة بن سلامة العاملي. وتقدمت القوات المهاجمة من إفريقية ومصر والشام نحو المغرب الأقصى في ثلاثين ألف مقاتل، "فيهم عشرة آلاف من صلب بني أمية وعشرون ألفا من سائر العرب"[111]. وتقدم المصادر العربية[112] تفاصيل المعركة التي دارت رحاها سنة 123 هجرية (740 ميلادية) على وادي سبو، عند الموضع المعروف بـ "بقدورة"[113]. أسفرت المواجهات عن إحدى أكبر الهزائم في تاريخ الخلافة الأموية، إذ آلت جيشها إلى "ثلث مقتول، وثلث منهزم، وثلث مأسور"[114].

ثالثا ــ الحركة الاعتزالية الواصلية.

ومن أبرز التيارات الفكرية التي أثرت في صياغة الخريطة المذهبية بالمغرب الأقصى نذكر تيار الاعتزال الواصلي الذي تبلور بمدينة البصرة على يد واصل بن عطاء، حوالي سنة 100 للهجرة (718م). وبرغم فقدان جميع

---

[109] البيان المغرب، ج1، 54.

[110] تاريخ إفريقية والمغرب، 75.

[111] البيان المغرب، ج1، 55.

[112] راجع تفاصيل المعركة في: أخبار مجموعة 1989، 37- 40؛ افتتاح الأندلس، 39- 40؛ البيان المغرب، ج1، 54-56؛ فتوح إفريقية والأندلس، 96- 99؛ نهاية الإرب، 215- 216؛ كتاب العبر، ج6، 156-157؛ الاستقصا، ج1، 110- 112.

[113] أخبار مجموعة1989، 37؛ ورد الموضع كالتالي "نفدورة" في افتتاح الأندلس، 40.

[114] أخبار مجموعة 1989، 39.

مصنفات واصل بن عطاء، وإتلاف رسائل أبي الهذيل ومقالات النظام، وغير ذلك مما وضعه رواد مشايخ المعتزلة، فقد تمكن الدارسون من خلال ما وصلنا من كتب المعتزلة المتأخرين ومن مقالاتهم المبثوثة في كتب الخصوم، من إعادة بناء جزء هام من فكرهم الكلامي بالمشرق الإسلامي. وقد لخص الدارسون مذهبهم في أصول خمس، منها قولهم في التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إلا أن دورهم المتعاظم، منذ مطلع القرن الثاني الهجري، في صياغة تاريخ الإسلام، قد ظل في معظمه مجهولا. وقد نبه بعض الدارسين[115] إلى أهمية الشروع إخضاع حركة الاعتزال للبحث التاريخي أملا في ترميم الحلقات المخرومة من تاريخهم السياسي.

وغني عن القول أن تاريخ الاعتزال ببلاد المغرب قد ظل إلى عهد قريب من المواضيع الغير المطروحة على بساط البحث، سواء تعلق الأمر بدورهم الفكري والكلامي أو بمكانتهم في صياغة فصول التاريخ العام بالجناح الغربي لدار الإسلام. وهو ما حاول بعض الدارسين[116] تداركه من خلال فتح أبواب البحث في تاريخ المعتزلة بالمغرب. وقد أمكننا في مناسبة سابقة[117] مسايرة تداعيات الفكر الاعتزالي والوقوف على دور هذا التيار الفكري في صياغة معالم المذهب المسري بالأندلس خلال القرنين الثالث الرابع للهجرة. ناهيك عما تجمع لدينا من تفاصيل عن دور الاعتزال الواصلي في تكوين ثلة من أهل القلم الذين تصدروا خطط الفتيا والقضاء والمظالم والرد وغيرها من الخطط الجليلة بقرطبة. وبرغم فقدان الأصول المصدرية، لا تخلو كتب التراجم

---

[115] محمود إسماعيل، المعتزلة بين النظر العقلي والعمل السياسي، ضمن: الحركات السرية في الإسلام رؤية عصرية، بيروت، 1973، 83- 100. ومن الدراسات التي أنجزت في هذا المعنى نذكر كتاب عبد الرحمن سالم، التاريخ السياسي للمعتزلة حتى القرن الثالث الهجري (=التاريخ السياسي للمعتزلة)، القاهرة، 1989.

[116] محمود إسماعيل، المعتزلة في المغرب تأصيل تاريخي، ضمن مغربيات دراسات جديدة، بيروت، 1986، 45- 54.

[117] أحمد الطاهري، العامة والاتجاهات الفكرية بالأندلس في عصر الخلافة، دراسات عربية، العدد 3، السنة 22،

والطبقات والأنساب، ومصنفات الملل والنحل، وكتب الطب والفلاحة والنبات، من نتف إخبارية متناثرة، كفيلة بترقيع بعض القطع المخرومة في تاريخ الفكر ببلاد المغرب. وفي تقديرنا أن مدرسة الإعتزال الواصلي المغربية الأندلسية قد تشكلت معالمها الأولى في بلاد غمارة المصمودية، ومنها شاعت مقالاتها خلال القرن الثاني للهجرة في القبائل المجاورة بأوربة وصنهاجة مفتاح البرنسيتين وبتامسنا المصمودية. إلا أن إشعاع ضياءها ما لبث أن تألق خلال القرون اللاحقة بجبال قرطبة وبكافة نواحي الأندلس.

وتكشف كتب المعتزلة[118] عن بواكير الاعتزال التي ظهرت في أقصى الجناح الغربي لدار الإسلام على يد أوائل الدعاة الواصلية ببلاد المغرب. ففي سياق حديثه عن واصل بن عطاء، ذكر المرتضى "أنه أنفذ أصحابه إلى الآفاق وبعث دعاته في البلاد، قال أبو الهذيل: بعث عبد الله بن الحارث إلى المغرب فأجابه الخلق"[119]. ويضيف القاضي بن عبد الجبار[120] أنه على إثر مقتل أحد أقطاب الاعتزال واسمه بشير الرحال "لحق بعض أولاده وأصحابه بالمغرب". وفي سياق حديثه عن المناطق التي ساد فيها الاعتزال، يخص البلخي[121] بالذكر "من المغرب البيضاء، وهي كورة كبيرة يقال أن فيها مائة ألف تحمل السلاح يقال لهم الواصلية". وقد تمكن ياقوت الحموي[122] من توطين هذه المنطقة تعميما بالقول: و"البيضاء كورة بالمغرب". وقد ضبطها محمد بن عبد المنعم الحميري[123] في معجمه الجغرافي بتحديدها في "طنجة البيضاء المذكورة في التواريخ". والغالب على الظن أن الأمر يتعلق بكافة المناطق التي تندرج ضمن

---

[118] البلخي، مقالات الإسلامين، في كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة (=مقالات الآسلاميين)، تحقيق فؤاد سيد، تونس 1986، 66-67.

[119] كتاب المنية والأمل في شرح الملل والنحل، تحقيق محمد جواد مشكور، بيروت، 1979، 141.

[120] نفسه، 227.

[121] نفسه، 128.

[122] معجم البلدان، ج1، 529.

[123] الروض المعطار، 397.

كورة طنجة، وتشمل فضلا عن بلاد الهبط، قبائل غمارة المصمودية التي اندرجت جملة منذ هذا التاريخ في المذهب الإعتزالي الواصلي. ونظرا لتعدد بطونهم وتفرع فصائلهم، كثيرا ما وصفوا بكونهم خلقا لا يحصيهم إلا خالقهم، وأنهم شعوبا وقبائل و"أمما لا تحصى"[124]. وتشغل هذه القبائل المجال الجغرافي الذي حدده ابن خلدون[125] في "رحاب الريف بساحل بحر الدر من عن يمين بسائط المغرب ... [وهي] جبال شاهقة اتصل بعضها ببعض سياجا بعد سياج".

ولا تعوزنا القرائن الدالة على امتداد نفوذ التيار الواصلي ليشمل إحدى أهم المجموعات القبلية المغربية. ويتعلق الأمر بقبيلة أوربة البرنسية الضاربة بأحواز حاضرة وليلي ونواحي مدينة سقوما بقلب المغرب الأقصى. وقد "كانت أوربة آنذاك من أعظم قبائل بلاد المغرب"[126]. ولا غرو، فقد تواتر في المصادر التاريخية[127] نعت شيخها "وصاحبها إسحق بن عبد الحميد الأوربي المعتزلي". وهو ما أكده صاحب الإستبصار[128] بالقول: "وكان إسحاق بن محمد الأوربي معتزلي المذهب". وهو المذهب الذي ظلت مؤثراته حية في أوساط هذه المجموعة القبلية خلال القرون اللاحقة. مصداق ذلك ما أورده ابن حوقل[129] عن "أصحاب البرانس المقيمين بين السوس وأغمات وفاس [إذ كان] في بعضهم الاعتزال والعلم".

ونميل إلى الاعتقاد أن الاعتزال قد تمكن من الانتشار في أوساط ثاني أهم الفروع القبلية البرنسية بالمغرب الأقصى. ويتعلق الأمر بقبائل "صنهاجة مفتاح"[130] الضاربة من سواحل مدينة بادس ببلاد نكور إلى أن تتصل بمواطن

---

[124] كتاب الاستبصار، 190.
[125] كتاب العبر، ج6، 281.
[126] كتاب الإستبصار، 194.
[127] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 118؛ الأنيس المطرب، 19.
[128] كتاب الإستبصار، 194- 95.
[129] صورة الأرض، 102- 103.
[130] كتاب العبر، ج6، 284؛ الأنيس المطرب، 209.

بني عمومتها أوربة. وهو ما ضبطه محمد بن يوسف الوراق التاريخي[131] بالقول: أن "صنهاجة من ورائهم أوربة". وقد تمكنا في دراسة سابقة[132] من ضبط أنساب صنهاجة وأوربة المتفرعين من نفس الأصل القبلي باعتبارهما من "ولد برنس"[133]. وهو ما أكده النسابة[134] الذين أشاروا إلى "القبيلة الثالة من البرانس صنهاجة".

والجدير بالذكر أن قبائل صنهاجة البرنسية المتأثرة فيما يبدو بالتيار الإعتزالي الواصلي قد أعلنت الثورة[135] على إمارة بني صالح السنية، خلال السبعينات من القرن الهجري الثاني وكان الأمير على حاضرة نكور آنذاك سعيد بن إدريس المتوفى سنة 188 للهجرة (803م). وقد أشارت المصادر إلى هذه الثورة بالقول: "وقامت البرانس على سعيد بن إدريس وقدموا على أنفسهم رجلا يسمى سكن وتألبوا عليه من كل جهة"[136]. ومن الملاحظ أن ثورة البرانس ضد بني صالح كانت بإيعاز من قبائل غمارة الواصلية المذهب التي تولت القيادة وعمدت إلى خلع طاعة أمير بني صالح القائم بنكور وبيعة أمير بديل. وهو ما كشفت عنه ابن خلدون[137] بالقول: "وانتفضت غمارة على سعيد فخلعوه وولوا عليهم رجلا منهم اسمه سكن".

والغالب على الظن أن الأمر يتعلق بخلع قبائل غمارة المصمودية وصنهاجة البرنسية لطاعة بني صالح في نكور، والإقدام على بيعة إدريس بن عبد الله القائم بالدعوة الشيعية الزيدية بوليلي. وهو ما أثبتته المصادر الإخبارية بالقول: فلما بويع لإدريس بن عبد الله بوليلي "أتته أصناف قبائل البربر من أهل

---

131 المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 90.
132 راجع، إمارة بني صالح، 186- 89.
133 جمهرة أنساب العرب، 495؛ كتاب العبر، ج6، 116.
134 القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الابياري، القاهرة، 1963، 170.
135 وهي الثورة الاعتزالية الواصلية التي تناولنا بهض تفاصيلها في كتابنا، إمارة بني صالح، 52- 56.
136 المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 92.
137 كتاب العبر/ ج6 284.

المغرب منهم...نفزة ومكناسة وغمارة فبايعوه ودخلوا في طاعته"[138]. ومن المعلوم أن ثمة توافق تام بين المذهبين: الاعتزال الواصلي والتشيع الزيدي[139] قد انعقد بين إدريس بن عبد الله وإسحاق بن عبد الحميد الأوربي. يذكر البكري[140]أن إدريس لما "تنزل على إسحق بن مخمد بن عبد الحميد الأوربي المعتزلي، فتابعه على مذهبه". وهو ما أكده أحد الرواة[141]بالقول :"وكان إسحاق بن عبد الحميد الأوربي معتزلي المذهب فوافقه إدريس على مذهبه".

تجدنا إذا أمام جذور الصراع السياسي والمذهبي بالمغرب الأقصى بين أهل الاستقامة والإقتداء المتأهبين للدفاع عن السنة والجماعة بحاضرة نكور، وبين المعتزلة الواصلية من الدعاة للتشيع الزيدي، انطلاقا من وليلي أولا ثم من حاضرة فاس بعدئذ. هكذا، فبعد تصدي أهل نكور بحزم – خلال العشرينات من القرن الهجري الثاني – لتيار الخوارج الصفرية المتغلب على كافة ربوع المغرب الأقصى الذي انتظم في كنف خلافة ميسرة المطغري، سرعان ما وجدوا أنفسهم خلال السبعينات من نفس القرن يواجهون إحدى أعتى الموجات الشيعية الاعتزالية الواصلية، التي هبت رياحها بقوة على البلاد.

حقيقة أن حاضرة نكور كانت قاب قوسين أو أدنى من الوقوع تحت سيطرة الثوار المعتزلة القائمين بدعوة الشيعة، إذ أنهم "غزوا [سعيد بن صالح] في عقر داره"[142]. إلا أن بني صالح قد تمكنوا في النهاية من تكسير شوكة الثوار الشيعة من المعتزلة الواصلية المتكالبين من غمارة وأوربة وصنهاجة على حاضرة نكور. وهو ما كشفت عنه المصادر التاريخية في ذكر أميرهم

---

[138] الأنيس المطرب، 20.

[139] وهو التوافق المذهبي الذي ترجع أصوله إلى أقطاب التيارين بالمشرق كما هو معلوم. لمزيد من التفصيل راجع الفصل الذي خصصه أحد الدراسين للموضوع بعنوان: الاتجاه الشيعي في الفكر السياسي للمعتزلة، ضمن كتاب: التاريخ السياسي للمعتزلة، 123- 41.

[140] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 118.

[141] كتاب الإستبصار، 194- 95.

[142] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 92.

سعيد بن إدريس الذي "أظهره الله عليهم وهزمهم وقتل رئيسهم وافترق جمعهم ورجع من بقي منهم إلى الطاعة"[143]. وقد تمكنا في دراسة سابقة[144] من ضبط مواطن قبائل غمارة المصمودية وصنهاجة البرنسية المنضوية في سلك أهل السنة والجماعة بنكور، وغيرهم ممن انحاز إلى إمامة الأدارسة من الشيعة الزيدية. وليس أدل على أهمية البعد المذهبي في تأجيج الصراعات التي دارت رحاها بين صاحب نكور سعيد بن إدريس ومقدم الثوار سكن الغماري، من إقرار الرواة بثبات ملوك نكور خلال هذه الفترة العصيبة من تاريخ المغرب الأقصى على مذهب أهل السنة والجماعة. مصداق ذلك ما أورده ابن خلدون[145] بالقول: متحدثا عن صمود سعيد بن إدريس الذي "استوسق أمره إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين ومائة، لسبع وثلاثين من أيامه وقام بأمره ابنه صالح بن سعيد، فتقبل مذهب سلفه في الاستقامة والإقتداء"، حسبما أشرنا إلى ذلك سلفا.

وثمة مؤشرات دالة على انتشار الاعتزال في بلاد تامسنا ولدى قبائل "زناتة الجبال"[146]. فمن أعلام المذهب المشهورين بالمغرب الأقصى خلال هذه الفترة المبكرة، تناولت المصادر المتداولة بالذكر "زيد بن سنان الزناتي صاحب الواصلية"[147]. وبالمثل، فقد وقفنا على إشارة غاية في الأهمية تفصح عن تتلمذ أحد ملوك بلاد تامسنا على غيلان الدمشقي القدري، "ونظر في الكلام والجدال وأخذ ذلك عن غيلان"[148]. وليس أدل على مدى انتشار الاعتزال في أوساط القبائل المغربية مما أحصاه ابن حزم[149] من بطونهم قائلا: "وكل من ذكرنا معتزلة". ونتوفر على رواية كاشفة عن مكانة الاعتزال ضمن الخريطة المذهبية

---

[143] نفس المصدر والصفحة.
[144] إمارة بني صالح، 55- 56.
[145] كتاب العبر، ج6، 284.
[146] كتاب الإستبصار، 200.
[147] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.
[148] نفسه، 137- 38.
[149] جمهرة أنساب العرب، 498.

بالمغرب الأقصى خلال القرن الثاني الهجري، إذ "كان أهل طنجة والسوس الأقصى صفرية ومعتزلة"[150].

رابعا ـ التشيع الزيدي والإمامي والإسماعيلي

من المعلوم أن الزيدية فرقة من فرق الشيعة، تنتسب لمؤسسها زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وفضلا عن مواقفهم المعتدلة تجاه أهل السنة، فقد اقتربوا من فكر الخوارج في القول بالثورة العلنية على أئمة الجور، وكادوا أن يندمجوا مع المذهب الاعتزالي في حركة واحدة، خصوصا بعد انفصال إمامهم محمد النفس الزكية عن الدعوة العباسية. ولا غرو، فقد أخذوا في قضية الإمامة بالبيعة والشورى في ولد الحسن والحسين "باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص"[151]. وفضلا عن عدم مجاراتهم للمتعارف من مبادئ الشيعة في التقية والعصمة، فقد أجازوا إمامة المفضول مع وجود الأفضل. كما أجازوا قيام إمامين في وقت واحد، إذا كانا في بلدين متباعدين[152]. وقد لخص المرتضى[153] مذهبهم بالقول: "فالزيدية منسوبة إلى زيد بن علي عليه السلام، ويجمع مذهبهم تفضيل علي عليه السلام وأولويته في الإمامة، وقصرها على البطنين، واستحقاقهما بالفضل والطلب لا بالوراثة، ووجوب الخروج على الجائرين، والقول بالتوحيد والعدل والوعد والوعيد".

ومن المعلوم أن التوافق بين الاعتزال والمذهب الزيدي ترجع أصوله إلى صاحب المذهب زيد بن علي الذي تتلمذ في "مذاهب المعتزلة وأخذها عن

---

[150] ابن سهل الرازي، أخبار فخ وخبر يحيى بن عبد الله وأخيه إدريس بن عبد الله(=أخبار فخ)، تحقيق ماهر جرار، بيروت 1995، 181.

[151] ابن خلدون، المقدمة (=مقدمة ابن خلدون)، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، 1958، ج2، 534.

[152] راجع لمزيد من التفصيل، محمود إسماعيل، الأدارسة في المغرب الأقصى حقائق جديدة (=الأدارسة)، الكويت، 1989، 19- 35.

[153] المنية والأمل، 20.

واصل بن عطاء"[154]. وفي المقابل، يشير مؤرخي المعتزلة إلى تأصل مذهبهم في فكر الشيعة من آل البيت، باعتبار أن شيخا الاعتزال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد قد "أخذا عن محمد بن علي بن أبي طالب وابنه أبي هاشم عبد الله بن محمد؛ ومحمد [بن الحنفية] هو الذي ربى واصلا وعلمه حتى تخرج واستحكم"[155]. بلغ الارتباط بين المذهبين أن تم الرجوع بأصل الاعتزال إلى "محمد بن الحنفية، [و] أن واصلا أخذ علم الكلام عنه وصار كالأصل لسنده"[156].

ولا غرابة في أن يندمج المذهبان الاعتزالي الواصلي والشيعي الزيدي في دعوة واحدة بالمغرب الأقصى. وقد سلفت الإشارة إلى أن زعيم البرانس إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي كان "معتزلي المذهب فوافقه إدريس على مذهبه"[157]. وبالمثل، فقد أكد البلخي أن إسحاق الأوربي هو الذي "اشتمل على إدريس بن عبد الله حين ورد عليه فأدخله في الاعتزال"[158]. ولا تختلف رواية البكري[159] في الإقرار بأنه لما "نزل إدريس على إسحاق الأوربي المعتزلي، فتابعه على مذهبه". ومن المفيد الانتباه إلى أن إدريس بن عبد الله قد اصطحب معه أحد المتكلمين المعتزلة في رحلته إلى المغرب الأقصى، إلا أن المصادر صمتت عن ذكر اسمه. ويتعلق الأمر بـــ "أحد الرجلين اللذين مع إدريس، من أهل البصرة، من شيعة أخيه إبراهيم بن عبد الله، [وكان] معتزليا بليغا خطيبا"[160]. ومن المتعارف عليه لدى مؤرخي الشيعة الزيدية أن يحيى بن

---

[154] مقدمة ابن خلدون، ج2، 529.
[155] كتاب المنية والأمل، 125.
[156] نفسه، 131.
[157] كتاب الاستبصار، 195.
[158] مقالات الإسلاميين، 109 نقلا ع الأدارسة، 55.
[159] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 118.
[160] أخبار فخ، 173.

عبد الله قد وجه في جميع الأمصار ثلاثة ثلاثة، وأنه قد "وجه أخاه إدريس مع رجلين نحو المغرب يقال لأحدهما إسحاق بن راشد، وذكر الآخر"[161].

ومن المعلوم أن "إسحاق بن راشد" مولى إدريس بن عبد الله من البربر البرانس ينتسب في قبيلة أوربة، وهو ممن وقع في أسر موسى بن نصير أثناء اقتحامه سقوما حاضرة المملكة البرنسية، كما تقدم ذكره. وهو ما كشف عنه أحد المؤرخين بالقول: "وراشد بن منصت الأوربي كان قد سبي مع أبيه في غزوة موسى بن نصير، وقفل مع أبيه إلى المشرق وهو صغير، ثم أتى مع مولانا إدريس ودله على المغرب"[162]. هكذا نتمكن من خلال هذا التحليل من فك اللغز المتعلق بالثلاثة المبعوثين إلى المغرب الأقصى. ويتعلق الأمر في مقام أول بداعية زيدي من آل البيت، وهو إدريس بن عبد الله. أما الثاني فهو متكلم معتزلي من أهل البصرة. بينما يتعلق الأمر في مقام ثالث بمرافق مغربي أوربي من أهل البلد، وهو إسحق بن راشد الأوربي، المكلف بالتوسط للداعية الشيعي الزيدي عند مشايخ قبيلة أوربة البرنسية التي تعد من أعظم قبائل المغرب.

وبالمقابل، فثمة روايات موازية تشير إلى أن زعيم قبائل أوربة قد مال فعلا إلى التشيع الزيدي. فما أن حل إدريس بن عبد الله بقبيلة أوربة على شيخها إسحاق بن عبد الحميد حتى "أظهر له المولى إدريس أمره وعرفه نفسه، فوافقه في حاله"[163]. وليس أدل على مدى انتشار المذهب الشيعي الزيدي بقبائل أوربة البرنسية، من إقدام هارون الرشيد على توكيل مهمة اغتيال إدريس بن عبد الله "إلى سليمان بن جرير الجزيري، وكان رجلا من ربيعة متكلما، ممن يرى رأي الزيدية، متعصبا لآل أبي طالب...وكانت له إمامة في الزيدية"[164]. وأثناء

---

[161] نفسه، 169.
[162] السنوسي، الدرر السنية في أخبار الدولة الإدريسية، القاهرة 1954، 47، نقلا عن: الأدارسة، 51.
[163] الأنيس المغرب، 19.
[164] كتاب الاستبصار، 195.

مقامه بأوربة "كان سليمان يجلس في مجالس البربر، ويظهر الدعاء إلى ولد رسول الله صلعم، ويحتج لأهل البيت كاحتجاجه بالعراق"[165]. وقد كان أحد الدارسين[166] دقيق الملاحظة في وصف ما حدث بأنه احتواء فكريا للتشيع الزيدي من قبل الاعتزال، وفي نفس الوقت احتواء سياسيا للاعتزال من قبل التشيع الزيدي.

حقيقة أن ثمة إجماع بين الدارسين على ربط انتشار التشيع الزيدي و"دخول العلويين بلاد المغرب فيما زعموا"[167]، بمعركة فخ وبلجوء إدريس بن عبد الله إلى قبيلة أوربة، ونزوله بحاضرة وليلي سنة 172 للهجرة (788م). إلا أن في التحليل السابق ما ينم عن وجود بصمات خلفتها الدعوة العلوية الزيدية بالمغرب الأقصى، منذ ما ينيف عن ثلاثة عقود سابقة عن قيام دولة الأدارسة. ولعل في إقدام أحد الدارسين[168] على ربط اندماج الحركتين الاعتزالية الواصلية والزيدية العلوية في دعوة واحدة، وتأريخ ذلك بقيام الدولة العباسية، وانفصال حركة محمد النفس الزكية عنها، ما يدعو إلى البحث عن أصول التشيع الزيدي بالمغرب الأقصى، في ارتباط مع سريان حركة الاعتزال بأقاليمه.

وعلى عكس ما اندرج عليه الدارسون في تسفيه رواية ابن أبي زرع بهذا الخصوص، كل المؤشرات تدل على صحة ما ذكره عن ظهور التشيع الزيدي ببلاد المغرب أثناء إمامة محمد النفس الزكية، في خلافة أبي جعفر المنصور. حدث ذلك خلال الفترة الممتدة بين سنة 136 و145 للهجرة، الموافق لسنوات 753 و 762 للميلاد. نص ذلك أن محمد النفس الزكية قد بعث أخاه

---

165 الروض المعطار، 610.
166 محمود إسماعيل، الأدارسة، 55.
167 نفس المصدر والصفحة.
168 الأدارسة، 28.

"عيسى إلى إفريقية، فأجابه بها خلق كثير من قبائل البربر"[169]. ونتوفر على رواية أخرى لا تقل أهمية في الكشف عن دخول "داود بن القاسم بن إسحق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب...إلى المغرب" الأقصى، على إثر مقتل محمد النفس الزكية، في خلافة أبي جعفر المنصور. وبينما ذهب البعض إلى القول خطأ بأنه هو "الذي أفلت من وقعة فخ، وهرب إلى المغرب...[فالصواب] أنه إنما فر حين خرج أخواه على المنصور"[170]سنة 145 هجرية (762م). تجدنا إذا بصدد الكشف عن القرائن التاريخية الدالة عن أسماء أوائل آل البيت، ممن دخل المغرب الأقصى واستقر بأوربة، قبل ما ينيف عن ربع قرن من وصول إدريس بن عبد الله، في رحلته الشهيرة من فخ إلى ذات المكان. مصداق ذلك ما ذكر عن استقرار "ذرية داود هذا بفاس وبنو إدريس يناكحونهم، وانصراف داود إلى المشرق"[171]بعدئذ.

وفي نفس السياق تشير رواية ابن أبي زرع إلى انتهاء طواف سليمان بن عبد الله بعد مقتل محمد النفس الزكية في "تلمسان من بلاد المغرب فنزلها واستوطنها"[172]ودعا فيها لإمام الوقت الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وهو ما أكده البكري[173]اعتمادا على رواية عيسى بن جنون الحسني الذي ذكر "أن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن دخل المغرب أيضا ونزل بتلمسان". وتفصح المصادر التاريخية عن كثرة من تأصل من آل البيت من أعقاب سليمان بن عبد الله بتلمسان وأحوازها. نذكر منهم على سبيل المثال "محمد بن سليمان بن عبد الله"[174] و "عبد الله الترناني بن إدريس بن محمد

---

[169] الأنيس المطرب، 15.
[170] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 122.
[171] نفس المصدر والصفحة.
[172] الأنيس المطرب، 16.
[173] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 122.
[174] الروض المعطار، 135.

بن سليمان بن عبد الله"[175]. ومهما يكن من أمر، فبإعلان إمامة إدريس بن عبد الله بوليلي سنة 172 هجرية (788م)، بلغ التشيع الزيدي غاية المنى بالمغرب الأقصى، بعد حوالي نصف قرن من البيعة بالخلافة الصفرية لميسرة المطغري. وعلى إثر ذلك، تمكن إدريس بن عبد الله من تبوئ مرتبة الإمامة لدى فريق من الشيعة الزيدية، حسبما يتضح من إشارات المؤرخين لمن كان يقول "من الزيدية إن الإمام بعد محمد بن عبد الله، أخوه إدريس الذي فر إلى المغرب"[176].

وإلى جانب التشيع الزيدي، ثمة إشارات فائقة الأهمية عن بعض البصمات الدالة عما خلفه التشيع الإمامي[177] والروافض الغلاة من آثار، منذ عهد مبكر في ثنايا الفكر المغربي. نذكر من ذلك فكرة "غيبة الإمام إلى آخر الزمان"[178] التي برزت لدى أهل بلاد تامسنا في إمارة صالح بن طريف حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة، وفكرة المهدي المنتظر الذي يظهر في آخر الزمان ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا. ومن المعلوم أن بعض من نسب لفرقة الجارودية[179] من الشيعة الزيدية، والإمامية من الشيعة الرافضة، والغلاة من السبائية والكيسانية[180]، يجمعون على القول بعدم موت أئمتهم وأنهم أحياء يرزقون وسيظهرون في آخر الزمان لملء الأرض عدلا كما ملئت جورا[181]. وهي ذات الفكرة التي نسبت لصالح بن طريف الذي تخلى عن ملكه لابنه

---

175 المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 80.

176 مقدمة ابن خلدون، ج2، 535.

177 ويجتمع الشيعة الإمامية والإسماعيلية في القول بإمامة جعفر الصادق. ويختص الإمامية الإثنا عشرية بالقول عن تفرع الإمامة بعده في موسى الكاظم. وعرفوا بالإمامية لجعلهم أمور الدين كلها للإمام وأنه كالنبي. وسموا رافضة لرفضهم زيد بن علي، وقيل لتركهم نصرة محمد النفس الزكية. وأجمعوا أن النص من علي وأن أكثر الصحابة ارتدوا، وأن الإمام معصوم وتظهر عليه المعجزات، ويعلم جميع ما تحتاج إليه الأمة، ولا يجوز أخذ شيء من الدين إلا عنه.

178 مقدمة ابن خلدون، ج2، 535.

179 نسبة إلى أبي الجارود زياد بن منذر العبدي "وينسب إلى بعضهم القول بالغيبة" المنية والأمل، 20.

180 "والروافض السبائية اصحاب عبد الله بن سبأ زعموا أن عليا إله فنفاه إلى المدائن، وزعم أصحابه أن عليا في السحاب وان الرعد صوته والبرق صوته" المنية والأمل، 29. أما الكيسانية اصحاب كيسان فقد زعموا أن "جعفر بن محمد حي لم يمت ولا يموت حتى يملك الأرض وأنه مهدي" نفسه، 31.

181 لمزيد من التفصيل بهذا الخصوص، راجع: كتاب الفصل، ج5، 35- 36.

وخرج "إلى المشرق ووعد أنه ينصرف إليهم في دولة السابع من ملوكهم، وزعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال، وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه ويصلي خلفه، وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا"[182].

ونميل إلى الاعتقاد بتسرب هذا الصنف من التشيع إلى بلاد تامسنا عن طريق الاحتكاك بدعاة ينتمون إلى إحدى فرقتي الروافض الإمامية. ويتعلق الأمر بـــ "الفرقة التي تدعى الممطورة [وتزعم] أن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حي لم يمت ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا"[183]. ولا يستبعد أن يكون ذلك قد تم على يد فرقة "الناووسية أصحاب بن ناووس المصري [التي تزعم] مثل ذلك في أبيه جعفر بن محمد"[184]. بمعنى أن ظهور هذا الصنف من المعتقدات بالمغرب الأقصى قد تم خلال الفترة الممتدة من وفاة جعفر الصادق سنة 148 هجرية (765م) إلى تاريخ وفاة موسى الكاظم سنة183 هجرية (799م). وهو ما يوافق فترة حكم صالح بن طريف ببلاد تامسنا.

ولا تعوزنا القرائن الدالة على استمرار تدفق بعض تيارات الشيعة الروافض على أطراف المغرب الأقصى، خلال القرون اللاحقة. نخص منها بالذكر إحدى فرق الروافض الكيسانية التي تسمى البجلية نسبة إلى الحسن بن علي بن ورصند البجلي، أصله من مدينة نفطة من عمل إفريقية. فقد ذكر ابن حزم أن متكلمهم هذا قصد "إلى السوس في أقاصي بلاد المصامدة فأضلهم وأضل أمير السوس أحمد بن إدريس بن يحيى بن إدريس بن إدريس بن عبد

---

[182] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

[183] كتاب الفصل، ج5، 36.

[184] نفس المصدر والصفحة. والناووسية يسوقون الإمامة إلى أبي جعفر محمد بن علي، وان ابا جعفر نص على إمامة جعفر بن محمد وأن جعفر بن محمد حي لم يمت. انظر: كتاب الفصل، ج5، 36. "والناوسية منسوبون إلى أبي ناووس رئيس لهم، زعموا أن جعفر بن محمد حي لم يمت ولا يموت حتى يملك الأرض وانه المهدي" المنية والأمل، 31.

الله بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب. فهم هناك كثير سكان في ربض مدينة السوس معلنون بكفرهم. وصلاتهم خلاف صلاة المسلمين، لا يأكلون شيئا من الثمار ذبل أصله. ويقولون إن الإمامة في ولد الحسن دون ولد الحسين"[185].

أما التشيع الإسماعيلي فمن المتداول أن ظهوره ببلاد المغرب يرتبط بالدعاة الأوائل الذين بعثهم محمد الحبيب من مقر إقامته بسلمية في أرض حمص بالشام قصد نشر المذهب ببلاد كتامة من عمل إفريقية. ويرجع الفضل في انتشار أصوله لأبي عبد الله الشيعي الذي نزل بقبائل كتامة سنة 280 للهجرة (893م). ومن المعلوم أن عبيد الله المهدي[186] قد اضطر إلى الاستخفاء لفترة بسجلماسة بالمغرب الأقصى، حيث "لم يعدم أنصارا وأتباعا بين سكانها"[187] على حد تعبير بعض الدارسين. لم يتوقف التشيع الإسماعيلي عند حد التأثير المذهبي في بعض سكان سجلماسة، بل سرعان ما هب الداعية أبي عبد الله الشيعي في حملته المشهورة من أجل افتكاك عبيد الله المهدي الذي وقع في الأسر بسجلماسة. أسفر ذلك عن إسقاط إمارة بني مدار ومقتل أميرهم اليسع بن مدرار وإحراق حاضرة سجلماسة، فضمت جملة أعمالها بالمغرب الأقصى إلى نفوذ الخلافة الفاطمية التي تم إعلانها برقادة سنة 297 هجرية (909 م).

ومنذ ذلك الحين، لم يتوقف التهديد الإسماعيلي عن اختراق المغرب الأقصى مذهبيا وعسكريا، فيما عرف في الدراسات المعاصرة بالصراع الأموي الفاطمي للهيمنة على المغرب الأقصى. ومن المفيد الانتباه إلى دور إمارة بني صالح في بلاد نكور التي وقفت بحزم منقطع النظير في مواجهة موجات التشيع الإسماعيلي المتدفقة في حملات متتالية أسفرت في أكثر من

---

[185] كتاب الفصل، ج5، 41.

[186] لمزيد من التفصيل عن عبيد الله المهدي أنظر: ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، تونس، 1987، 39- 56.

[187] الخوارج في بلاد المغرب، 211.

مناسبة عن احتلال نكور والتقدم منها إلى حاضرة فاس التي وقعت بدروها في شباكهم. وهو ما تناولناه ببعض التفصيل في دراسة سابقة[188].

وقد تناقلت المصادر التاريخية بعض المقتطفات من الرسائل المتبادلة بين الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي وأمير بني صالح في نكور سعيد بن صالح يدعوه إلى "الدخول في طاعته والتدين بإمامته"[189]. ولا تخفى نبرة التهديد والوعيد التي ميزت الخطاب الشيعي العبيدي الموجه لأهل نكور . يتضح ذلك من خلال مقتطفات شعرية موجهة لأميرهم من طرف الخليفة عبيد الله المهدي، إذ خاطبهم متوعدا:

"فإن تستقيموا أستقم لصلاحكم وإن تعدلوا عني أرى قتلكم عدلا
وأعلوا بسيفي قاهرا لسيوفكم وأدخلها عفوا وأملؤها قتلا"[190]

وبرغم التفاوت في الحجم والقوة والجبروت، لم يذخر أهل نكور وسعا في مواجهة المد الشيعي الإسماعيلي الذي غدا يهدد مهد أهل السنة والجماعة بالمغرب الأقصى، حيث ترعرع مذهب السلف في الاستقامة والإقتداء. يتجلى ذلك من خلال أبيات شعرية من نظم شاعر بلاط نكور، وجهت في رسالة جوابية للخليفة الفاطمي برقادة، لا تخفي معالم القدح في التشيع العبيدي، إذ خوطب بالقول:

"كذبت وبيت الله لا تحسن العدلا ولا علم الرحمن من قولك الفصلا
وما أنت إلا جاهل ومنافق تمثل للجهال في السنة المثلى
وهمتنا العليا لدين محمد وقد جعل الرحمن همتك السفلى"[191]

تجدنا إذا أمام فصل من فصول الصراع المذهبي والعسكري بين مذهب أهل الاستقامة والاقتداء بالسنة والجماعة بالمغرب الأقصى والتشيع الإسماعيلي

---

[188] ضمن فصل منفرد بعنوان: "التدخل الأموي الفاطمي بنكور وانقراض الإمارة"، إمارة بني صالح، 73- 99.
[189] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 94؛ البيان المغرب، ج1، 178.
[190] البيان المغرب، ج1، 178.
[191] الحلة السيراء، ج1، 194.

المتدافع من إفريقية. وعلى عكس ما ذهب إليه عموم الدارسين من تأكيد تجرد عبد الرحمن الناصر المتأهب لإعلان الخلافة بقرطبة لدعم مجهود صاحب نكور في هذه المواجهة، فقد تبين لنا في دراسة سابقة[192] بما لا يدع مجالا للشك تظافر جهود كلا الخلافتين في إتلاف إمارة نكور. ولا غرو، فقد تصدى أهل نكور طوال عقود لمطامع الطرفين المتكالبين على ضم المغرب الأقصى بالقوة، رغبة في إدراجه ضمن إحدى الدعوتين المعلنتين: الشيعية الإسماعيلية برقادة أو الأموية بقرطبة. وبسقوط إمارة بني صالح بنكور وتعاقب فصول الخراب العمراني بمجمل بلاد الريف، على يد الفاطميين والأمويين على السواء، انفتحت أبواب المغرب الأقصى أمام التيارات الفكرية المتدفقة طورا من رقادة والمهدية وتارة من قرطبة، وفيما بعد من القاهرة، في موجات متدفقة أسفرت عن تفكيك النسيج الفكري والمذهبي الذي ساد البلاد طوال القرون الثلاث الماضية.

خامسا ــ المذهب البرغواطي

من الطبيعي في ظل الاجتثاث الذي تعرضت له فصول واسعة من تاريخ المغرب الأقصى، والطمس الذي تعرضت له معظم مصادره الأصلية، أن يسود حلقاته غطاء سميك من الغموض والاضطراب. وغني عن البيان أن الجمهور الأعظم من المؤرخين المغاربة ما زالوا يراوحون مكانهم متخبطين منذ القرن الماضي في إعادة ترويج جملة القضايا المطروحة في حينها من لدن رواد المدرسة الفرنسية. وما زالت الهمم متكاسلة عن نفض مخلفات التبعية الثقافية، للأخذ بزمام المبادرة والغوص في متون المصادر المتاحة، أملا في إعادة ترميم حلقات تاريخ البلد المخرومة.

[192] إمارة بني صالح، 73- 99.

وبصرف النظر عما كتب منذ بدايات القرن العشرين عن عقائد برغواطة[193]، فثمة إشارات مفيدة وردت في سياق جملة من الدراسات التي تناولت تاريخ المغرب. ويرجع الفضل لأحد رواد المجددين[194] الذي عمد خلال السبعينات من القرن الماضي إلى تكسير الحلقة المفرغة التي ظلت طوال العصرين الوسيط والحديث وإلى اليوم تردد عبارات التكفير في حق البرغواطيين من أهل المغرب، وتغالي في سبهم ولعنهم والتشهير بفساد معتقداتهم. وقد تجرد عندئذ لهيكلة اللبنات المصدرية ومراجعة المناهج التقليدية ونقد تصورات المدارس الأجنبية. وقد تم بذلك فتح الطريق لكتابة تاريخ برغواطة وفق قواعد البحث المتعارفة التي تهدف إلى معرفة ما حدث، وليس بالركون إلى أنساق الاحتجاج الكلامي برغبة قبول أو طرد أهل تامسنا من ملة الإسلام.

وقد كان للعمل المذكور أبرز الأثر في إعادة انتباه المؤرخين إلى غموض هذه الحقبة، واتساع الفجوات المجهولة في تاريخ المغرب الأقصى. إلا أنهم آثروا الالتفاف على نفس القضايا المطروحة في شكل ردود فعل ملونة بألوان مختلفة. منها ما ظل أسير الثنائية التي تقابل بين الكفر والإيمان، من موقف دفاع مفترض عن الإسلام تنتهي بالتأكيد أن "برغواطة دولة خارجة عن الإسلام"[195]. ومنها ما أقر بعد استعراض ومناقشة المعلومات المتداولة أن "الديانة البرغواطية لا يمكن البت بأصولها بشكل حاسم"[196]. بينما التمس بعضهم البريق لمقاله من خلال إعادة صياغة ذات الأفكار المتداولة باستعمال

---

193 G. Marcy, "Les Dieux des Abâdites et des Barguâta", *Hesperis*, T. XXII, fasc. I, Paris, 1936.

194 محمود إسماعيل، حقيقة المسألة البرغواطية، أضواء جديدة، ضمن مغربيات، 15- 56.

195 ومقال سحر عبد العزيز سالم، من جديد حول برغواطة هراطقة، إسكندرية، 1993.

196 راجع عمل إبراهيم حلف العبيدي، البرغواطيون في المغرب، منشورات الجامعة، الدار البيضاء، 1983، 34.

مفردات مقتبسة من قاموس مفرنس أجوف المحتويات، من قبيل "المثاقفة والنزعة الوطنية"[197].

وفي تقديرنا أن الشروع في اقتناص الشذرات المتناثرة فيما يند عن الحصر من المصادر المتاحة، والتقاط الدرر المبثوثة في المتون المختلفة، كفيل بتوفير مفاتيح إضافية من أجل استكمال هذا الجزء المبتور من تاريخ المغرب الأقصى. وقد أشرنا في مناسبات سابقة إلى قيمة منهج التنقيب التوثيقي المقرون بالقراءات الواسعة في مختلف أصناف التأليف في إعادة ترميم الفصول المنسية من تاريخ المغرب. إلا أن الإمساك بالخيوط الموجهة للبحث في تاريخ القرون الهجرية الأولى يتطلب فضلا عن ذلك فتح أوراش متعددة فيما ظل إلى الآن من المواضيع البكر المستعصية. لذا لا يسعنا في هذا المقام إلا التجرد للنبش عن العناصر التي قد تفيد في إعادة تركيب أصول أحد أقدم روافد الفكر المغربي الوسيط.

لا يخالجنا شك في دور فكر الخوارج الصفرية في صياغة المذهب البرغواطي. وقد سلف ذكر مكانة طريف بن شمعون بن يعقوب بن إسحق باعتباره أحد أوائل مقدمي الصفرية ممن أخذ قواعد المذهب على يد عكرمة البربري. كما لا يخفى دوره في إنجاز إحدى أكبر ثوراتهم التي أفضت إلى إعلان الخلافة الصفرية ببلاد المغرب. وقد أشار ابن خلدون[198] إلى أن "طريف أبو صبيح كان من قواد ميسرة الحقير المطغري القائم بدعوة الصفرية". كما أكد أبو صالح زمور بن موسى بن هشام بن ورديزن البرغواطي ذات الحقيقة، إذ "أخبر أن طريفا أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحق وأنه كان من أصحاب ميسرة المطغري"[199].

---

[197] محمد الطالبي، البرغواطيون في المغرب، الدار البيضاء، 1998، 7.

[198] كتاب العبر، ج6، 276.

[199] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

والراجح أن طريف بن شمعون قد ظل مستمسكا بالمذهب الصفري، بعدما "قتل ميسرة وافترق أصحابه واحتل ببلد تامسنا"[200] حيث نصب أميرا. واستنادا على أصول الصفرية "شرع لهم ما شرع ومات بعد مدة"[201]. وبرغم ثبات انحيازه للمذهب الصفري، لم يكن ذلك ليشكك في صفاء عقيدته لدى الخصوم، الذين أقروا بأنه "كان على ديانة الإسلام"[202]. ونميل إلى الاعتقاد أن إمارة تامسنا الصفرية لم تكن معروفة خلال هذه الفترة المبكرة باسم برغواطة، وهو المصطلح الذي أطلق عليها لاحقا. ما كان لخلفه ووريث ملكه صالح بن طريف إلا أن يغرف من ذات المعين المذهبي. ولا غرو، فقد احتك منذ نعومة أظفاره بكبار مشايخ ورؤوس الصفرية "وحضر مع أبيه حروب ميسرة الحقير وهو صغير"[203]. وعندما تولى زمام الأمور ببلاد تامسنا حوالي سنة 127 هجرية (744م) "أقام فيهم على الشرع الذي شرعه أبوه طريف"[204].

وبرغم استمساك صالح بن طريف بالمذهب الصفري خلال الفترة الأولى من حكمه، يبدو أنه قد مال إلى النهل من منابع الغلاة من تيارات الشيعة، في سياق التحولات المذهبية التي هبت بقوة على مشرق دار الإسلام ومغربه، إثر قيام الخلافة العباسية. وهو التحول الفكري والمذهبي الذي نرجح حدوثه بعد وفاة جعفر الصادق سنة 148 وقبل انصراف صالح بن طريف إلى المشرق سنة 174 (790م). وقد سلفت الإشارة إلى ارتباط ذلك بمؤثرات فرقتي الناووسية والممطورة، إلى ما عدا ذلك من فرق الشيعة الغلاة. وليس أدل على انسياقه مع مزاعم الشيعة من قوله بالغيبة والرجعة، فقد "خرج صالح إلى المشرق ووعد أنه ينصرف إليهم في دولة السابع من ملوكهم"[205]. وهو ما

---

[200] نفس المصدر والصفحة.
[201] البيان المغرب، ج1، 57.
[202] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.
[203] نفس المصدر والصفحة.
[204] البيان المغرب، ج1، 57.
[205] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

كشف عنه ابن حزم[206] بوضوح ضمن الباب الذي خصه لشنع الشيعة بالقول: "وكفار برغواطة إلى اليوم ينتظرون صالح بن طريف الذي شرع لهم دينهم". وفي سياق حديثه عن الشيعة الروافض، اعتبر أحد مؤرخي[207] الفرق أن "أدناهم كفرا المنتظرون لإمام يظهر فيبين لهم معالم دينهم". كما لا تخفى الأصول الشيعية لفكرة المهدي المنتظر التي أخذ بها أيضا صالح بن طريف وروجها بين قومه، كما سلف الذكر.

وقد تناولت المصادر المتداولة دعوى صالح بن طريف في أهل تامسنا إذ "تنبأ فيهم وشرع لهم الديانة التي هم عليها إلى اليوم، وادعى أنه نزل عليهم قرآنهم الذي يقرءونه إلى اليوم. قال زمور وهو صالح المؤمنين الذي ذكره عز وجل"[208]. وهو ما أشار إليه ابن حوقل[209] أيضا بالقول: أنه "كان بربري الأصل مغربي المولد مضطلعا بلغة البربر يفهم غير لسان من ألسنتهم، فدعاهم إلى الإيمان به وذكر أنه نبي ورسول مبعوث إليهم بلغتهم، واحتج بقول الله تعالى وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه، وأن محمدا صلى الله عليه نبي حق عربي اللسان مبعوث إلى قومه وإلى العرب خاصة، وأنه صادق فيما أتى به من القرآن والأحكام، وإياه أراد الله عز وجل بقوله وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير". وبالمثل، فقد ذكر ابن الخطيب[210] كيف "تسمى صالح بصالح المؤمنين وزعم أنه المشار إليه في القرآن وشرع لهم الديانة". وقد شاع لدى مصنفي أهل المغرب، اجتماع جملة من قبائل المغرب على "صالح بن طريف القائم بتامسنا حين ادعى النبوءة"[211].

---

[206] كتاب الفصل، ج5، 38.
[207] الملل والنحل، 53.
[208] نفس المصدر والصفحة.
[209] صورة الأرض، 82.
[210] أعمال الأعلام، 182.
[211] الأنيس المطرب، 130.

وهو ما تواتر في كتابات أهل الأندلس الذين أشاروا إلى صالح بن طريف "الذي تنبأ ببرغواطة، فاتبعوه على دينه"[212].

والجدير بالذكر أن كتب الملل والنحل والأهواء الإسلامية تنسب هذا الانحراف العقائدي إلى "الغالية من الشيعة [التي] أوجبت النبوة بعد رسول الله (صلعم) لغيره"[213]. وقد أطنبت في ذكر الفرق التي قالت "بنبوة علي وبنيه الثلاثة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية"[214]، وفي تعداد من كان "يدعي النبوة لنفسه"[215]، معتبرة ذلك من شنع الشيعة. إلا أن ثمة دلائل على انزلاق إحدى فرق الخوارج أيضا في نفس المنحى. وهو ما كشف عنه عبد القاهر البغدادي بالقول: لا نعلم "من ادعى نبيا بعد محمد صلى الله عليه وسلم غير اليزيدية من الخوارج"[216]. وقد لخص أحد مؤرخي الفرق مقالة الخوارج اليزيدية بالقول: أن يزيد بن أبي أنيسة "زعم أيضا أن الله تعالى سيبعث رسولا من العجم، وينزل كتابا من السماء جملة واحدة، وينسخ به شريعة محمد صلى الله عليه وسلم"[217]. لذلك أجمع مؤرخي الفرق على القول أن اليزيدية ليست من فرق الإسلام.

لا يستبعد أن يكون صالح بن طريف قد احتك بهذه الأفكار والتوجهات المغالية لدى الشيعة والخوارج. إلا أنه من المفيد الانتباه أيضا إلى مغالاة الفرق المخالفة في مهاجمة الخصوم عن طريق تحوير مقالاتهم بقصد تسهيل نسبهم إلى الكفر. ونتوفر بهذا الخصوص على أمثلة ساطعة. نذكر من ذلك أن أهل الأندلس كانوا ينسبون إلى إسماعيل بن عبد الله الرعيني "القول باكتساب النبوة،

---

[212] جمهرة أنساب العرب، 500- 501.

[213] كتاب الفصل، ج5، 42.

[214] نفسه، ج5، 43.

[215] نفس المصدر والصفحة.

[216] الملل والنحل، 56. ويصنف اليزيدية من ضمن فرق الخوارج، وهم أتباع يزيد بن أبي أنيسة وكان من البصرة ثم انتقل إلى جور من أرض فارس.

[217] الملل والنحل، 78. لمزيد من التفصيل عن هذه الفرقة أنظر: كتاب الفصل، ج5، 51.

وأن من بلغ الغاية من الصلاح وطهارة النفس أدرك النبوة"[218]. وهو ما ينطبق على صالح بن طريف الذي اشتهر بأنه "كان من أهل العلم والفضل"[219].

والراجح أن المقصود بالنبوة في هذا السياق الإرجاف، بقوة البصيرة أو بصفاء النفس، بحدوث أمور، فإذا حصلت اعتبر ذلك من باب التنبؤ بالمستقبل. ولا غرو، فقد اشتهر إسماعيل بن عبد الله الرعيني المتهم بالتنبؤ "بأنه كان ينذر بأشياء قبل أن تكون فتكون"[220]. وبالمثل فقد كان صالح بن طريف متنبئا في قومه بهذا المعنى، إذ "وعدهم غير كسوف فوجدوه، وأنذرهم غير شيء فأدركوه"[221]. على غراره، اشتهر رابع أئمتهم يونس بن إلياس بن صالح بن طريف بنبوته، إذ كان "يخبرهم بأشياء قبل كونها ما تدل عليه النجوم عندهم فتكون على ما يقول أو قريبا منه"[222]. ومن جهة أخرى، فمن المتعارف عليه لدى مؤرخي الفرق أن كثير من الشيعة لم يتورعوا عن تشبيه أئمتهم بالنبي، مثل "الإمامية، سميت بذلك لجعلها أمور الدين كلها للإمام، وأنه كالنبي"[223]. وثمة إشارة دالة على أن تنبؤ ملوك تامسنا لا يعدو أن يكون بهذا المفهوم إذ ثبت "أنهم يقدمون مع الإقرار بالنبيين، الإقرار بنبوة صالح بن طريف ونبوة من تولى الأمر بعده من ولده"[224] باعتبارهم أئمة موكولة إليهم أمور الدين.

إلا أن ثمة عامل آخر لم يكن أقل تأثيرا في تأليب عموم أهل القلم من مختلف الفرق ضد مذهب صالح بن طريف. ويتعلق الأمر بما نسج من روايات حول "قرآن" برغواطة المزعوم. فقد ذكر البكري أن صالح بن طريف "ادعى

[218] كتاب الفصل، ج5، 67.
[219] المغرب في ذكر بلاد المغرب، 135.
[220] نفس لمصدر والصفحة.
[221] صورة الأرض، 82.
[222] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 138.
[223] المنية والأمل، 21.
[224] ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 138.

أنه نزل عليه قرآنهم الذي يقرأونه إلى اليوم"[225]. وهو ما أشار إليه ابن حوقل[226] بالقول: "وعمل لهم كلاما رتله بلغتهم". وقد ورد في أكثر من مصدر أن عدد سور "قرآنهم الذي وضع لهم صالح بن طريف ثمانون سورة، أكثرها منسوبة إلى أسماء النبيين"[227].

ويتضح من خلال بعض الشذرات التي تناقلها الرواة أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد ترجمة للقرآن باللسان البربري[228]. نذكر منها على سبيل المثال قوله: مقر ياكش[229] ومعناه: الله أكبر، و إيجن ياكش ومعناه: الله أحد، و وردام ياكش ومعناه الله الصمد. من الطبيعي أن يقر صالح بن طريف "أن الكلام الذي ألف لهم وحي من الله تعالى"[230] باعتبار أن دوره اقتصر على ترجمته إلى لسان قومه ممن لم يكن قد تعرب، حتى يقرب كلام الله لأفهامهم. ومن الطبيعي أيضا أن تنتفض همم العرب ممن لا يفقه لسان أهل البلد ضد هذا المتن المكتوب في أول ترجمة معروفة للقرآن في التاريخ باللغة المغربية، ويكفروا من ينسب هذا الكلام إلى الله تعالى.

مع ذلك، لم يكن أهل تامسنا ليعتبروا الترجمة البربرية الجزئية لثمانين سورة من القرآن بديلا عن القرآن الأصل. مصداق ذلك ما رواه ابن حوقل[231] بالقول: "وفيهم الآن من يقرأ القرآن بغاية الاحترام ويحفظ منه السور ويتأول آياته، على موافقته لكتابهم وقرآنهم". ولعل في ذلك ما يكشف عن استمرار علمائهم في مقابلة المتنين: الأصلي والمترجم باللسان البربري، ودأب

---

[225] نفسه، 135.

[226] صورة الأرض، 82.

[227] نفسه، 140، راجع التفاصيل ايضا في: الأنيس المطرب، 131.

[228] وهو الرأي الذي ذهب إليه محمود إسماعيل: مغربيات، 53.

[229] لمزيد من التفصيل عما كان شائعا لدى عموم الدارسين منذ النصف الأول من القرن الماضي عن ياكوش إله البربر راجع: Autor anónimo, "Yakuch, Dios Bereber", *Diario de Africa*, el 5 de Agosto de 1949, pp. 123-25.

[230] نفسه، 138.

[231] صورة الأرض، 83.

حفاظهم على تفسير وتأويل بعض الآيات. ويحتفظ البكري وغيره ببعض الشذرات، التي نميل إلى اعتبارها من ضمن هذه التفاسير، إذ لا تتطابق تمام الانطباق مع منطوق ومضمون الآيات القرآنية. والجدير بالذكر أن صالح بن طريف لم تكن تعوزه القدرات العلمية ولا الأدوات اللسانية لإنجاز هذا المشروع. وباعتباره سيدا في قومه، وسليل أب ملوك برغواطة وشيخ صفرية تامسنا، فقد أتيح له حفظ القرآن وضبط ما تداوله كبار رؤوس الصفرية ومشايخهم بالمغرب الأقصى من روايات وأحاديث عن الفقيه الشهير "ابن عباس"[232]. ناهيك عما قد يكون تلقاه من تعاليم، واحتك به من مقالات الخوارج الصفرية وطرقهم الاحتجاجية ومناهجهم الكلامية. كما تميز بقدرته على المقارنة بين الأديان من خلال حفظه للتوراة، إذ كان يتكلم "كلاما كثيرا نسبه إلى موسى الكليم"[233].

ومن الطبيعي أن يكون "مضطلعا بلغة البربر يفهم غير لسان من ألسنتهم"[234]. لم تقتصر معارفه اللغوية على ضبط تشعبات لسان قومه الأمازيغي، بل تجاوزه إلى التحكم في ألسنة عصره "العربي والسرياني والأعجمي والعبراني"[235]. ولا يستبعد أن يكون صالح بن طريف قد أخذ اللسان العبراني بالمغرب عن أحبار ومصنفات اليهود الموروثة عن العهد السابق للإسلام. أما اللسان الأعجمي فالغالب على الظن أنه قد تمرس به أثناء ترعرعه بكورة شذونة من بلاد الأندلس. ولم يذخر صالح بن طريف وسعا في ضبط لسان العرب والتمرس على الكتابة بالرسم العربي، حتى اشتهر لدى معاصريه من أهل القلم أنه "كان له خط حسن وفهم بأطراف من العلم"[236].

---

[232] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.
[233] نفسه، 135.
[234] صورة الأرض، 82.
[235] المغرب في ذكر بلاد المغرب، 136.
[236] صورة الأرض، 82.

ونميل إلى الاعتقاد أنه قد تعلم اللسان السرياني أثناء مقامه ببلاد الشام والعراق، حيث جلس لـ "طلب علم النجوم والكهانة والجان"[237] وقراءة أمهات المصادر الموروثة عن الحضارات القديمة. ولم يذخر صالح بن طريف وسعا في استيعاب مقالات المعتزلة والمتكلمين وغيرهم من أرباب الفرق، "ونظر في الكلام والجدال وأخذ ذلك عن غيلان"[238] الدمشقي. ولعل في هذا ما يكشف عن المؤثرات الاعتزالية في فكر صالح بن طريف، خصوصا ما يتعلق منها بفهم القرآن وتفسير آياته وتأويل مقتضياته. وثمة إشارة لدى ابن حوقل دالة على نسبة تلك الرحلة المشرقية لصالح بن طريف، وعلى الغاية العلمية منها، إذ قال: أن "صالح بن عبد الله دخل العراق ودرس شيئا من النجوم وصلحت منزلته في علمها، إلى أن قوم الكواكب وعمل التقاويم والمواليد وأصاب في أكثر أحكامه"[239]. وليس أدل على مكانة الفكر الاعتزالي في الأنساق النظرية التي صاغها صالح بن طريف ضمن مذهبه البرغواطي من دأب بعض المصادر العربية على نعته "بالقدري صالح بن طريف البرغواطي"[240]. تجدنا إذا أمام أحد أقطاب الفكر والعلم والثقافة بالمغرب الأقصى، ممن استبحر في علوم عصره وتفتح على ثقافات الأمم وحضاراتها وألسنتها، وعلى الأصول القديمة

---

[237] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137. نوافق رأي الدارسين الذين كشفوا عن خلط الرواة بين صالح بن طريف ويونس بن إلياس فيما يتعلق بهذه الرحلة المشرقية، مغربيات، 25. أما فيما يخص الأصول الموروثة عن الحضارات القديمة الكسدانية والنبطية وغيرها مما كتب باللسان السرياني في علم النجوم والسحر والطلسمات، راجع مضامين المؤلف الضخم الذي وضعه أبو بكر احمد بن علي بن قيس الكسداني المشهور بابن وحشية، كتاب الفلاحة، تحقيق توفيق فهد، (3 أجزاء) دمشق، 1993، 1995، 1998. وقد خصصنا للتعريف بالمؤلف وصاحبه وأصول النقل القديمة مقالا، انظر: أحمد الطاهري، ابن وحشية، موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس (تحت الطبع). ولمزيد من المعلومات عن الإرث القديم في مجال الطلسمات والنجوم المتداولة بالغرب الإسلامي منذ القرن الثالث الهجري، راجع: أحمد الطاهري، المناخ الحضاري بالمغرب والأندلس وتقدم تقنيات ومناهج العلوم التجريبية، ضمن مفهوم التقدم في العلم، تنسيق سالم يفوت، منشورات كاية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 2004.

[238] المغرب في ذكر بلاد إفريقية المغرب، 137- 38.

[239] صورة الأرض، 82. ومن الملاحظ أن ابن حوقل نسبه كذلك باسم صالح بن عبد الله بدل صالح بن طريف. ولا يستبعد أن ينعت طريف بن شمعون وهو أب الملوك باسم: عبد الله، اعتبارا لبلائه في الدين ببلاد تامسنا وفق أصول المذهب الصفري.

[240] الروض المعطار، 435.

والديانات السماوية، جامعا بين ثقافة الغرب والشرق وعلوم الدين والدنيا، بما يجعله متميزا عن معاصريه من أهل القلم.

ونميل إلى ترجيح الرواية التي تؤكد منطلق الرحلة المشرقية لصالح بن طريف من كورة شذونة الأندلسية، ومن وادي برباط على وجه التأكيد. وليس في ذلك ما يشكك في أصله البربري المغربي، ولا في بنوته لطريف بن شمعون. وقد قدمنا في دراسات سابقة[241] من الحجج ما ينم عن امتدادات قبائل مصمودة المغربية في كورة شذونة الأندلسية بالذات، منذ الفترة السابقة للإسلام. وهو العامل الأساس الذي كان وراء إقدام طارق بن زياد على اختيار طريف بن شمعون لقيادة أول سرية استكشافية للأندلس قبل الشروع في فتحها. كما برهنا في أعمال سابقة على دور الأقلام الأموية المأجورة والروايات المغرضة في طمس الحقائق المتعلقة بشخص طريف، بإيعاز من موسى بن نصير الذي هرول إلى الأندلس فدخلها فارسا بدون ساحة قتال.

وبرغم ما ذكرناه عن سريان المؤثرات الشيعية في مذهب صالح بن طريف، إلا أنه ظل مستمسكا بأصول سلفه من الخوارج الصفرية، ولم يتردد عن بثها في الأعقاب. وهي الأصول الخارجية التي سبق أن تناولها أحد الدارسين[242] في دراسة رائدة بما يكفي من التفصيل. نخص من ذلك بالذكر ما ورد عن إكثارهم من العبادة والسجود وقيام الليل، حسبما هو معروف عن الخوارج. فقد كان أهل تامسنا يصلون "خمس صلوات في اليوم وخمس صلوات في الليلة"[243]، فضلا عما "كان في برغواطة [من] أمانة وبذل للطعام وتجنب للكبائر من الحرام والمحظورات من الآثام"[244]. ناهيك عمن اشتهر من ملوكهم

---

[241] A. Tahiri, *El Rif en el Magrib y al-Andalus durante los primeros siglos del Islam (ss. VIII-IX)*, Fundación El Legado Andalusí, Granada (en prensa).

[242] مغربيات، 50- 53.

[243] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 138.

[244] صورة الأرض، 82.

بكونه "سخيا ظريفا يفي بالعهد ويحفظ الجار"[245]. كما اشتهروا بكونهم أشداء في إقامة الحدود فـ"يقتل السارق بالإقرار والبينة ويرجم في الزنا عندهم وينفى الكاذب ويسمونه المغير"[246]. ورغم ما ذكرناه من تطورات مذهبية، ليس أدل على مدى رسوخ تقاليد الخوارج الصفرية لدى أهل تامسنا من كون "الحوت لا يؤكل إلا أن يذكى"[247]. وقد كشف ابن حزم[248] في نص دال عن سريان هذا التقليد لدى بعض فرق "الخوارج ... [ممن] يحرمون أكل السمك حتى يذبح". وقد أفصح أحد الشعراء المغاربة يدعى سعيد بن هشام المصمودي عن استمرار الإرث الصفري لدى البرغواطيين. كما كشف عما طرأ على معتقداتهم من تطور مذهبي ضمن قصيدة نظمها بمناسبة وقعة بهت التي خاضها رابع ملوكهم يونس بن إلياس ضد المخالفين. وقد ذكرهم ضمن قصيدته بأصولهم المذهبية إذ قال: "فليس اليوم ردتكم ولاكن ليالي كنتم مستيسرينا. يعني بقوله مستيسرين: من المياسرة أصحاب ميسرة"[249].

إلا أن المذهب البرغواطي وإن ظل وفيا لجزء من مبادئ الخوارج الصفرية، فقد تعرض لتحولات جوهرية مست جملة من قضايا الفكر والسياسة والأحكام. وهو التغيير الذي أشارت إليه المصادر بالقول: "فأفسد عقولهم وبدل معارفهم"[250]. ونظرا لشيوع مذهب الخوارج الصفرية لدى عامة أهل تامسنا من قبائل مصمودة، وخوفا من ردود فعلهم ضدا على التحول المذهبي المستحدث، فقد آثر صالح بن طريف التريث في إشاعته والتقية في أمره. وهو ما نصت عليه رواية أبي صالح زمور بن موسى بن واريزن البرغواطي بقوله: "وعهد

---

[245] المعرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 127.
[246] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 139.
[247] نفس المصدر والصفحة. ومن المعلوم أن الحوت في لسان عامة أهل المغرب والأندلس هو السمك.
[248] كتاب الفصل، ج5، 51- 52.
[249] البيان المغرب، ج1، 226.
[250] صورة الأرض، 82.

صالح إلى ابنه إلياس بديانته وعلمه شرائعه وفقهه في دينه، وأمره ألا يظهر ذلك إلا إذا قوي أمره وأمن، فإنه يدعو إلى ملته ويقتل حينئذ من خالفه"[251].

ولم يكن خلفه إلياس بن صالح ليتجرأ على إظهار مخالفة المذهب الصفري وإشاعة المعتقدات الجديدة في عامة أهل البلد، وآثر هو الآخر "كتم الشريعة التي عهد إليه أبوه خوفا وتقية"[252]. وهو ما أكدته الروايات المتداولة بالقول: فلما "تولى إلياس الأمر بعد خروج أبيه [ظل] يظهر ديانة الإسلام ويسر الذي عهد إليه به أبوه خوفا وتقية"[253]. بمعنى أن إمارة تامسنا قد ظلت منذ قيامها على يد طريف بن شمعون وطوال فترة حكم ابنه صالح بن طريف إلى حين وفاة ثالث ملوكهم إلياس بن صالح تظهر المذهب الخارجي الصفري وتضمر التوجهات المذهبية الجديدة.

وهو الوضع الذي انتهى مع ولاية يونس بن إلياس الذي جهر بالأمر "فأظهر دينهم ودعا إلى كفرهم وقتل من لم يدخل في أمره"[254]. وتفصح المصادر التاريخية عن استمساك قبائل تامسنى بالأصول الصفرية "واستلحام أهلها بالسيف لمخالفتهم"[255] التوجهات المذهبية المعلنة ليونس بن إلياس. فما كان إلا أن "حمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إياه"[256]. ولا تعوز القرائن الدالة على احتدام الصراع المذهبي بين عامة أهل البلد المستمسكين بأصول مذهب الخوارج الصفرية وبين جيش الإمارة وأجهزة الدولة بقيادة الأمير يونس بن إلياس الذي نسب إليه "إحراق ثلاثمائة وثمانين مدينة"[257]. وثمة إحصاءات تحدد عدد الرؤوس التي حصدتها سيوف يونس بن إلياس من أهل تامسنا خاصة

---

[251] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.
[252] كتاب الإستبصار، 198.
[253] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.
[254] كتاب العبر، ج6، 277.
[255] نفس المصدر والصفحة.
[256] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.
[257] كتاب العبر، ج6، 277.

في "سبعة آلاف وسبعة مائة وسبعين قتيلا"[258]. وبمجرد إحكام قبضته على البلاد وكتم أنفاس المخالفين من قبائل تامسنا المصمودية، عمد الأمير يونس بن إلياس إلى نشر مذهبه بالسيف في القبائل المجاورة فـ "قتل من صنهاجة خاصة في وقعة واحدة ألف وغد"[259]. وقد بلغ ارتباط المذهب البرغواطي بيونس بن إلياس، الذي يرجع إليه الفضل في إعلانه ونشر أصوله وفرضه على الخاصة والعامة، أن التبس الأمر على بعض المصادر التاريخية، فخلطت بينه وبين جده صالح بن طريف مؤسس المذهب. ومنذ ذلك الحين أصبح المذهب المعروف باسم المذهب البرغواطي هو المذهب الرسمي المعلن في إمارة برغواطة ببلاد تامسنا بالمغرب الأقصى.

وهو المذهب التي ترسخ على يد خلفه أبي غفير محمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف الذي توطد له أمر البلاد "بدين آبائه واشتدت شوكته وعظم أمره"[260]. ولما تولى بعده الأمر ابنه أبو الأنصار عبد الله بن محمد "فاقتفى سننه"[261] ووسع دائرة نفوذ مذهبه. على غراره، سار خلفه أبو منصور عيسى بن عبد الله "فسار سير آبائه"[262] وأخذ بنهجهم "ودان بديانتهم واشتدت شوكته وعظم سلطانه"[263]. وقد ظل أهل تامسنا مستمسكين بالمذهب البرغواطي "يتداولون هذه الديانة إلى غزو عبد الله بن ياسين الجزولي لهم"[264]. وبقيام دولة المرابطين خفت صوت المذهب البرغواطي لدى أهل تامسنا فتحولوا عنه بالسيف إلى مذهب أهل السنة والجماعة "وأسلموا إسلاما جديدا"[265].

---

[258] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.
[259] نفس المصدر والصفحة.
[260] كتاب العبر، ج6، 277.
[261] نفس المصدر والصفحة.
[262] نفس المصدر والصفحة
[263] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.
[264] كتاب الإستبصار، 198.
[265] اعمال الأعلام، 187.

وفضلا عن المؤثرات الشيعية، لا تخفى بصمات الإعتزال الواصلي في المذهب البرغواطي. ومن المفيد الإشارة بهذا الخصوص إلى الصحبة التي كانت لصالح بن طريف مع "زيد بن سنان الزناتي صاحب الواصلية"[266] بالمغرب الأقصى. والجدير بالذكر أن واضع أصول المذهب البرغواطي قد تتلمذ على أقطاب الإعتزال بالمشرق "ونظر في الكلام والجدال وأخذ ذلك عن غيلان"[267] الدمشقي. وهو ما أكدته بعض المصادر التي نصت على أن "صالح بن طريف كان رحل إلى المشرق وقرأ على غيلان القدري"[268]. كما تواترت الإشارات المصدرية مفصحة عن اهتمام صالح بن طريف بتلقي أصول الإعتزال على مشايخه فـ "رحل إلى المشرق فقرأ على عبيد الله المعتزلي القدري"[269]. ويخيل إلينا أن مقالات المعتزلة الأوائل في الخلق وقضايا الوجود والقدم وتأويلاتهم للقرآن، كان لها أبلغ الأثر في إقدام صالح بن طريف على ترجمة ثمانين سورة من سوره إلى لسان قومه من البربر الأمازيغ.

وبالإضافة للإعتزال الواصلي والتشيع الإمامي، لا تعوز القرائن الدالة على تأثر المذهب البرغواطي بالزهد والتصوف. ولعل في إقدام صالح بن منصور على تسمية ولي عهده والإمام بعده باسم إلياس تيمنا، ما يؤشر على ذلك. ومن المعلوم أن "بعض نوكى الصوفية زعموا أن الخضر وإلياس عليهما السلام حيان إلى اليوم"[270]. ولا تخفى التوجهات الصوفية وقيم الزهد التي أخذ بها الإمام إلياس بن صالح، الذي اشتهر لدى الموالين والمخالفين على السواء أنه "كان طاهرا عفيفا لم يلتبس بشيء من الدنيا إلى أن هلك"[271]. وهي ذات

[266] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.
[267] نفسه، 137- 38.
[268] كتاب الإستبصار، 197.
[269] أعمال الأعلام، 182؛ الأيس المطرب، 130.
[270] كتاب الفصل، ج5، 37.
[271] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.

الأوصاف التي تواترها رواة الأخبار الذين أكدوا أن صالح بن طريف "كان طاهرا عفيفا زاهدا"[272]. كما شاع لدى عموم أهل المغرب الأقصى ما كان عليه من أخلاق "الزهد والورع"[273].

ويبدو أن الزهد والتصوف قد انتقل من مجرد مؤثرات إضافية في المذهب البرغواطي، ليندرج في مستوى أعمق ويصبح أصلا من أصوله الفكرية. وهو التطور المذهبي الذي تحقق على يد ثالث أئمة برغواطة إلياس بن صالح بن طريف (172ـ222 هجرية). مصداق ذلك ما نسب إلى هذا الإمام من إضافات وتعديلات في مذهب سلفه "فزاد في رسمه أشياء ذكر أن له فيها الزيادة والنقصان والحل والعقد فيما قدمه صالح لهم من الأحوال"[274]. وليس أدل على صحة هذا الاعتقاد مما قيل عن دور إلياس في إعادة صياغة المذهب البرغواطي لدى أهل تامسنا "فدعاهم إلى النسك وترك الدنيا والإقبال على التقلل والزهد"[275].

نخلص إلى أن المذهب البرغواطي المغربي النشأة الأمازيغي اللسان، يستمد أصوله الفكرية وقواعده النظرية من مشارب شتى، تجمع بين فكر الخوارج الصفرية، ومعتقدات الشيعة من الروافض الإمامية، وتعاليم القدرية والمعتزلة الواصلية، ومسالك الزهاد والصوفية. واعتمادا على هذه الأصول المتنوعة إلى حد التناقض، أمكن لصالح بن طريف وللأئمة البرغواطيين بعده من صياغة مذهب إسلامي متميز عن كافة ما هو معروف من المذاهب الإسلامية. ولعل في مخالفتها للمذاهب الفكرية والكلامية المشرقية المنشأ، وخصوصا لاعتمادها اللسان الأمازيغي، ما يفسر إقصائها من طرف كافة

---

[272] كتاب العبر، ج6، 277.
[273] أعمال الأعلام، 182.
[274] صورة الأرض، 82. وقد التبس الأمر على ابن حوقل وخلط بين ثالث ملوك بني طريف إلياس بن صالح وخامس ملوكهم أبو غفير يحمد بن معاد كما سنبين ذلك بما يستحقه من تفصيل لاحقا.
[275] صورة الأرض، 82.

مؤرخي الفرق الإسلامية، فضربوا صفحا عن ذكرها مقتصرين على كيل التهم لها بالكفر والزندقة والخروج عن الملة.

حقيقة أن المذهب البرغواطي قد ارتبط في نشأته وتطوره بمملكة بني طريف المصمودية في بلاد تامسنا. إلا أن تعاليمه سرعان ما انتشرت لدى جملة من القبائل والجهات بالمغرب الأقصى. ونتوفر بهذا الخصوص على لوائح مفصلة للبطون القبلية المغربية التي اعتنقت المذهب البرغواطي. نذكر منها على سبيل المثال: "جراوة وزواغة والبرانس ومجكسة وبنو واغمر ومطغرة وبنو دمر ومطماطة وزناتة الجبل وبنو يفرن"[276]. وهو ما عبر عنه بعض المؤرخين بالقول: أن "برغواطة قبائل كثيرة وليس لهم أب واحد"[277]. وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون[278] أيضا كاشفا على أن برغواطة كان "لهم في صدر الإسلام التقدم والكثرة وكانوا شعوبا كثيرة مفترقين".

واضح أن لفظ برغواطة يحيل على مذهب وأفكار ومعتقدات، وليس له أي أصل قبلي يرتبط بأنساب البربر . وهي المعتقدات التي اعتنقتها بادئ ذي بدء قبائل تامسنا المصمودية، وانتشرت بعدئذ لدى غيرها من البطون القبلية. ولا يعدو قول ابن حوقل[279] أن "برغواطة قبيل من قبائل البربر" أن يكون خطأ في التقدير، ناتجا عن التطابق الذي دأب المؤرخون على نسجه بين أهل تامسنا كقبائل ومعتقداتهم البرغواطية كأفكار. ويتجلى هذا التطابق بين العمق القبلي والمعنى المذهبي لدى علماء اللسان أيضا. فقد ورد لدى ابن هشام اللخمي[280] أن العامة "يقولون لهذه القبيلة برغواطة والصواب بلغواطة بلام مفتوحة وإسكان الغين والنسب إليها بلغواطي". وهو الخطأ الذي كان وراء الالتباس الذي وقع

---

[276] راجع لمزيد من التفصيل: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 140- 41؛ كتاب العبر، ج6، 278.

[277] الأنيس المطرب، 130.

[278] كتاب العبر، ج6، 276.

[279] صورة الأرض، 82.

[280] المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان، تحقيق خوسيه بيريث لاثارو، مدريد 1990، م2، 190.

فيه عموم الدارسين[281] بخصوص أصل برغواطة، فخلطوا معيار النسب بمعايير الانتماء المذهبي. فما كان للتحاليل النظرية التي قدموها بهذا الشأن إلا أن انساقت مع إشكالية مفتعلة أضفت مزيدا من الغموض على موضوع شائك، مما تجدنا في غنى عنه. أما عن اشتقاق مصطلح برغواطة الذي وسم به المذهب الذي أصله صالح بن طريف ببلاد تامسنا، ونسبت إليه كافة قبائل المغرب الأقصى التي اتبعت مقالته فيعود ـ كما هو متواتر في المصادر المعتمدة ـ إلى قرية برباط الواقعة بكورة شذونة من الأندلس. وهو ما سنتناوله بما يستحق من توضيح ضمن الفصل الثالث من هذا الكتاب.

ومن أبرز المجموعات القبلية التي سارت في ركاب المذهب البرغواطي، نذكر بني واغمر ـ حسب اللسان المحلي ـ أو غمارة، كما هو متداول في كتب التاريخ والأنساب. وهي المجموعة القبلية التي تجتمع مع قبائل تامسنا في نفس النسب المصمودي. ويتجلى انخراطها في المذهب البرغواطي من خلال تحليل مضامين ما تواترته المصادر التاريخية عن حركة أبو محمد حاميم بن من الله بن حريز بن عمرو بن وجفوال بن وزروال بن مجكسة الغماري. وقد أعلن إمامته بجبل حاميم على مقربة من مدينة تطاوين، وشملت دعوته كافة بطون مجكسة ونواحي وادي راس ووادي لاو وغيرها من القبائل المجاورة. تم ذلك سنة 313 هجرية (925 م) "ودخل في دينه خلق كثير من غمارة"[282]. وعلى غرار ملوك برغواطة، فقد نعت بكونه "تنبأ بذلك الصقع"[283] واتهم بالكفر والزندقة والخروج عن الملة.

ولا تعوزنا الدلائل الكاشفة عن أخذ حاميم بأصول المذهب البرغواطي وتنصيب نفسه إماما في المذهب لدى عامة أهل بلده. فما كان إلا أن "اجتمع إليه

---

281 انظر على سبيل المثال: البرغواطيون في المغرب، 6-8؛ المغرب في العصر الإسلامي، 4-5.
282 الأنيس المطرب، 98.
283 المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100.

كثير منهم وأقروا بنبوته وشرع لهم الشرائع والديانات من العبادات والأحكام"[284]، على حد تعبير المخالفين لمذهبه. وليس أدل على صحة الاعتقاد بأن حركة حاميم تمثل امتدادا للمذهب البرغواطي في بلاد غمارة، مما تواترته المصادر التاريخية عن كونه قد "وضع لهم قرآنا بلسانهم"[285] الأمازيغي المصمودي اللكنة. والغالب على الظن أن الأمر يتعلق بنفس المتن المترجم إلى اللسان البربري على يد صالح بن طريف البرغواطي. وهو ما أشارت إليه بعض الروايات بالقول: "وصنع لهم قرآنا كان يتلوه عليهم بلسانه"[286]. ويبدو أن التطابق كان تاما بين المذهب البرغواطي وحركة حاميم. فبالإضافة لما نسبوا إليه من تنبؤ وافتراء، فقد اشتهر باهتمامه بالفلك "وعلم استجلاب روحانية ما يشاؤونه من الكواكب"[287]. بل وحتى فيما يتعلق بالتفاصيل يتجلى التطابق التام، إذ أن حاميم قد "حرم عليهم الحوت حتى يذكى"[288]، حسبما كان شائعا لدى عموم أهل مملكة برغواطة ببلاد تامسنا. لذا لا يسعنا إلا الإقرار بأن حركة حاميم تندرج شكلا ومضمونا ضمن المذهب البرغواطي.

لم يقتصر دور المذهب البرغواطي على صياغة مكونات النسيج المذهبي والكلامي بالمغرب الأقصى، بل سرعان ما تألقت تعاليمه في الضفة الأندلسية المجاورة، حيث أصبح له شأن منذ نهايات القرن الثالث الهجري. ويتعلق الأمر بالحركة المسرية[289] التي رسخها بجبال قرطبة وبكافة نواحي الأندلس عبد الله بن مسرة الجبلي. ونميل إلى الاعتقاد بأن المدرسة المسرية مثل حركة حاميم، شكلت امتدادا أندلسيا للمذهب البرغواطي. ولا غرو فمن

---

[284] كتاب العبر، ج6، 288.
[285] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100.
[286] كتاب العبر، ج6، 288.
[287] نفس المصدر والصفحة.
[288] المغرب في اذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100.
[289] وهي المدرسة التي خصها أحد الدارسين الإسبان ببحث رائد سبق أن تناولنا محتوياته بما يستحق من قراءة وتقويم A. Palacios, *Ibn Massarra y su escuela* (=*Ibn Massarra y su escuela*), obras escogidas, Madrid, 1946

خلال إمعان النظر في أمهات المصادر المغربية الأندلسية، انتهينا في دراسات سابقة[290] إلى الإقرار بأن الحركة المسرية قد عمدت إلى الجمع بين عقلانية وبرهانية الإعتزال وثورية التشيع وشعبية التصوف لصياغة مذهب جديد. ولم نكن حينئذ قد انتبهنا إلى الأصول المغربية الأمازيغية للمدرسة المسرية، ممثلة في المذهب البرغواطي.

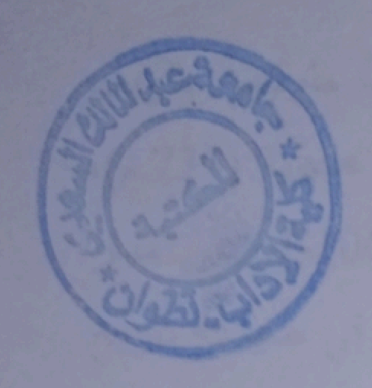
هكذا تتضح في خيوط باهتة معالم إحدى أبرز المذاهب الفكرية المغربية التي تظل بحاجة إلى تظافر جهود المؤرخين والمفكرين لانتشال معالمها، بعيدا عن المهاترات الكلامية العقيمة التي ظلت أسيرة ثنائية مغلقة قاصرة على قياس درجات الكفر والإيمان. ولعل في كشف امتدادات المذهب البرغواطي في قبائل غمارة على يد إمامهم حاميم، ولدى أهل الأندلس في شخص أئمتهم محمد بن عبد الله بن مسرة وإسماعيل الرعيني، ولدى غيرهم من المتهمين بالتنبؤ والافتراء مثل عاصم بن جميل اليزدجومي، ما يوفر إمكانيات هامة للانتقال بمعارفنا التاريخية عن أصول الفكر الكلامي المغربي إلى مستويات أرقى.

صفوة القول أنه ليس من قبيل الصدفة أن تتأصل ببلاد المغرب وببلاد نكور بالذات أقدم مدرسة لأهل السنة والجماعة، قبل حوالي قرن من الزمن على ظهور مذهب مالك بن أنس، ممثلة فيمن عرف حينئذ بأهل الاستقامة والاقتداء. وبالمقابل، ليس مصادفة أن يتمكن المغاربة من صياغة قواعد مذهب متميز عن كافة المذاهب المعروفة لدى مؤرخي الفرق، ممثلا في المذهب البرغواطي الإسلامي الأصول. وإذا كان في انتشار فكر الخوارج الصفرية والإباضية وتعاليم الاعتزال الواصلي وتيارات التشيع الزيدي والإمامي والإسماعيلي، ما يفصح عن متانة الروابط الثقافية والفكرية بين المشرق

---

[290] لمزيد من التفصيل عن الحركة المسرية راجع: العامة والاتجاهات الفكرية 45 - 154؛ راجع كذلك: عامة قرطبة في عصر الخلافة، 195- 198.

والمغرب في ظل دار الإسلام، فمن شأن مبادرة بني صالح بنكور في وضع قواعد مغربية مبكرة لأهل السنة والجماعة، وإقدام أهل تامسنا على صياغة معالم المذهب البرغواطي المخالف، ما يكشف عن روح المبادرة في صياغة أسس ومعالم الفكر والثقافة والكلام انطلاقا من الجناح الغربي لدار الإسلام. لعل في هذا التحليل ما يدعو إلى ترميم هذه الحلقة المطموسة من تاريخ الفكر المغربي وإعادة تركيبها ضمن السياق العام لتاريخ الفكر بدار الإسلام.



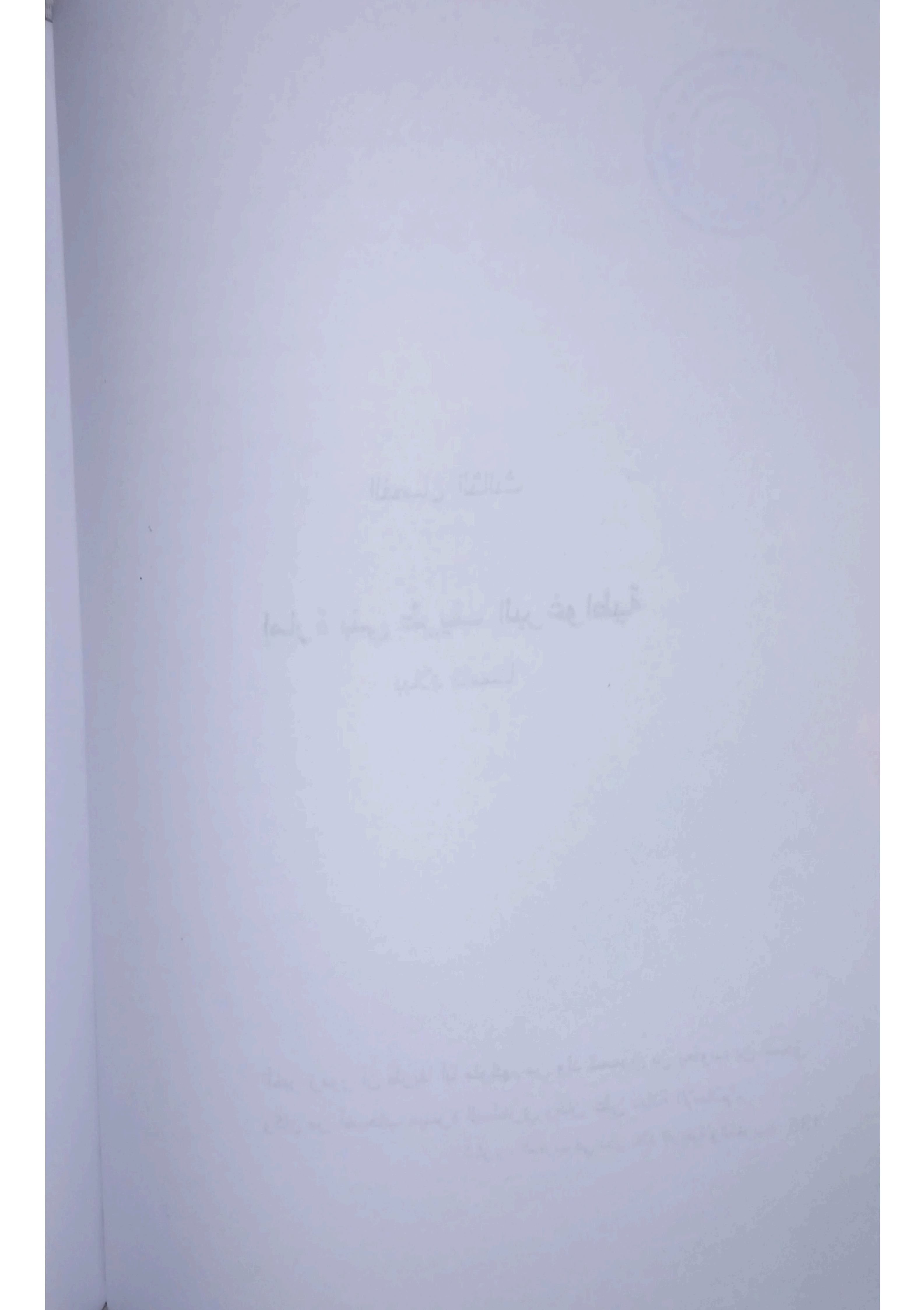
الفصل الثالث

إمارة بني طريف البرغواطية

ببلاد تامسنا

"أخبر زمور أن طريفا أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحق وكان من أصحاب ميسرة المطغري وكان على ديانة الإسلام".

البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135



يمتد تاريخ مملكة برغواطة منذ تأسيسها على يد أب ملوكهم، طريف بن عبد الله من إبناء شمعون بن يعقوب بن إسحاق سنة 122 هجرية (739 م)، إلى حين سقوطها على يد المرابطين سنة 452 هجرية (1060م)، على مدار حوالي ثلاثة قرون وربع من الزمن. ورغم دورها المتعاظم في صياغة تاريخ المغرب الأقصى، خلال قرون عز العطاء الحضاري المتألقة، لم تحظ بما تستحقه من اهتمام المدارس التاريخية قديما وحديثا[1]. فبينما يجمع قدامى أهل القلم من كافة الملل على كيل التهم للمملكة البرغواطية وأهلها بالمروق والزندقة والكفر، لم يتوان معظم الدارسين العرب المحدثين عن السير على وقع مقالاتهم، مرددين ذات العبارات الموجهة أصلا للنيل من عقائدهم لا لمعرفة تاريخهم.

مع ذلك، يبدو أن القدامى رغم تحاملهم المذهبي، كانوا أكثر إنصافا واهتماما بتاريخ هذه المملكة المغربية العريقة. يتجلى ذلك من خلال ما أفردوه من مصنفات في أخبار برغواطة، قد آلت جملة إلى الضياع. مصداق ذلك، ما ورد على لسان أحد المهتمين بمفاخر البربر في إشارة توجيهية لـــ "من أراد الوقوف على أخبار برغواطة فليرجع إلى الكتب المصنفة في أخبارهم"[2] مما يطول ذكره. ولم يكن قدامى المؤرخين ليشتكوا من شح المادة التاريخية المتعلقة بأخبار وعقائد برغواطة التي كانت متاحة و"معروفة في كتب المؤرخين"[3]. ونظرا لما دأب عليه قدامى أهل القلم ــ على وجه العموم ــ من فصل قناعاتهم المذهبية عن المعرفة التاريخية، لم يتردد بعض مؤرخي السنة عن الاهتمام بأخبار برغواطة، وإن من زاوية نظر متحاملة. لذلك ليس من قبيل المفاجأة أن يتجرد أحدهم لوضع مصنف في "أخبار برغواطة مستوفاة في كتاب كبير"[4].

---

[1] فقد انتبه بعض الدارسين منذ بداية القرن الماضي إلى أهمية المملكة البرغواطة فأفردوا لها بعض المقالات نخص منها بالذكر: N. Slouch, “L´empire des Bergouata et les origines des blades siba”, *Revue du Monde Musulman*, T. X, N° 3, 1910, p. 396-97.

[2] مفاخر البربر، 186.

[3] العبر، ج6، 276.

[4] الأنيس المطرب، 131.

وهو المصنف الموسوم "بأزهار البستان في أخبار الزمان وذكر الموجود مما وقع في الوجود"[5].

ومن المعلوم أن البكري وابن عذاري وابن خلدون وابن الخطيب وغيرهم ممن استقصينا مصنفاتهم ضمن هذا العمل، يحتفظون بنقول وشذرات من تاريخ برغواطة مستقاة من مصادرها الأصلية التي غدت في حكم المفقود. وتصادفنا عشرات النتف عن تاريخ برغواطة وعقائدهم مبثوثة في المتون القديمة، ومئات الاشارت العرضية المتناثرة. ومن المعلوم أن الجزء الأوفر من المصادر المغربية الأندلسية الموضوعة فيما يند عن الحصر من أصناف التأليف، ما زالت بكرا قد أتت عليها الرطوبة والأرضة في أقبية خزائن الكتب. مما يجرد المؤرخين المغاربة المحدثين من كل مصداقية لدى ترديد الشكوى من شح المادة المصدرية مع جمهرة المشتكين، قبل استنفاذ القراءة في كافة المتون المتاحة، وبالأحرى الاطلاع على مضامين ما لم يفهرس بعد من المجاميع المخطوطة.

واضح أن المحدثين كانوا أكثر تقاعسا عن إعادة ترميم هذا الخرم الواسع في تاريخ المغرب الأقصى. وباستثناء المقالات الرائدة[6] في هذا الشأن، ظل تاريخ مملكة برغواطة يراوح مكانه مرددا في بضع صفحات نفس المادة التاريخية المتداولة. بينما آثر البعض ممن يأنف الاجتهاد في معاركة الأصول، الإيهام بالتجديد من خلال تحاليل انطباعية كان لها الأثر السيء في إثارة الغبار على موضوع شائك. ونسعى من خلال المنهج الذي تبنيناه منذ حوالي ربع قرن مضى من البحث في تاريخ المغرب والأندلس، إعادة ترميم الفصول المخرومة من تاريخ مملكة برغواطة. وقد أمكننا لمّ جملة من مفاصله في هذا العمل،

---

[5] الأنيس المطرب، 131.

[6] نخص منها بالذكر بحث محمود إسماعيل عبد الرزاق الذي كان له أبلغ الأثر في إعادة النظر في الموضوع، من خلال إجراء دراسة نقدية متكاملة في المصادر التاريخية الأصلية، بالنظر إلى موقع مملكة برغواطة في سياق تاريخ المغرب.

ينتابنا الأمل في جمهور الباحثين الشباب في تاريخ المغرب، لمتابعة النبش في المظان الأصلية عن المعارف التاريخية، علنا نتمكن بتظافر الجهود من انتشال فصول من تاريخ البلد من غياهب النسيان.

أولا: بلاد تامسنا وأهلها، المصطلح والأصول

لا تعوزنا الإشارات المتواترة في المعاجم الجغرافية والمصادر التاريخية إلى "إقليم تامسنا من بلاد المغرب"[7]. ولا يخفى الأصل الأمازيغي البربري للفظ، المؤنث الصيغة بإثبات التاء عند الاستهلال /تا/. ونميل إلى الاعتقاد بارتباط المصطلح في لسان أهل البلد بالبحر المحيط. فقد ذكر أحد الجغرافيين "بحيرة كبيرة تسمى أمسنا"[8]. ويتعلق الأمر بنفس المصطلح مذكر الصيغة بإثبات الألف عند الاستهلال /أ/. من ثم يمكن التماس دلالة اللفظ بالتذكير والتأنيث أي أمسنا وتامسنا بالإحالة على مقابلهما العربي أي البحيرة والبحر. والجدير بالذكر أننا قد عمدنا في دراسة سابقة[9] إلى ضبط دلالات لفظ مماثل ورد في المصادر العربية بلسان أهل المغرب الأمازيغ. ويتعلق الأمر بلفظ تامسامان، الذي يحيل – حسبما انتهينا إليه – على الأرض الساحلية القريبة من الماء. ولا تخفى مكانة الماء في صياغة الجذر اللغوي لمصطلح /تامسنا/، علما بأن أحد أغزر الأنهار المغربية المعروف اليوم بأم الربيع ظل موسوما في لسان أهل البلد باسم "نهر ماسنات"[10]. ومن المعلوم أن حرف السين الذي يشكل الجذر اللغوي لأسماء الأماكن الجغرافية المغربية من قبيل: أمسنا وتامسنا وتامسامان وماسنات، يحيل على الماء في لسان أهل البلد الأمازيغ. وما زال أهل المغرب إلى اليوم ينطقون عبارة /سو/ في الأمر بمعنى: اشرب،

---

[7] الروض المعطار، 129.
[8] الروض المعطار، 141.
[9] الريف: المصطلح والعمران، 12.
[10] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 141.

وعبارة /إسس/ في المضارع بمعنى: يشرب. تجدنا إذا أمام مصطلحات مغربية أصيلة صيغت منذ أقدم العصور بلسان أهل البلد، تحتاج مثل غيرها من المصطلحات المتداولة في الأصول المصدرية العربية إلى ضبط دلالاتها، من خلال الحفريات التوثيقية في النصوص المتاحة، واستكشاف البصمات العالقة بذاكرة أهل البلد الطيبين الذين ظلوا مستمسكين بالأصول.

والجدير بالملاحظة أن حدود بلاد تامسنا قد تقلصت بشكل ملحوظ طوال القرون المتأخرة، حتى كادت تختفي من المعجم الجغرافي المغربي. فقد ذكر أحدهم أن "أهل تامسنا يدعون اليوم بالشاوية ومواطنهم من سلا إلى أزمور"[11]. وبالمثل تناولت بعض المصادر الجغرافية المتأخرة[12] تامسنا باعتبارها مجرد إقليم تابع لفاس ينضبط بين مجريي نهر أبي رقراق وأم الربيع طول ثمانين ميلا، وبين جبال الأطلس وساحل البحر المحيط، عرض ستين ميلا. بينما يمتد الإقليم حسب بعض الحوليات المغربية المتأخرة نحو الجنوب إلى حيز مدينة آسفي. وقد أشار إلى ذلك أحد الرواة، بالقول: "وتامسنا من بلاد المغرب الأقصى على ساحل البحر المحيط فيما بين سلا وآسفي"[13]. وهو نفس التحديد الذي أخذ به ابن خلدون الذي يضبط الموطن "في بسائط تامسنا وريف البحر المحيط من سلا وأزمور وآنفا وآسفي"[14].على غراره حدد البكري[15]امتداد بلاد تامسنا على طول البحر المحيط من "مرسى آسفي إلى البيضاء وهو رأس جبل داخل في البحر ثم إلى جزيرة فضالة وهو ساحل بلد تامسنا".

ونميل إلى الاعتقاد أن بلاد تامسنا كانت تشمل خلال القرون الهجرية الأولى كافة المناطق الواقعة بين "نهر أسمير"[16]المعروف أيضا بنهر سلا إلى

---

[11] الحلل السندسية، 506.
[12] الحسن الوزان، وصف إفريقيا (=وصف إفريقيا)، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت 1983، 194.
[13] الإستقصا، ج1، 114.
[14] كتاب العبر، ج6، 276.
[15] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 87.
[16] نزهة المشتاق، م1، 239.

غاية جبل أدرن[17] المعروف اليوم بالأطلس الكبير. مصداق ذلك ما ورد على لسان أحد رواة الأخبار بالقول: "وإذا جزت سلا وأخذت إلى ناحية الجنوب تركت مغرب الشمس يمنة وأخذت منها قافلا إلى القبلة، فتسمى تلك البلاد بلاد تامسنا، ويقال لها أيضا بلاد السوس الأدنى وحدها إلى جبل درن"[18]. وقد حدد الواقدي[19] المسافة الفاصلة بين الحدين للراكب من "السوس الأدنى وبينه وبين السوس الأقصى نيف وعشرون يوما"، كما سلف الذكر. والراجح أن بلاد سجلماسة حيث مضارب قبائل مكناسة، وبلاد أوربة حيث مواطن البرانس وبلاد فازاز، المنضوية جميعا ضمن حدود السوس الأدنى سرعان ما تبلورت في شكل مجالات تاريخية وجغرافية متميزة خارج نطاق بلاد تامسنا.

ولا يخالجنا شك في تأصل أهل بلاد تامسنا منذ أقدم العصور في النسب المصمودي. مصداق ذلك ما ورد من روايات تعود إلى عصر الفتوحات الإسلامية تؤكد أن "بلاد تامسنا هي بلاد المصامدة"[20]. وهو ما ضبطه ابن خلدون بالنص على أن "برغواطة من بطون المصامدة"[21] الذين تشعبوا في ثلاث مجموعات قبلية كبرى متجاورة على طول ساحل البحر المحيط، من بحر المجاز إلى تخوم بلاد صنهاجة اللثام بالصحراء. ويتعلق الأمر بـــ "برغواطة وغمارة وأهل جبل درن، ولم تزل مواطنهم بالمغرب الأقصى منذ الأحقاب المتطاولة"[22]. أما ما قيل عن اختلاط أنسابهم وما ذهب إليه "بعض الناس في نسب برغواطة في قبائل زناتة [مما] ذكره صاحب كتاب الجوهر وغيره من النسابين البربر فهو من الأغاليط البينة، وليس القوم من زناتة"[23].

---

[17] والمقصود بادرن في اللسان المغربي الأمازيغي شجرة البلوط.
[18] البيان المغرب، ج1، 5.
[19] انظر: فتوح البلدان، 232.
[20] البيان المغرب، ج1، 26.
[21] كتاب العبر، ج6، 276.
[22] نفسه، ج6، 275.
[23] نفسه، ج6، 280.

والراجح أن اضطراب الأنساب ناتج عما حدث بالمنطقة خلال القرن الهجري الخامس إثر اختراق قبائل مغراوة وبني يفرن الزناتية بسائط تامسنا. وهو الاختلال القبلي الذي كان له أبلغ الأثر على مجمل النسيج المجتمعي، إثر الإبادة الجماعية التي لحقت بأهل تامسنا على يد صنهاجة اللثام التي تدفقت من الصحراء المغربية في موجات متعاقبة على مواطن المصامدة. وهي الاختلالات القبلية التي ظلت متناثرة البصمات في متون كتب الأنساب، ومتشابكة الفروع في سياق الحوليات التاريخية التي أغفلت التحقيق في مكامن ترابط النسيج المجتمعي بالسياق الزمني عبر الحقب المتعاقبة.

ولعل في هذه الملاحظات ما يدعو الدارسين إلى الوقوف عند المفاصل الكبرى للتشعبات والتحزبات والتكتلات القبلية، بدل الانسياق وراء انطباعات رواد المدرسة الفرنسية التي ظلت مترددة ـــ على مدار قرن مضى وإلى اليوم ـــ على لسان ثلة من الجامعيين والمؤرخين المغاربة ممن جبلوا على ترويج آراء غيرهم تقليدا. وبدلا من التجرد لاستقصاء المتون المصدرية التي ظلت حبيسة الرفوف، لم تضجر جمهرة المقلدين المغاربة من مسايرة الأسطوانة المتككرة في توجيه اللوم للمصادر العربية، محملين إياها مسؤولية القصور عن مسايرة تطلعات البحث المعاصر في التاريخ الاجتماعي، حسب التقويم الرائج منذ القرن التاسع عشر لدى المدارس التاريخية بأوروبا الغربية.

ثانيا: المملكة البرغواطية: النشأة والتطور

1ـ تأسيس دولة بني طريف (122ـ125)

واضح أن تأسيس إمارة بني طريف بتامسنا، يرتبط بثورة الخوارج الصفرية ضد خلافة دمشق الأموية وولاتها بالقيروان. وهي الثورة التي تم إعلانها بقيادة ميسرة المطغري سنة 122 هجرية (739م). وقد لعب مصامدة

تامسنا دورا بارزا في انفصال المغرب الأقصى جملة عن خلافة دمشق. مصداق ذالك ما تواتر من روايات عن "قوم ظهرت فيهم دعوة الخوارج ولهم عدد وشوكة كبيرة وهم برغواطة"[24]. وقد تم تأسيس هذه الإمارة التي عرفت فيما بعد باسم الإمارة البرغواطية على يد شخص يدعى "طريف أبو صالح، وكان من قواد ميسرة"[25]. حدث ذلك بعد مقتل ميسرة من طرف أصحابه، إذ "أنكرت البربر عليه سوء سيرته وتغيره عما كانوا بايعوه عليه"[26]، التزاما بمبدأ الخوارج في الثورة على الإمام الجائر. وقد أفصح أحد الرواة عن ارتباط قيام إمارة تامسنا بهذا الحدث، بقوله: "فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه احتل طريف ببلد تامسنا"[27].

والراجح أن قبائل تامسنا المتأصلة في الجذر القبلي المصمودي قد آثرت الانسحاب من الثورة بعدما آلت قيادتها لزناتة وأسندت إمامة الصفرية لخالد بن حميد الزناتي، الذي بادر إلى نقل ثقل حركة الخوارج الصفرية من المغرب الأقصى نحو المغرب الأدنى وإفريقية[28]. ويبدو من خلال بعض المقتطفات أن ثمة اجتماع قد انعقد بين أهل الحل والعقد ببلاد تامسنا للنظر في إنشاء إمارة خاصة بهم في المنطقة. فما كان إلا أن أجمعوا على استقدام أحد كبار أهل البلد من رؤوس الصفرية بالمغرب الأقصى لتولية الأمر. ويتعلق الأمر بطريف المكنى بأبي صالح نسبة لولده صالح الذي كان لا يفارقه "وحضر مع أبيه حروب ميسرة الحقير وهو صغير"[29]. ونظرا لمكانته في قومه وزعامته للصفرية وبلائه في فتح الأندلس، "قدمه البربر على أنفسهم وولى

[24] البيان المغرب، ج1، 52.
[25] كتاب العبر، ج6، 276.
[26] البيان المغرب، ج1، 53.
[27] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.
[28] لمزيد من التفاصيل لهذا الخصوص راجع: الخوارج في بلاد المغرب، 62-70.
[29] المغرب في ذكر بلادإفريقية والمغرب، 135.

أمرهم"[30]. وبذلك تأسست إمارة بني طريف ببلاد تامسنا في بحر نفس السنة، ونصب على رأس قائمة الأسرة الحاكمة الجديدة "طريف أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحق"[31]. ويضبط ابن عذاري تاريخ تأسيس هذه الإمارة في سنة 124 هجرية، بالقول: "وفيها كان ابتداء ظهور برغواطة"[32]. ومهما يكن من أمر، فكل المؤشرات تؤرخ تأسيس إمارة تامسنا خلال الفترة الممتدة بين سنتي 122 و124 هجرية. ومنذ ذلك الحين "بقي طريف قائما بأمرهم بتامسنا"[33]إلى حين وفاته سنة 125 هجرية.

ولا تعوز الإشارات الكاشفة عن المكانة الرفيعة التي شغلها طريف بن شمعون ضمن القيادة الصفرية بالمغرب الأقصى، إذ كان "من أصحاب ميسرة"[34]. وعندما بويع هذا الأخير بالخلافة عمد إلى "أبي صالح طريف [فــــ]استوزره ميسرة الحقير أمير الغرب"[35]. ولربما يكون ميسرة المطغري قد تعمد تأمير صاحبه طريف رغم أصله المصمودي على قبائل زناتة وزواغة ممن لا يثق في انصياعهم، اعتمادا على معايير التدرج في الدعوة لا الانتماء القبلي. وتتضح المكانة الرفيعة التي تبوأها طريف في خلافة ميسرة وبعد مقتله، من خلال الإشارة المصدرية التي نصت على أنه لما قتل "احتل طريف ببلد تامسنا، وكان إذ ذاك ملكا لزناتة وزواغة"[36]قبل أن يصبح ملكا على تامسنا. ولعل فيما ورد من خبر إقدام ميسرة المطغري على "عزله وكتب له كتابا إلى أهل تامسنا وقومه من البربر يوصيهم به ويصف فضله وعلمه"[37]ما يدل على

---

[30] نفس المصدر والصفحة.

[31] نفس المصدر والصفحة.

[32] البيان المغرب، ج1، 56.

[33] كتاب العبر، ج6، 276.

[34] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

[35] أعمال الأعلام، 181. وقد ارتبك ابن الخطيب في ضبط اسمه فكتبه كالتالي: صالح بن طريف، والصحيح فيما يبدو أبو صالح طريف.

[36] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

[37] أعمال الأعلام، 181. وقد أسقطنا من النص عبارة زناتة الواردة في السياق كالتالي "قومه من زناتة البربر" اعتبارا للخلط الذي وقع فيه ابن الخطيب بخصوص أنساب برغواطة، كما بيناه آنفا.

دور الخليفة الصفري في التمهيد لولاية أبي صالح طريف على بلاد تامسنا. أما وأن صاحبه ميسرة قد قتل وبويع لغريمه خالد بن حميد الزناتي بالخلافة، فلم يبق أمام طريف سوى إعلان الإمارة ببلاد تامسنا.

ونميل إلى الاعتقاد أن الإشارة التي وردت عن طريف الذي "كان ملكا لزناتة وزواغة"[38] تحيل على الفروع القبلية التي استقرت بالأندلس إثر مشاركتها في حملة طارق بن زياد. ومن المعلوم أن كافة البطون القبلية البربرية المستقرة بالأندلس لم تتأخر عن مساندة الثورة الصفرية ومبايعة ميسرة بالخلافة. ومن المفيد بهذا الخصوص التذكير بالبلاء الحسن الذي بذله طريف في التمهيد لفتح الأندلس. ولقد أشرنا سلفا إلى ما تعرضت له شخصية طريف من طمس لهويته وتشكيك في أصله، كما هو شأن غيره من كبار رجالات الفكر والسلطان والأحكام المغاربة. وقد عمدنا في دراسات سابقة إلى الكشف عن يد موسى بن نصير الخفية في نسب عملية الإنزال الأولى بسواحل الأندلس لشخصه، والإيهام بأن السرية الاستكشافية المشهورة قد تمت بمبادرته على يد قائد عربي معافري النسب يدعى "أبا زرعة طريف بن مالك المعافري"[39]. وهو الزعم الذي استهوى أقلام بعض مشاهير المؤرخين الذين لم يسلموا في سياق العصبية القبلية الأموية من الوقوع في شباك الانحياز للعرب. نذكر منهم أحمد بن موسى الرازي الذي لم يتحفظ عن الإقرار بأن صاحب السرية المذكورة "هو أبو زرعة طريف بن مالك المعافري [مستدركا بأن] الاسم طبق الكنية"[40].

بينما تميل أمهات المصادر المغربية إلى التأكيد بأن الأمر يتعلق بـ "رجل من البربر يسمى طريفا"[41]. وهو ما أثبته عمداء المؤرخين الأندلسيين مثل "الحجاري وابن حيان وغيرهما [بالقول] أن أول من دخل جزيرة الأندلس

---

[38] المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، 135.
[39] تاريخ الأندلس ووصفه، 45.
[40] نفح الطيب، ج1، 254.
[41] البيان المغرب، ج1، 5.

من المسلمين برسم الجهاد طريف البربري مولى موسى بن نصير الذي تنسب إليه جزيرة طريف التي على المجاز"[42]. وبالمثل، لا تعدم المعاجم الجغرافية الأندلسية التي أقرت بأن الأمر يتعلق برجل "من البربر اسمه طريف"[43]. وإمعانا في بث البلبلة في أقلام الرواة والتشكيك في أوساط المؤرخين، قيل بأن "طريفا يكنى أبا زرعة"[44]. بينما ذهب البعض الآخر إلى إثبات كنية مماثلة توحي بأن الأمر يتعلق بقائد عربي يدعى "طريف بن مالك النخعي [الذي] نزل بمكان مدينة طريف فسمي به"[45]. وليس أدل على مدى ارتباك الروايات بهذا الخصوص مما ذكره المقري[46] بالقول: "وسيأتي في أمر طريف ما يخالف هذا السياق".

ويقدم ابن هشام اللخمي[47] نصا غاية في الأهمية يضيف ــ بعد تأكيد النسب البربري ــ أن الذي نزل بـــ "جزيرة طريف هو طريف بن عبد الله مولى موسى بن نصير، ويكنى أبا زرعة من البرابر". ومن المفيد بهذا الخصوص التذكير برواية ابن حوقل الذي ينفرد دون غيره من الرواة بنسب ثاني ملوك تامسنا صالح بن طريف، بالقول: و"كان يعرف بصالح بن عبد الله"[48]. وهو الانتساب الذي ينطبق مع رواية ابن هشام اللخمي الذي أثبت أن صاحب السرية الاستكشافية المشهورة للأندلس هو "طريف بن عبد الله"[49] بالذات. ولا نستبعد أن يكون صاحبنا قد سمي بصالح بن عبد الله بدلا عن طريف بن شمعون بعدما أسلم على يد طارق بن زياد، فأصبح بفضل إيمانه عبدا لله صالحا. وبالمثل، فلا نستبعد أن يتم تعويض انتساب مؤسس المملكة

---

[42] نفح الطيب، ج1، 229.
[43] الروض المعطار، 392.
[44] البيان المغرب، ج2، 5؛ نفح الطيب، ج1، 253؛ أخبار مجموعة 1989، 16؛ الروض المعطار، 392.
[45] نفح الطيب، ج1، 233؛ كتاب العبر، ج4، 150.
[46] نفح الطيب، ج1، 230.
[47] تقويم اللسان، م2، 259.
[48] صورة الأرض، 83.
[49] تقويم اللسان، م2، 259.

لوالده شمعون المعروف به قبل الإسلام، باسم جديد وهو في الإسلام أي طريف بن عبد الله. وبذلك أصبح طريف مؤسس المملكة منسوبا وهو في الإسلام لوالده عبد الله بدلا عن شمعون الذي عرف به قبل الإسلام. ومن المفيد التذكير أن إسناد مثل هذه البدائل عن الأسماء الأصلية لملوك وأمراء المغرب الأقصى سنة شائعة. ففي بلاد نكور على سبيل المثال اشتهر صالح بن منصور لدى العامة والخاصة باسم "العبد الصالح"[50].

ولا تقل رواية المقري أهمية في الكشف عما تعرض له هذا الموضوع من دس والتباس. فبينما يصرح بأن الأمر يتعلق برجل "من البرابرة اسمه طريف يكنى أبا زرعة"[51]، يعود في سياق آخر إلى التمييز بين شخصية طريف قائد السرية المشهورة الذي دخل الأندلس مستكشفا سنة 91 هجرية، وبين شخص آخر "دخل بعده [يسمى] أبو زرعة شيخ من البرابرة وليس بطريف"[52]. واضح أن ثمة أقلام مأجورة لم تتورع عن إثارة الزوابع في كل اتجاه، قصد طمس دور المغاربة الأمازيغ مع أميرهم طارق بن زياد النفزي، وأحد زعمائهم طريف بن شمعون المصمودي، في فتح الأندلس. وقد احتفظ محمد بن يوسف الوراق التاريخي برواية أبي صالح زمور بن موسى بن wارديزن البرغواطي التي تكشف بما لا يدع مجالا للشك عن أولية طريف في استكشاف الأندلس، بتوجيه من أمير المغرب الأقصى حينئذ طارق بن زياد. فقد ورد الخبر منقولا في مسالك أبي عبيد الله البكري، إذ "أخبر زمور أن طريفا أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحق، وأنه كان من أصحاب ميسرة المطغري المعروف بالحقير ومغرور بن طالوت، وإلى طريف نسبت جزيرة طريف"[53].

---

[50] الروض المعطار، 577.

[51] نفح الطيب، ج1، 253.

[52] نفح الطيب، ج1، 253.

[53] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

تجدنا إذا أمام شخصية سياسية مغربية فذة، ممن شغل مكانة مرموقة ضمن نظام الحكم الذي أقره طارق بن زياد أثناء ولايته بالمغرب الأقصى، خلال الفترة الممتدة بين سنة 85 و 93 للهجرة (704ـ 711م). فما كان بعد أن زاغت الخلافة الأموية بدمشق عن جادة الصواب، ورام ولاتها تخميس البربر، إلا أن عمد هذا الزعيم إلى أخذ زمام المبادرة ببلده والانتظام في كيان محلي مفارق ابتداء من سنة 122 هجرية إلى حين وفاته سنة 125 للهجرة. وهو ما عبر عنه ابن خلدون[54] بالقول: "وكان لبرغواطة في عصرهم دولة". تجدنا إذا أمام مؤسس إحدى أقدم الأسر الحاكمة بالمغرب الأقصى في الإسلام: طريف بن عبد الله المنعوت لذلك بـ "طريف أب ملوك برغواطة"[55] الذي يرجع إليه الفضل في وضع الحجر الأساس لمملكة تامسنا المصمودية العمق، الخارجية المذهب، المفارقة لنظام الخلافة بدمشق.

2ـ صالح بن طريف وصياغة المذهب البرغواطي (125ـ172)

لم يدم أمر مؤسس المملكة وأب ملوك تامسنا طريف بن عبد الله المصمودي طويلا، إذ سرعان ما عاجلته المنية، وكان قد "تخلف من الولد أربعة، فقدم البربر ابنه صالحا منهم"[56]. وثمة رواية منسوبة لزمور بن واردیزن البرغواطي تحدد تاريخ حدوث ذلك "بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بمائة عام سوا"[57] بضع سنوات إضافية غير مذكورة في المتن. مما يجعلنا أقرب ما نكون إلى ضبط تاريخ انتقال ملك بلاد تامسنا إلى يد صالح بن

---

[54] العبر، ج6، 275.

[55] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

[56] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

[57] ومن المعلوم أن وفاته صلى الله عليه وسلم كانت سنة 11 هجرية، وبإضافة مائة عام على ذلك "سوا بضع سنوات" غير محددة في المتن، نتصور بالتقريب تاريخ وفاة طريف بن شمعون وولاية ابنه صالح بن طريف. والجدير بالملاحظة أن رواية البكري قد أخطأت في تسمية الهالك طريف، الذي شاع نسبه كما سلف الذكر لأعز أبنائه صالح وتسميته لذلك بأبي صالح. وقد تم الخلط في هذه الرواية بإسقاط عبارة أب من المتن والإقرار بأن الأمر يتعلق "بموت صالح". المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

طريف. وهو ما حدده ابن خلدون[58] بالقول: "وكان ظهور صالح هذا في خلافة هشام بن عبد الملك، من سنة سبع وعشرين من المائة الثانية من الهجرة". إلا أن ثمة خللا يسير من حوالي سنتين في هذا التقدير، علما بأن وفاة هشام بن عبد الملك قد تمت في سنة 125 هجرية[59]. وهي بالضبط السنة التي نقرها تاريخا لولاية صالح بن طريف مقاليد الحكم ببلاد تامسنا خلفا لأبيه. وليس أدل على صحة هذا التقدير من رواية ابن أبي زرع[60] التي نصت على اتخاذ هذا الملك اللقب السلطاني "وتسما بصالح المؤمنين ...وذلك سنة خمس وعشرين ومائة" (742 م). وهو نفس التاريخ الذي أقره ابن الخطيب[61]. وقد ظل صالح بن طريف منذ هذه السنة ملكا على بلاد تامسنا إلى حين قرر التخلي عن الحكم لصالح ابنه "وخرج إلى المشرق بعد أن ملك أمرهم سبعا وأربعين سنة"[62]. بمعنى أن صالح بن طريف قد ظل أميرا على مملكة تامسنا إلى غاية سنة 172 هجرية (788م).

ومن المفيد الانتباه إلى الروايات التاريخية التي تناولت بالذكر نشأة صالح بن طريف بكورة شذونة الواقعة على الضفة الأخرى لبحر المجاز بالعدوة الأندلسية. ولا غرو، فقد سبقت الإشارة إلى ترؤس والده طريف بن شمعون للسرية الاستكشافية التي بعثها طارق بن زياد نحو سواحل كورة شذونة ونزولها بالجزيرة التي عرفت منذ ذلك الحين باسمه: طريفة. وقد بينا في دراسات سابقة دور كثافة المواصلات البحرية بين العدوتين المغربية الأندلسية في توسيع المجال الجغرافي للفروع القبلية المصمودية، التي كان لها أبلغ الأثر منذ أقدم العصور في صياغة النسيج المجتمعي بكورة شذونة، إذ "كان البربر

[58] العبر، ج6، 276.
[59] الكامل في التاريخ، ج3، 391.
[60] الأنيس المطرب، 130.
[61] أعمال الأعلام، 182.
[62] العبر، ج6، 277.

بالقرب منهم وليس بينهم سوى تعدية البحر ويرد عليهم منهم طوائف"[63]. بلغت كثافة التحركات السكانية المصمودية من غمارة وتامسنا نحو كورة شذونة وغرب الأندلس أن اضطر البلديون إلى إقامة صنم قادس الشهير في شكل طلسم "لمنع البربر من دخول الأندلس"[64]. وليس مصادفة أن يعمد طارق بن زياد النفزي إلى طريف بن شمعون المصمودي، ويوكله القيام بمهمة الكشف عن عورات النظام القوطي، من خلال الانزال الإختباري للسرية المشهورة باطراف كورة شذونة، حيث مضارب فصائل بني عمومته من المصامدة البلديين. ويخيل إلينا أن طارق بن زياد قد عمد إلى تأمير طريف بن شمعون على كورة شذونة بالذات إثر فتح الأندلس، حيث استقر بأسرته وبنيه بصفته عاملا للنظام الجديد بهذه الجهة من جزيرة الأندلس. وبقدرما يعمد أحد مشاهير النسابة الأندلسيين، إلى ربط نسب طريف بن شمعون أب ملوك تامسنا بالأصل المصمودي، يكشف في نص بالغ الأهمية عن دوره في نشوء ذريته وشهرة أعقابه، في شكل فصيلة مصمودية فرعية بكورة شذونة من الأندلس. فإلى مصمودة يعود ـ حسب تحقيقه ـ نسب "بني طريف من شذونة، ومنهم كان الذي تنبأ ببرغواطة"[65]. ويقدم صاحب كتاب مفاخر البربر معلوماتٍ إضافية دالة على مكانة رجالات هذا البيت المصمودي العريق باعتباره من مشاهير

---

[63] نفح الطيب، ج1، 244.

[64] معجم البلدان، ج4، 290.

[65] جمهرة أنساب العرب، 500- 501. وثمة خلل في قراءة اسم المكان شذونة *Sidonia*، الذي ورد في المتن المحقق خطأ أشونة، وهي موقع أندلسي آخر ما زال إلى اليوم يحمل نفس اسمه القديم *Osuna*. وقد فات هذا الخطأ محقق كتاب مفاخر البربر فلم ينتبه إلى أن الصواب شذونة وليس أشونة التي أثبتها بدوره خطأ مجاراة لخطأ ليفي بروفنسال، محقق الجمهرة. ومن المفيد الانتباه إلى تأرجح أقلام النساخ بين إثبات اسم هذا العلم الجغرافي كالتالي: أشبونة بدل شذونة، كتاب مفاخر البربر، مخطوط المكتبة العامة بالرباط رقم 1020. وقد تم إثبات هذا العلم الجغرافي على أصله الصحيح في النسخة المخطوطة الثانية من كتاب مفاخر البربر، مخطوط المكتبة العامة بالرباط، رقم ك 1275. مما يدعو جمهرة المحققين المغاربة إلى بذل المجهود والتخلص من منهج تقليد المستعربين واعتبار ما يثبتون حقائق مسلمة.

بيوتات أولي الأمر والسلطان، مؤكدا أن الأمر يتعلق بـ "بني طريف أمراء شذونة، منهم كان صالح بن طريف الذي تنبأ ببرغواطة"[66].

وليس أدل على صحة هذا التحليل من تواتر الروايات في جملة من المصادر التاريخية التي تؤكد نشأة وترعرع صالح بن طريف ثاني ملوك بلاد تامسنا المغربية بكورة شذونة الأندلسية. فبصرف النظر عن رواية ابن الخطيب[67] التي أثبتت أن "صالح هذا مصمودي الأصل نشأ بقرية برباط من الأندلس"، فقد ورد لدى صاحب كتاب مفاخر البربر أيضا أن "أصل صالح بن طريف من وادي برباط من الأندلس"[68]. ولم يكن ابن خلدون[69] ليغفل التأكيد على انتمائه في بطون الأمازيغ "المصامدة [بقوله:] وأما صالح بن طريف فمعروف منهم وليس من غيرهم". ولم يغفل مع ذلك الإشارة إلى روايات المحققين في نسب "صالح إنه من ولد شمعون بن يعقوب، نشأ ببرباط"[70]. وهو ذات التأصيل الذي اعتمده صاحب كتاب الاستبصار[71] في ذكره "صالح بن طريف وأصله من برباط الأندلس". وهو ما فصله ابن أبي زرع[72] بالقول: إن "صالح بن طريف القائم بتامسنا... كان أصله من برباط حصن من عمل شذونة من بلاد الأندلس". ولم يكن محمد بن يوسف الوراق التاريخي ليخرج عن اجماع الرواة الذين أثبتوا أن صالح بن طريف "القائم بدين برغواطة أصله من شذونة من وادي برباط"[73]. وما زال الوادي الذي جرت عنده معركة طارق بن

---

[66] مفاخر البربر، 248 وقد جارى المحقق خطأ غيره فأثبت اسم المكان كالتالي: أشونة.

[67] أعمال الأعلام، 181- 82.

[68] مؤلف مجهول، كتاب مفاخر البربر، ضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر بالغرب الإسلامي، تحقيق محمد يعلى، مدريد 1996، 186.

[69] العبر، ج6، 280.

[70] العبر، ج6، 280.

[71] كتاب الاستبصار، 197.

[72] الأنيس المطرب، 130.

[73] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137. وقد اختلطت الأسماء على البكري فاعتقد أن مؤسس المذهب البرغواطي صالح بن طريف ثاني ملوك تامسنا وناشر مبادئه في قبائل المغرب بأنه يونس رابع الملوك، فأثبت اسم يونس هنا بدل صالح خطأ.

زياد الفاصلة، التي انتهت بفتح الأندلس سنة 92 هجرية، يحمل إلى اليوم نفس اسمه المغربي القديم. حقيقة أن الرواة قد أجمعوا على إبراز نشأة وترعرع صالح بن طريف ببرباط بكورة شذونة بالأندلس، إلا أن ثمة إشارة بالغة الأهمية في الكشف عن مولده بالمغرب في وسط أمازيغي بربري. فقد أفصح ابن حوقل[74] بما لا يدع مجالا للشك أن صالح بن طريف "بربري الأصل مغربي المولد". ولعل في هذه الإشارة ما يقدم بعض القرائن الكاشفة عن تاريخ ولادة صالح بن طريف، شهورا أو لربما بضع سنوات قبل تأمر أبيه طريف على ولاية شذونة من قبل طارق بن زياد، إبان فتح الأندلس سنة 92 هجرية.

إلا أن نشأته ببرباط غلبت على نسبته إليها فاشتهر لذلك باسم صالح بن طريف البرباطي. وهو ما أفصح عنه ابن خلدون[75] في عبارة مقتضبة دالة بالقول: "وقيل له برباطي نسبة إلى الموطن الذي نشأ فيه". وهو ما عبر عنه صاحب كتاب الاستبصار بالقول متهجما عليه في عبارة مبتذلة: "ولما كان أصل هذا الشيخ الملعون من برباط، قيل لكل من دخل في دينه برباطي فأحالتها العرب بألسنتها فقالت برغواطي، فمن أجل هذا سموا برغواطة"[76]. وهو نفس التعليل الذي اعتمده ابن أبي زرع[77] الذي ربط أصل هذا الاصطلاح المذهبي بمكان نشأة مؤسسه صالح بن طريف، لما "كان أصله من برباط حصن من عمل شذونة من بلاد الأندلس، فكان يقال لمن تبعه ودخل في ديانته برباطي، فعربته العرب وقالوا برغواطي فسموا برغواطة". على غرارهم، ذهب صاحب كتاب مفاخر البربر إلى التأكيد على أن "أصل إمامهم الذي شرع لهم ديانتهم وهو صالح بن طريف من وادي برباط من الأندلس فقيل لكل من دخل في

[74] صورة الأرض، 82.
[75] كتاب العبر، ج6، 280.
[76] كتاب الاستبصار، 198.
[77] الأنيس المطرب، 130.

ديانتهم برباطي، فأحالته العرب بألسنتها فقالت برغواطي"[78]. ولذلك فبدلا عن التسمية الأصل التي اشتهر بها صالح بن طريف البرباطي لدى معاصريه نسبة لمكان نشأته وترعرعه بقرية برباط، فقد شاع في المصنفات التاريخية المتأخرة وسمه بـ "صالح بن طريف البرغواطي"[79]. كما عرف اختصارا "بصالح البرغواطي"[80].

وإصرارا من المخالفين لمذهبه على النيل من معتقداته في أوساط العامة، والتقليل من شأنه لدى الخاصة، لم يتورعوا عن ربط نسبه باليهود. فقد ورد على لسان صاحب الاستبصار أن "صالح بن طريف يهودي النسب من سبط شمعون"[81]. على غراره، لم يتردد ابن أبي زرع الفاسي عن الإقرار بأن صالح بن طريف "يهودي الأصل من ولد شمعون بن يعقوب عليه السلام"[82]. بينما آثر ابن خلدون تحميل مسؤولية الخبر للرواة ممن "يقولون في صالح إنه يهودي من ولد شمعون بن يعقوب"[83]. ويتضح الشك لدى ابن الخطيب الذي اكتفى برواية مبنية للمجهول: نصها "وقيل كان إسرائلي الأصل"[84]. واضح أن سند مجمل هذه الروايات يقتصر على منطوق شجرة النسب التي تصل صاحبنا بجده شمعون بن يعقوب بن إسحاق، ليس إلا. والملاحظ أن الزعم بالاصل اليهودي قد وجه لصالح بن طريف باعتباره مؤسسا لمذهب فكري، ولم يوجه لوالده طريف بن شمعون مؤسس المملكة، رغم أنه المخضرم بين العهد القديم السابق للإسلام والعصر الإسلامي.

---

[78] مفاخر البربر، 186.
[79] أعمال الأعلام، 182؛ كتاب الاستقصا، ج1، 114.
[80] نفح الطيب، ج3، 191.
[81] الاستبصار، 197.
[82] الأنيس المطرب، 130.
[83] العبر، ج6، 280.
[84] إعمال الأعلام 1964، 181.

ومن مقر إقامته ببرباط من كورة شذونة بالأندلس كان منطلق الرحلة المشرقية الأولى التي باشرها صالح بن طريف إلى الديار المشرقية طلبا للعلم والمعرفة. وهو ما أشارت إليه المصادر التاريخية المتداولة بالقول أنه "نشأ ببرباط من بلاد الأندلس ثم رحل إلى المشرق فقرأ على عبيد الله المعتزلي القدري"[85]. وفي روايات أخرى أن صالح بن طريف "كان رحل إلى المشرق وقرأ على غيلان القدري"[86]. وهو ما أكده البكري[87] في إشارة دالة على جلوس صالح بن طريف للتعلم على مشاهير علماء عصره، إذ "نظر في الكلام والجدال وأخذ ذلك عن غيلان" الدمشقي أثناء رحلته الأولى إلى بلاد الشام. ومن المفيد الانتباه إلى استكمال صالح بن طريف رحلته المشرقية لطلب العلم فانتقل عن بلاد الشام إلى بلاد الرافدين و "دخل العراق"[88]. ومن المعلوم أن غيلان الدمشقي القدري قد عاصر خلافة هشام بن عبد الملك (105 ـــ 125 هجرية) وقد قتل على يديه، بعدما مثل به وقطع يديه ورجليه ولسانه، مما يحدد بالتقريب تاريخ رحلة صالح بن طريف المشرقية.

ويؤرخ البكري[89] لهذه الرحلة جزافا بالقول: "قد رحل إلى المشرق في عام واحد مع عباس بن ناصح، وزيد بن سنان الزناتي صاحب الواصلية، وبرغوث بن سعيد التراري، وجد بني عبد الرزاق ويعرفون ببني وكيل الصفرية، ومناد صاحب المنادية المنسوب إليه القلعة المعروفة بالمنادية". بما يفصح عن طبيعة الرحلة العلمية، التي اتخذت شكل وفد مغربي ممثل لكافة المجموعات القبلية الكبرى، توجه لديار المشرق قصد تلقي أصول الجدل وعلم الكلام على يد أقطاب التيارات الصفرية والقدرية والواصلية. والراجح أن ذلك

---

[85] الأنيس المطرب، 130؛ أعمال الأعلام، 182؛ العبر، ج6، 280.
[86] كتاب الاستبصار، 197.
[87] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137- 38.
[88] صورة الأرض، 82.
[89] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.

قد تم في فترة ما، بعد سنة 105 هجرية (724م) وقبل تاريخ اندلاع ثورة ميسرة المطغري الخارجية سنة 122 هجرية (739م). وقد ظل صالح بن طريف مقيما بالديار المشرقية، يتلقى أصول الجدل وعلم الكلام، ويستبحر في علم الطلسمات والنجوم والكواكب والتقاويم والمواليد، وينهل من علوم القدامى الحكمية والطبيعية، فضلا عن علوم الشرائع والأديان. وهو ما لخصه ابن حوقل بالقول: "وكان له خط حسن وفهم بأطراف العلم"[90] الذي "جمع منه فنونا كثيرة"[91]. كما اشتهر لدى القاصي والداني بأنه "كان من أهل العلم والخير"[92].

وبعدما استكمل صالح بن طريف فصول تعليمه بالديار المشرقية، قفل راجعا إلى مسقط رأسه "وقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا"[93]. بينما يشير البكري[94] إلى أنه قفل راجعا "يريد الأندلس، فنزل بين هؤلاء القوم" ببلاد تامسنا. وهو ما أكده صاحب الاستبصار محددا تاريخ ذلك بالقول: "فدخل بلاد تامسنا فوجد فيها من زناتة قوما جهالا، وكان ذلك سنة 123 هجرية"[95]. والغالب على الظن أنه قفل عائدا إلى المغرب قبيل هذا التاريخ، إذ تكشف المصادر المتداولة أنه قد "حضر مع أبيه حروب ميسرة"[96] التي دارت رحاها كما سلف الذكر خلال سنة 122 هجرية.

وعند وفاة والده طريف سنة 125 هجرية، تفرغ صالح بن طريف لإدارة شؤون المملكة، بعدما اجتمع أهل البلد على بيعته "وأقروا بفضله واعترفوا بولايته فقدموه على أنفسهم وصدروا عن رأيه في جميع أمورهم ووقفوا عند أمره ونهيه"[97]. ويفصح ابن خلدون[98] عن المدة التي استغرقها في

---

[90] صورة الأرض، 82.
[91] الأنيس المطرب، 130.
[92] العبر، ج6، 276.
[93] الأنيس المطرب، 130.
[94] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 138.
[95] كتاب الاستبصار، 197.
[96] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.
[97] الأنيس المطرب، 130.

حكم بلاد تامسنا إذ "ملك أمرهم سبعا وأربعين سنة"، استغرقها إلى جانب الاهتمام بشؤون الحكم في صياغة أصول المذهب الفكري الذي نسب إليه. وهو ما أشار إليه بعض المؤرخين[99] بالقول: "فولوه على أنفسهم، فلما ولي شرع الديانة التي أخذوها عنه". وفضلا عن ترجمة القرآن إلى الأمازيغية وصياغة التفاسير بلسان قومه، لم يذخر صالح بن طريف جهدا على مستوى الأحكام "وشرع لهم الشرائع"[100] التي تبلورت في شكل مذهب فقهي متكامل. يتجلى ذلك من خلال تجرده لتعليم ابنه ووريث سره إلياس بن صالح قواعد المذهب "وعلمه شرائعه وفقهه في دينه"[101]. ناهيك عن أصول علم الكلام التي تمت صياغتها من خلال الدمج بين مبادئ الخوارج الصفرية، وتعاليم القدرية والواصلية، ومذاهب الشيعة الإمامية، وتأملات الزهاد والنساك والصوفية.

مع ذلك، فمن المفيد الانتباه إلى أن صالح بن طريف لم يتجرأ على نشر تعاليم المذهب الجديد الذي صاغ أصوله في أوساط عامة أهل مملكته، إذ لم يكن الوقت قد حان بعد لذلك، نظرا لرسوخ قواعد المذهب الخارجي الصفري في أوساط عامة قبائل أهل المغرب. مصداق ذلك، ما ورد في كتب التاريخ، عن اضطراره إلى الجهر بالسير على خطى والده طريف، الذي ظل ــ كما هو معروف ــ "على ديانة الاسلام إلى أن هلك"[102]، أي مستمسكا بمذهب الخوارج الصفرية. وهو ما تواتر ذكره في الحوليات التاريخية، بالقول تارة: أنه "أظهر الإسلام والنسك"[103]، وطورا بأنه "أظهر لهم الإسلام والزهد والورع"[104].

---

[98] العبر، ج6، 277.
[99] كتاب الاستبصار، 197.
[100] العبر، ج6، 276.
[101] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.
[102] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.
[103] كتاب الاستبصار، 197.
[104] الأنيس المطرب، 130.

بمعنى أن مملكة تامسنا قد ظلت ظاهريا على المذهب الخارجي الصفري، طوال فترة حكم صالح بن طريف. وليس أدل على ذلك، مما ورد على لسان أبي صالح زمور بن وارديزن البرغواطي، الذي صرح بأن صالح بن طريف قد استتر بمذهبه تقية طوال فترة حكمه، إلى أن "عهد صالح إلى ابنه إلياس...وأمره أن لا يظهر ذلك إلا إذا قوي وأمن، فإنه يدعو إلى ملته ويقتل حينئذ من خالفه"[105].

ويبدو أن مملكة بني طريف في بلاد تامسنا، ودعوتها الخارجية الصفرية المعلنة، قد تعرضت لانحسار شديد أثناء ظهور الدعوة العلوية الزيدية الإعتزالية بقبائل أوربة المجاورة. ومن المعلوم أن الإمام إدريس بن عبد الله الحسني، قد بادر إلى مهاجمة مملكة بني طريف بجموعه، "فخرج بهم غازيا إلى بلاد تامسنا، فنزل أولا مدينة شالة ففتحها، ثم فتح بعدها سائر بلاد تامسنا"[106]. تم ذلك في بحر سنة 172 هجرية (798م). فما كان على صالح بن طريف إلا أن تخلى عن الملك بعدما "عهد صالح إلى ابنه"[107].

وليس أدل على انتقال دولة بني طريف بتامسنا خلال هذه الفترة الحالكة من تاريخها من طور إمامة الظهور إلى طور إمامة الدفاع، مما ورد على لسان صالح بن طريف ضمن وصيته لولده ووارث سره إلياس إذ "أمره ألا يظهر الديانة حتى يظهر أمره وينتشر خبره"[108]. وإدراكا منه للخطر الذي يمثله طموح الأدارسة على مجمل الكيانات السياسية القائمة ببلاد المغرب، لم يتردد صالح بن طريف عن وضع اللبنات الأولى للتحالف السياسي الذي ما فتئ يتوطد على مدار القرون اللاحقة، بين مملكة بني طريف بتامسنا والإمارة

---

[105] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

[106] الأنيس المطرب، 20. أنظر أيضا: علي الجزناني، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، الرباط 1991، 12-13؛ الاستقصا، ج1، 156.

[107] الاستبصار، 198.

[108] البيان المغرب، ج1، 57.

الأموية بالأندلس، برغم عمق خلافاتهما المذهبية. لذلك لم يتردد عن وصية ولده ووريث سره بضرورة "موالاة صاحب الأندلس من بني أمية"[109].

أما صالح بن طريف فقد آثر الاعتزال عن الملك، فخرج إلى المشرق في رحلته الأخيرة، كما تواتر ذكره في جملة من المصادر التاريخية المعتمدة في هذا العمل. تم ذلك ــ حسبما يتضح من مختلف القرائن ــ في أواخر سنة 172، أو في أوائل سنة 173 هجرية، وقد شارف صالح بن طريف على سن الثمانين. وهي الرحلة التي أحيطت بهالة من الخوارق والأساطير، التي كان لها أكبر الوقع في عقول العامة ممن تجاذبتهم رياح التيارات المذهبية المنغمسة في أصول التشيع والمعتقدات الباطنية. فقد شاع القول في أوساط عامة أهل بلاد تامسنا، أن صالح بن طريف هو المهدي المنتظر الذي دخل فترة الغيبة، وأنه يظهر في دولة السابع من ملوكهم، "وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا"[110]. ناهيك عما عدا ذلك من المعتقدات التي تنم عن احتدام التنافس بين مختلف التيارات المذهبية المتصارعة، أملا في إحكام قبضتها على تلابيب عامة أهل المغرب الأقصى. وليس أدل على وقع مثل هذه المقالات في أوساط العامة، والتمكين لملوكهم للامساك من جديد بناصية البلاد، مما ذكره ابن حزم[111] بالقول: "وكفار برغواطة إلى اليوم ينتظرون صالح بن طريف الذي شرع لهم دينهم ... وهو عندهم المهدي المنتظر".

3 ــ **عهد إلياس بن صالح والبعد الصوفي (172ــ222)**

وبرغم اختلال أمور مملكة بني طريف، على إثر هجمات إدريس الأول الكاسحة على بلاد تامسنا، فقد ظلت أسس الدولة قائمة. مصداق ذلك ما قيل عن

---

[109] العبر، ج6، 277؛ أنظر كذلك: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135؛ البيان المغرب، ج1، 57؛ كتاب الاستبصار، 198؛ أعمال الأعلام، 183.

[110] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135؛ كتاب الاستبصار، 198. أنظر كذلك: العبر، ج6، 276-77؛ البيان المغرب، ج1، 57؛ أعمال الأعلام، 183.

[111] الفصل في الملل، ج5، 38.

"تولى إلياس الأمر من بعد خروج أبيه"[112] سنة 172 هجرية. حقيقة أن اغتيال إدريس الأول قد وفرت للملك إلياس بن صالح بعض هوامش المناورة، مكنته من إعادة تجميع قواه ببلاد تامسنا. إلا أن إعادة انتظام أمور الأدارسة بتدبير حكم إدريس الثاني من طرف كبار رجالات أوربة، سرعان ما أسفرت على استئناف الصراع بين المملكتين على النفوذ بالمغرب الأقصى.

وقد أشارت الحوليات التاريخية إلى استئناف غزو بلاد تامسنا من طرف إدريس بن إدريس "سنة سبع وتسعين ومائة [إذ] خرج غازيا بلاد المصامدة"[113]. ويتعلق الأمر بسلسلة من المعارك الصعبة التي خاضها إدريس الثاني ضد إلياس بن صالح المعروفة بـ "غزواته للخوارج الصفرية من البربر"[114]. لا غرابة في ذلك، ما دام إلياس بن صالح قد التزم بوصية سلفه، وظل طوال مدة حكمه "يظهر ديانة الإسلام ويسر الذي عهد إليه به أبوه خوفا وتقية"[115]. وهو ما أكده الرواة الذين تناقلوا الخبر عن إلياس بن صالح الذي "كتم الشريعة التي عهد إليه أبوه خوفا وتقية"[116]. وهي ذات الحقيقة التي اثبتها ابن الخطيب[117] بقوله أن إلياس "كتم نحلته خوفا على نفسه". بمعنى أننا أمام دولة تشهر المذهب الخارجي الصفري وتضمر مذهبها البرغواطي الذي ظلت مبادئه إلى ذلك الحين في طي الكتمان.

والراجح أن أطراف بلاد تامسنا قد ظلت خلال هذه الفترة المضطربة متأرجحة بين الانتظام في كنف مملكة بني طريف، والوقوع تحت طائلة سيف الأدارسة. وتطالعنا الحوليات التاريخية بخبر نجاح إدريس الثاني في ضم أجزاء هامة من بلاد تامسنا إلى دائرة نفوذه. مصداق ذلك إقدام خلفه محمد بن إدريس

---

[112] المغرب في ذكر بلاد المغرب، 136.
[113] الإستقصا، ج1، 169.
[114] الأنيس المطرب، 26.
[115] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.
[116] الاستبصار، 198؛ البيان المغرب، ج1، 57.
[117] أعمال الأعلام، 184.

إبان بيعته على إثر وفاة والده سنة 213 هجرية (828 م) على قسمة المغرب بين إخوته كما هو معلوم "وولى أخاه عيسا على شالة وسلا وأزمور وتامسنا وما والا ذلك من القبائل"[118].

وتجمع المصادر التي تناولت ذكر إلياس بن صالح، على إبراز خصاله الفاضلة، إذ اشتهر بكونه "طاهرا عفيفا زاهدا"[119]. كما شاع ذكره في الآفاق بكونه ممن "لم يلتبس بشيء من الدنيا"[120]. ولا نستبعد أن تكون ثمة علاقة بين الفكر المهدوي والأبعاد الصوفية في الفكر البرغواطي، وإقدام صالح بن طريف على تسمية ولي عهده باسم النبي إلياس عليه السلام. ولا غرو، فقد تواتر الارجاف في مقالات الفرق الإسلامية بمن "سلك هذا السبيل من نوكى الصوفية، فزعموا أن الخضر وإلياس عليهما السلام حيان إلى اليوم، وادعى بعضهم أنه يلقى إلياس في الفلوات والخضر في المروج والرياض"[121].

ونميل إلى الاعتقاد بأن إلياس بن صالح بالذات قد تجرد لإدخال تعديلات جوهرية على الفكر البرغواطي خلال هذا التاريخ، ممثلة في الفكر الصوفي الذي انضاف في عهده إلى عقلانية الفكر القدري الاعتزالي، وثورية المذهب الخارجي الصفري، المعتمدة من طرف صالح بن طريف في صياغة أصول مذهبه البرغواطي. وهو ما أشار إليه ابن حوقل[122] في عبارة بالغة الدلالة، بالقول: "فزاد في رسمه أشياء ذكر أن له فيها الزيادة والنقصان، والحل والعقد، فيما قدمه صالح لهم من الأحوال". ويضيف ابن حوقل ما يؤكد ـــ بما لا يدع مجالا للشك ـــ إقدام ثالث ملوك بني طريف على إحداث هذه التعديلات

---

[118] الأنيس المطرب، 51.
[119] العبر، ج6، 277.
[120] المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، 136.
[121] الفصل في الملل، ج5، 37.
[122] صورة الأرض، 82. وقد التبس الأمر على ابن حوقل، فاعتقد خطا ان ابا غفير هو الوصي على العرش الذي خلف صالح بن طريف، والصحيح انه خلفه بدعى إلياس. اما ابا غفير فقد تولى الملك بعد نذ بحوالي قرن من الزمن، كما سنتعرض لذلك بما يستحق من تفصيل لاحقا.

الجوهرية في أصول المذهب البرغواطي. وهو ما أثبته تصريحا بالقول: فقد "دعاهم إلى النسك وترك الدنيا، والإقبال على التقلل والزهد، وتناهى هو وخاصته في ذلك"[123].

والغالب على الظن أن إلياس بن صالح قد آثر، لاسترجاع نفوذ مملكة بني طريف في بلاد تامسنا وفيما جاورها من قبائل المغرب الأقصى، العمل على تفكيك نفوذ الأدارسة من الداخل، عن طريق بث الدعوة البرغواطية في أوساط الخاصة، ممزوجة بمسوح صوفية منسابة إلى ألباب العامة، بفضل ما شاع عن الامام من أخلاق الزهد والعفة. وهو الأسلوب الذي لم يتأخر عن الإثمار، حسبما يتضح من رواية ابن الخطيب[124]، الذي نص على أن إلياس بن صالح "لم يظهر شيئا من نحلته في الجمهور، إلا من وثق به ورضي به من خاصته، فدخل في طاعته خلق كثير من زناتة وغيرهم وعظم أمره".

وقد تناقلت المصادر التاريخية الخبر بطول المدة التي استغرقها إلياس بن صالح في الحكم، إذ "ملك خمسين سنة"[125]. وهو ما أكده ابن خلدون[126] في إشارته إلى أن إلياس بن صالح قد "هلك لخمسين سنة من ملكه"، بمعنى أنه قد ظل على رأس الدولة إلى حين وفاته في حدود سنة 222 هجرية (836 م) فيما يبدو. ومن الملاحظ أن ثمة خلل واضطراب في ضبط تواريخ ولاية ووفاة إلياس بن صالح. لا سيما رواية ابن الخطيب[127]التي كان لها أبلغ الأثر في انزلاق الدراسات التاريخية المعاصرة في اتجاه اعتماد تواريخ منحولة، لا تتوافق البتة مع نسق فصول تاريخ مملكة بني طريف.

---

123 صورة الأرض، 82.

124 أعمال الأعلام، 184.

125 المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، 136؛ البيان المغرب، ج1، 57؛ كتاب الاستبصار، 198؛ أعمال الأعلام، 184.

126 العبر، ج6، 277.

127 تقتصر رواية صاحب كتاب الاستبصار على ذكر تاريخ إظهار إلياس بن صالح مذهبه بإثبات دار الأحاد والعشرات دون المئات، وهو ما استدرك عليه المحقق بإضافة دار المائة مجازفة. انظر: كتاب الإستبصار، 198. بينما يعمد ابن الخطيب إلى تحديد تاريخ ولاية إلياس سنة 128 هجرية وإثبات تاريخ وفاته في سنة 176 هجرية.

4- يونس بن إلياس وترسيم المذهب البرغواطي (222-266)

وبوفاة إلياس بن صالح "ولي بعده ابنه يونس"[128]، الذي أعلن من جديد إمامة الظهور، بعدما هيأ له سلفه شروط تحقيق ذلك. لم يتوقف الأمر عند هذه الحد، بل سرعان ما تجرأ الإمام الجديد على إظهار حقيقة المسألة البرغواطية، وبأن الأمر يتعلق بمذهب فكري جديد مختلف عن كافة المذاهب المتعارفة في دار الإسلام، مشرقا ومغربا. تم ذلك بدءا من سنة 222 هجرية (836 م)، باعتبارها منطلق الجهر بتعاليم ومبادئ الحركة الفكرية التي وضع أسسها صالح بن طريف، وظلت في طي الكتمان إلى أن اكتملت الشروط السياسية، ونضج المناخ الفكري لتقبلها من طرف الخاصة بالاحتجاج الكلامي، ونشرها في أوساط العامة بحد السيف.

وهو المذهب الفكري والكلامي الذي غدا ـ منذ هذا التاريخ ـ معروفا لدى أهل القلم بالمذهب البرغواطي. وقد أفصحت المصادر المعتمدة عن التحول الذي حدث على يد يونس بن إلياس، رابع ملوك بني طريف، الذي أفلح في تجاوز فترة الكتمان والإقرار أمام الخاصة والعامة والقاصي والداني بحقيقة المذهب البرغواطي. وبذلك يكون قد تمكن من وضع وصية جده صالح بن طريف موضع التنفيذ، بعد مرور ما ينيف عن نصف قرن عن السر بها. وقد تناولنا بالذكر كيف أسر صالح بن طريف لولي عهده إلياس بسره، "وأمره أن لا يظهر ذلك إلا إذا قوي وأمن، فإنه يدعو إلى ملته"[129]. وما دامت هذه الشروط لم تتحقق خلال الخمسين سنة التي أمضاها إلياس بن صالح في الحكم، فما كان على الحفيد يونس بعدما تقوى سلطانه وتمكن أمره، إلا أن يعمل بالوصية

---

[128] كتاب الإستبصار، 198.

[129] المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، 135.

فـ"أظهر دياناتهم ودعا إليها"[130]. وليس أدل على ارتباط انتشار المذهب البرغواطي بالديار المغربية بشخصية يونس بن إلياس رابع ملوك بني طريف، من الخلط الذي وقعت فيه أمهات المصادر التاريخية، بين مؤسس المذهب صالح بن طريف ومعلنه يونس بن إلياس. نذكر على سبيل المثال، التباس الأمر على البكري[131] فأثبت خطأ أن يونس القائم بدين برغواطة، هو الذي نشأ في برباط بكورة شذونة، ورحل إلى المشرق وتتلمذ على غيلان الدمشقي.

لم يقتصر مجهود يونس بن إلياس على نشر تعاليم المذهب البرغواطي اعتمادا على أساليب الدعوة بالتي هي أحسن، والاحتجاج بالقول والجدال بالحجة، بل تخطاه إلى استعمال القوة. وهو في ذلك لم يبرح نصيحة المعلم الأول صالح بن طريف الذي أوصى وريث سره بأنه متى أنس في نفسه القوة والجبروت، فما عليه إلا أن "يقتل حينئذ من خالفه"[132]. لذلك فبمجرد إمساكه بمقاليد السلطة، شرع في "قتل من لم يدخل في أمره"[133]. ويبدو أن بلاد تامسنا قد اشتعلت نارا، بين أتباع المذهب البرغواطي المعلن حديثا، وبين المحافظين من أهل القبائل المستمسكين بالمذهب الصفري الموروث عن الأجداد. ولا غرو، فقد ظلت الصفرية، منذ بيعة ميسرة المطغري بصفته أول خليفة مغربي صفري، ومنذ تأسيس مملكتهم من طرف أب ملوكهم طريف بن عبد الله – على مدار ما ينيف عن قرن من الزمن – بمثابة المذهب الرسمي المعلن في كافة قبائل تامسنا.

بلغت دائرة المعارك من الاتساع وعمق حجم الاستئصال، أن عمد يونس بن إلياس إلى "حرق مدائن تامسنا وما والاها"[134]. وقد بلغ هول الكارثة

---

[130] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.
[131] المغرب في ذكر بلاج إفريقية والمغرب، 137- 38.
[132] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.
[133] العبر، ج6، 277.
[134] العبر، ج6، 277.

أن قيل "إنه حرق ثلاثمائة وثمانين مدينة"[135] حسب بعض التقديرات. بينما ذكر البعض الآخر أنه "أخلى ثلاثة مائة مدينة وسبعا وثمانين مدينة"[136]. ونتوفر على تفاصيل بعض المعارك، مثل المعركة التي جرت "بموضع يقال له تملوكاف، وهو حجر عال نابت وسط السوق"[137]. ويبدو أن جيوش يونس بن إلياس قد باغتت أهل القبائل المعارضة المتجتمعين لقتاله عند سوقهم هذا، "فقتل منهم سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين قتيلا"[138].

ولا يخفى دور المعارضة الشديدة التي أبدتها قبائل تامسنا للمذهب البرغواطي، وإصرارها على رفض المبادئ والأفكار الجديدة، المخالفة لما جبلوا عليه من التعاليم المأخوذة عن مشايخ الصفرية، في تأجيج نار الحرب الأهلية. وهو ما تجلى من خلال مناوئتهم لمشروع يونس بن إلياس ورفضهم دعاويه وامتناعهم عن الانخراط في سلكه، فما كان إلا أن "استلحم أهلها بالسيف لمخالفتهم إياه"[139]. وبالمثل، لم يجد يونس بن إلياس بدا من حمل "جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إياه"[140].

واضح أن الأمر يتعلق بخلاف مذهبي بين المستمسكين بالمذهب الخارجي الصفري، والدعاة للمذهب البرغواطي. ولا تعوزنا القرائن الدالة على نجاح يونس بن إلياس في ربط عموم أهل بلاد تامسنا بالمذهب البرغواطي، فغدا منذ هذا التاريخ بمثابة المذهب الرسمي للمملكة، بدل المذهب الخارجي الصفري. هكذا فقد تمكن يونس بن إلياس من إعادة ترتيب أوضاع مملكة بني طريف، بعدما اختلت أركانها نتيجة اختراقات الأدارسة الذين نجحوا في أكثر

---

[135] العبر، ج6، 277.
[136] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.
[137] العبر، ج6، 277؛ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.
[138] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136؛ العبر، ج6، 277.
[139] العبر، ج6، 277.
[140] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.

من مناسبة في غزو حاضرتهم شالة. وفي سياق ذلك، بادر يونس بن إلياس إلى نقل خطط الدولة نحو "قاعدة ملكه مدينة شالة"[141].

والجدير بالملاحظة أن مشروع يونس بن إلياس لم يتوقف عند حد إحكام قبضته على بلاد تامسنا، بل سرعان ما راودته فكرة نشر تعاليم المذهب البرغواطي في عموم بلاد المغرب. لذلك لم يتأخر عن نقل ميدان الفعل العسكري والمذهبي من "تامسنا [إلى] ما والاها"[142] من القبائل المجاورة. وثمة قرائن كاشفة عن تجاوز طموحاته مواطن المجموعة القبلية المصمودية، في اتجاه رسم آفاق أوسع لسياسته. مصداق ذلك، ما ورد في ثنايا بعض المصادر عن شروعه في نقل ميدان فعله السياسي والعسكري والمذهبي نحو غير المصامدة من قبائل المغرب الأقصى. هكذا فسرعان ما أفلح في اختراق المواطن المجاورة "وقتل من صنهاجة خاصة في وقعة واحدة ألف وغد"[143].

وحتى يواجه معارضيه ممن يتهمونه بالكفر والزندقة والخروج عن الملة، ويؤكد لأعدائه وأنصاره الاستمساك بالعروة الوثقى، بادر يونس بن إلياس إلى استكمال أركان دينه "ورحل إلى المشرق وحج ولم يحج أحد من أهل بيته قبله ولا بعده"[144]. ولعل في ذلك ما يكشف عن درجات الأمن والاستقرار التي تحققت لمملكة بني طريف البرغواطية في عهده، وتوفي "بعد أن ملك أربعا وأربعين سنة"[145]، وهو ما يوافق حسب تقديرنا سنة 266 هجرية (897 م).

---

[141] أعمال الأعلام، 184.
[142] العبر، ج6، 277.
[143] المغرب فب ذكر إفريقية والمغرب، 136.
[144] العبر، ج6، 277.
[145] المغرب في ذكر بلاج إفريقية والمغرب، 136.

ثالثا: العصر الذهبي للإمامة البرغواطية

1- يحمد بن معاد أبو غفير وإعلان الخلافة (271-299)

ويبدو أن ثمة خلافا على العرش قد دب على إثر وفاة يونس بن إلياس بين أبنائه الذين من صلبه وبين بني عمومتهم المنحذرين من فخذة اليسع بن صالح بن طريف. وهو الخلاف الذي أفضى إلى إقصاء فرع إلياس بن صالح عن الحكم "وانتقل الأمر عن بنيه"[146]. وقد دام هذا الاضطراب في قمة الهرم السياسي بضعة سنين لينتهى "بقيام أبي غفير يحمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف"[147]. ولا تعوزنا القرائن الدالة عن لجوء أبي غفير يحمد بن معاد إلى القوة لحسم الصراع على الحكم داخل الأسرة المالكة لصالحه إذ ورد في بعض المصادر أنه "استولى على ملك برغواطة"[148]. كما لا تعدم الدلائل عن دور الوازع المذهبي ودرجات الإيمان بالتعاليم البرغواطية والاصرار على توسيع مجالات تأثيرها في حسم الصراع لصالح هذا الفرع من بيت بني طريف، إذ شاع الخبر بأن أبي غفير يحمد بن معاد قد "استولى على الملك بدين آبائه"[149]. وقد تم له ذلك في تقديرنا حوالي سنة 271 هجرية (884 م).

ومنذ إمساكه بدفة الحكم، لم يذخر يحمد بن معاد جهدا في توسيع رقعة المملكة وتقوية نفوذ الدولة، مما تطلب منه خوض معارك طاحنة في مختلف جهات البلاد. وقد بلغت حروبه ضد المناطق المخالفة من الشدة والبأس، أن ظلت تفاصيلها حية في ذاكرة مجمل قبائل المغرب، تتناقلها الألسن وتواترها الأقلام ويتغنى بها الشعراء. وهو ما أشارت إليه رواية البكري وتناقلها غيره من المؤرخين، بالقول: "وكانت له وقائع كثيرة في البربر مشهورة لا تنسى مع

---

[146] العبر، ج6، 277.
[147] المغرب في ذكر بلاج إفريقية والمغرب، 136.
[148] العبر، ج6، 277.
[149] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.

الأيام"[150]. وهي الأيام والوقائع التي "أشار إليها سعيد بن هشام المصمودي"[151]، ضمن قصيدة شعرية نظمها على وزن مفاخرات عمرو بن كلثوم في معلقته الشهيرة. وقد احتفظت مسالك البكري وعبر ابن خلدون، من ضمن قصيدة طويلة مروية على لسان أبو العباس فضل بن مفضل بن عمرو المذحجي، ببضعة أبيات كاشفة عن شراسة المعارك التي قادها أبو غفير يحمد بن معاد، وعن تمرسه في فنون الحرب والإغارة والفروسية، وعن تمكن البرغواطيين من السيادة على معظم قبائل البربر، ونشر الرعب في أوساط المخالفين.

كما تتضمن ثنايا هذه القصيدة إشارات غاية في الأهمية بخصوص مقالات خصوم برغواطة، ممن يتهمونهم بالسير في مسالك الضلال، والتمادي في الغي وراء ملكهم أبو غفير، الذي ينسبونه "خزيا وبهتانا إلى النبوة". كما تشير هذه الأبيات الشعرية، إلى دور يونس رابع ملوك بني طريف، وأبناء إلياس ثالث ملوكهم، في قيادة قبائل البربر في دروب الحيرة. ويخص هذا الشاعر، مؤسس المذهب البرغواطي صالح بن طريف باللقب الذي اشتهر به في لسان أهل بلده الأمازيغ، إذ كان معروفا لديهم بـــ "ورياوري"[152]. وهو اللقب الذي أثبته البكري في مسالكه، مفصحا عن معناه "في البربرية: ورياوري، أي الذي ليس بعده شيء"[153].

ومن أبرز المعارك التي خاضها أبو غفير يحمد بن معاد "وقيعة تيمغسن، وكانت مدينة عظيمة أقام القتل في أهلها ثمانية أيام من الخميس إلى

---

[150] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136؛ العبر، ج6، 277.

[151] أنظر :العبر، ج6، 277-78.؛ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 138. وقد آثرنا إثبات الأبيات التالية:

قفي قبل التفرق واخبرينـــا ... وقولي واخبري خبرا يقينا

هموم برابر خسروا وضلـوا ... وخابوا لا سقوا ماء معينـــا

الايم أمة هلكت وظـــــلت ... وزاغت عن سبيل المسلمينا

سيعلم قوم تامسنا إذا مـــا ... أتوا يوم النشور مهيمنينـــا

هنالك يونس وبنو بنيــــــه ... يقودون البرابر مهطعينـــا

إذا ورياورى زمت عليـــــه ... جهنم قائد المستكبرينـــا

[152] العبر، ج6، 278.

[153] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.

الخميس، حتى شرفت دورهم ورحابهم وسككهن بدمائهم"[154]. كما يشير البكري إلى وقعة أخرى لا تقل أهمية في ترصد فلول الأدارسة الحسنيين وحصد شوكتهم. ويتعلق الأمر بـ "وقعة بموضع بهت عجز الإحصاء عن عد من قتل فيها"[155]. ولعل في موقعي تيمغسن ووادي بهت ما يساعد على تحديد المحاور التي سارت في اتجاهها حركة أبي غفير يحمد بن معاد التوسعية.

هكذا، سرعان ما بلغت مملكة بني طريف البرغواطية في عهد يونس بن إلياس الغاية، إذ "اشتدت شوكته وعظم أمره"[156]. ومن أبرز قبائل المغرب الأقصى التي انضوت تحت إمرة مملكة بني طريف المنتظمة حول قاعدة شالة، وأخذت بمذهب برغواطي تامسنا، وأصبحت ممن "يدينون لهم وهم على ملتهم: جراوة وزواغة والبرانس وبنو أبي ناصر ومجكصة وبنو ابي نوح وبنو واغمر ومطغرة وبنو بورغ وبنو دمر ومطماطة وبنو وزكسينت وعددهم ينتهي أزيد من عشرة آلاف فارس"[157]. وهي المجموعات القبلية التي أكد ابن خلدون اندماجها في مملكة بني طريف وأخذها بالمذهب البرغواطي، اعتمادا على رواية زمور بن واردیزن البرغواطي، إذ قال: وفضلا عن قبائل تامسنا، كان على دين برغواطة "عشرة آلاف سواهم مثل جراوة وزواغة والبرانس ومجكصة ومطغرة ودمر ومطماطة وبنو واركزكيت"[158].

---

[154] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136. والمقصود بهذا اللفظ المنطوق في لسان البربر الأمازيغ كالتالي: تيمغيسين أي الحرائر الغير المسترقات من النساء والمفرد تميغيست. وهو عكس الإماء المصطلح على تسميتهن في لسان البربر الأمازيغ بالمفرد ثايا. وقد تراجعت أهمية هذه المدينة خلال القرون اللاحقة، وغدت خلال سنة 605 مجرد قرية صغيرة تحتفظ بنفس اسمها القديم: قرية تيمغسن، أنظر :ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق إحمد التوفيق، الدار البيضاء، 1997، 408. ما زال هذا الموقع معروفا إلى اليوم بنفس إسمه القديم على بعد عدة أميال على يمين نهر مسنات، من أنهار المغرب التي تعرف الآن باسم وادي أم الربيع، مما يدعو الباحثين في الآثار إلى المبادرة للتدقيق في ضبط موقعها وإجراء ما تستحقه من معاينات وحفريات أثرية.

[155] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136. وما زال وادي بهت يحمل إلى اليوم نفس اسمه القديم بأحواز مدينة مكناس.

[156] العبر، ج6، 277.

[157] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 140-41.

[158] العبر، ج6، 278.

ولعل في هذه التفاصيل ما يساعدنا على تحديد خريطة المملكة البرغواطية وهي في أقصى درجات اتساعها، إذ شملت فضلا عن بلاد تامسنا كافة الممتلكات السابقة للدولة الإدريسية في عمق المغرب الأقصى ببلاد البرانس وأحواز فاس، ممتدة في اتجاه تلمسان نحو مصب نهر ملوية، شاملة بلاد جراوة وزواغة، ومتعمقة في بلاد مطغرة نحو تخوم سجلماسة. كما اتسعت حدود المملكة نحو الشمال في اتجاه بحر المجاز، شاملة مجكصة وبلاد غمارة. مما يجعلنا أقرب إلى رسم حدود الممالك الثلاث التي اقتسمت حول هذا التاريخ القسم الأوفر من المغرب الأقصى: مملكة بني طريف البرغواطية المنتظمة حول قاعدتها بشالة، ومملكة بني مدرار الصفرية المنتظمة حول قاعدتها بسجلماسة، ومملكة بني صالح السنية المالكية المنتظمة حول حاضرتها بنكور.

إلا أن النفوذ السياسي والجبائي لمملكة بني طريف، سرعان ما امتد إلى غيرها من المناطق والقبائل التي انضوت تحت جناح الدولة البرغواطية، في سياق علاقات التبعية والولاء، مع الاحتفاظ بعقائدها المذهبية المخالفة للمذهب البرغواطي. وهي المجموعات القبلية التي صنفت من طرف الرواة ضمن مراتب المملكة البرغواطية ممن ظلوا على مذاهبهم. وهو ما تم إثباته بالقول: إنهم "ممن يدين لهم من المسلمين وينضاف إلى مملكتهم: زناتة الجبل وبنو يليت ونمالتة وبنو واوسنيت وبنو يفرن وبنو ناغيت وبنو النعمان وبنو أفلوسة وبنو كونة وبنو يسكر وأصادة وركانة وايزمين ومنادة وماسينة ورصانة وترارة ومبلغ عددهم نحة اثني عشر ألف فارس"[159]. وقد أحصى ابن خلدون أيضا هذه المجموعات القبلية المنضوية في سلك المملكة البرغواطية بالقول: إن "بني يفرن واصادة وركانة وايزمن ورصافة ورغصرارة كانت أيضا على دينهم".

---

[159] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 141.

لعل في هذه الملاحظات ما يفصح عن استمرار بعض الجيوب القبلية مستمسكة مذهبيا بقناعاتها الزيدية العلوية، أو الشيعية البجلية، أو الصفرية أو الإباضية، إلى ما عدا ذلك من التيارات الفكرية، محتفظة بمشايخها وقياداتها المحلية، مع انخراطها سياسيا وجبائيا في سلك الدولة البرغواطية. وقد كشف البكري[160] عن طبيعة العلاقة التي ربطها ملك برغواطة مع مشايخهم، بالقول: فكانت "تهاديه القبائل وتستألفه". ويتعلق الأمر في تقديرنا بمجموعة من الكيانات المحلية المحدودة النفوذ التي اندرج ملوكها ومشايخها على التزلف لصاحب برغواطة، فكانوا "يهادونه ويدافعونه بالمواصلة"[161].

والجدير بالملاحظة أن يحمد بن معاد، عمد على خلاف ملوك بني طريف الأربع السابقين إلى استحداث لقب سلطاني ذي طابع خلافي خص به شخصه، باعتبار جلالة المنصب الذي شغله. ويتعلق الأمر باللقب الخلافي الذي رسم به المستوى الجديد الذي أصبح عليه النظام السياسي لدى البرغواطيين، إثر انتقال دفة الحكم من فرع إلياس بن صالح بن طريف إلى فرع اليسع بن صالح بن طريف. هكذا غدا اسم الملك يحمد بن معاد مقرونا بلقب ذي طابع خلافي سامي ضمن خطط الدولة ومراتب الملك، فأصبح مخاطبا باسم أبي غفير.

وعلى غرار مشاهير الخلفاء الذين نبذوا حياة التقلل والزهد، وسعوا إلى نيل وطرهم من الدنيا، وانعمسوا في البذخ وحياة القصور، مال أبو غفير يحمد إلى الملذات واتخذ "من الزوجات أربعة وأربعون زوجة"[162]. وقد التبس الأمر على ابن حوقل فخلط بين شخصية الملك البرغواطي الزاهد إلياس بن صالح، وأبي غفير يحمد هذا الذي نسبه خطا إلى "النسك وترك الدنيا والإقبال على

---

[160] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.
[161] العبر، ج6، 278.
[162] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.

التقلل والزهد"[163]. وتطالعنا المصادر المعتمدة بالخبر عن المدة التي قضاها أبو غفير يحمد بن معاد في الحكم، إذ ملك حسب أدق الروايات تسع وعشرين سنة. وبينما يحدد ابن خلدون تاريخ وفاته بالقول تعميما "وهلك أخريات المائة الثالثة"[164] يشير البكري أن أبا غفير قد مات "عند ثلاث مائة"[165]. ونميل من خلال المعطيات المتاحة إلى اعتماد سنة 299 هجرية (911 م) كتاريخ لوفاته.

ويبدو أن البرغواطيين كانوا سباقين إلى إعلان نظام الخلافة بحاضرة شالة من بلاد تامسنا بالمغرب الأقصى، خلال السبعينات من القرن الهجري الثالث. وسرعان ما حذا الشيعة الإسماعلية حذوهم، فأعلنوا الخلافة الفاطمية بإفريقية خلال نهايات نفس القرن، وقد اتخذ إمامهم من ألقاب الخلافة لقب المهدي. ومن المعلوم أن صاحب قرطبة عبد الرحمن الأموي لم يتأخر عن الالتحاق بالركب، فأعلن الخلافة الأموية بالأندلس مختارا لقب الناصر لدين الله. وقد كان ذلك إيذانا بانفتاح فصول الصراع بين المذهب البرغواطي بالمغرب الأقصى، والتشيع الإسماعيلي بإفريقية، وتيار أهل السنة والجماعة الأموي بالأندلس. مع ما ينم عليه ذلك من رغبة في الانتقال بممالكهم أو بدعواتهم من درك الامارة إلى مستوى الخلافة. وهو المستوى السياسي الرفيع الذي يفسح المجال لصاحبه – حسب الأحكام السلطانية السائرة – من الانفراد بشرعية الحكم والإمساك بسلطان الأحكام والفتوى بالجناح الغربي لدار الإسلام. مع ذلك، لا تخفى عن البصيرة درجات البتر التي تعرضت لها فصول هذا الصراع، إذ اختفت إلى حد الطمس حلقته البرغواطية، التي نسعى جهد الامكان من خلال هذه المحاولة الباهتة، إلى انتشال بعض يسير من خيوطها الممزقة.

---

[163] صورة الأرض، 82.

[164] العبر، ج6، 278.

[165] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.

2ـ عبد الله بن يحمد أبو الأنصار في عز الإمامة (299ـ341)

وبعد وفاة أبي غفير يحمد بن معاد، "ولي بعده ابنه أبو الأنصار عبد الله"[166] بن يحمد ابتداء من سنة 299 هجرية، وقد أصبحت الدولة البرغواطية قوية الشكيمة مهابة الجانب عظيمة الخيرات. وعلى غرار سلفه، اتخذ من الألقاب السلطانية لقب أبي الأنصار، وجنح نحو تغليب أسلوب المهادنة والسلم، ليس فقط بمملكة بني طريف بل بمجمل بلاد المغرب الأقصى. وبدلا من استعمال القوة العسكرية الجبارة التي انتظمت تحت إمرته، في شن الحروب وإنفاذ الغارات على الخصوم، فقد آثر نهج سياسة مخالفة. وهي السياسة[167] التي تتلخص في إظهار الجبروت والتلويح للخصم بمواطن القوة والتكشير عن الأنياب، لتلافي استعمالها. فقد كان "يجمع جنده وحشمه في كل عام ويظهر أنه يغزو من حوله فتهاديه القبائل وتستألفه، فإذا استوعب هداياهم وألطافهم فرق أصحابه وسكنت حركته"[168]. وسرعان ما أثمرت هذه السياسة أكلها وأصبح أبو الأنصار عبد الله بن يحمد "مهابا عند ملوك عصره يهادونه ويدافعونه بالمواصلة"[169].

من الطبيعي والحالة هذه أن تنفتح على المغرب الأقصى فترة زاهية من الأمن والاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي، فمال الجميع إلى غمد سيوفهم ونبذ الحروب والمشاحنات. فما كان إلا أن انتظمت عمليات التبضيع والتسفير من وإلى بلاد تامسنا التي غدت "بلدا مستقلا بنفسه عن الحاجة"[170] وتراكمت

---

[166] العبر، ج6، 278.

[167] وقد انساق المؤرخون المغاربة إلى نسب ابتكار هذا النهج السياسي للمارشال ليوطي المقيم العام الفرنسي بالمغرب وهو تحت نير الاستعمار، وقد أخذ بسياسة إظهار القوة والجبروت لتلافي استعمالها أسلوبا في مواجهة الشعب المغربي. ويطالعنا هذا الفصل من تاريخ المغرب أن الأمر يتعلق بطريقة في الحكم تعود لما ينيف عن عشرة قرون خلت، تم اعتمادها من طرف السلطان المغربي أبو الأنصار عبد الله بن يحمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف.

[168] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.

[169] العبر، ج6، 278.

[170] صورة الأرض، 83.

بأسواقها أصناف البضائع والخيرات، وتدفقت على خزائنها الأموال والجبايات. فبالإضافة للسفن التي كانت تجوب سواحل بلاد تامسنا محملة بأصناف البضائع المشحونة من مرافئ غرب الأندلس، كان "يصل إليهم أهل أغمات والسوس أيضا بالتجارة، وكذلك قوم من أهل سجلماسة"[171]. ولم يذخر أبو الأنصار عبد الله بن يحمد جهدا في توفير الجو الأنسب للتجارة والتجار، ولعموم المثمرين للأموال والخيرات، حتى اشتهر في أبعد الآفاق بكونه، "ظريفا يفي بالعهد ويحفظ الجار ويكافئ على الهدية بأضعافها"[172]. وفضلا عما اشتهر به من سخاء وكرم وعلو همة، "كان كثير الدعة مهابا عند ملوك عصره"[173]. مع ذلك، لم تكن الثروة والعز والسلطان لتزيغ أبا الأنصار عبد الله عن سنة أسلافه من أئمة وملوك برغواطة، في نبذ حياة البذخ والأخذ بالتقشف في الزي، والتطشف في المعيشة. فقد كان يقتصر على "لبس السراويل والملحفة، ولا يلبس القميص ولا يعتم إلا في الحرب، ولا يعتم أحد في بلده إلا الغرباء"[174]. وليس أدل على ما آلت إليه أوضاع المملكة في كنفه من عز وسؤدد، من الوصف الذي خص به أحدهم عصره، إذ قال: "فملك في دعة اثنتين وأربعين سنة"[175]. مما يجعلنا نحدد تاريخ وفاته سنة 341 هجرية (952 م).

وبدلا عن القوة وإنفاذ الحملات العسكرية، مال أبو الأنصار عبد الله بن يحمد إلى استخدام أسلوب الدعوة والتنظيم المذهبي في اختراق المناطق المضطربة، وضمان تبعية القبائل التي تحتضن فلول الأدارسة والتيارات المذهبية المخالفة. ويبدو أن ثمة شبكة من دعاة ومقدمي ومشايخ المذهب البرغواطي، قد تم بثهم منذ عقود في غير بلاد تامسنا من قبائل المغرب

---

[171] صورة الأرض، 83.

[172] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.

[173] العبر، ج6، 278.

[174] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.

[175] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 138.

الأقصى. وتقدم قبائل مجكصة وبني واغمر أو غمارة أبرز مثال بهذا
الخصوص. فقد سلفت الإشارة إلى ما أثبته البكري في مسالكه[176] وابن خلدون
في عبره[177] عن انضواء قبيلة مجكصة على وجه الخصوص، وعامة قبائل بني
واغمر في المذهب البرغواطي.

وفي تقديرنا، أن من الله الملقب بأبي خلف، يعتبر أول داعية للمذهب
البرغواطي بجبال مجكصة من بلاد غمارة. مصداق ذلك، ما ذكر عن كثرة
الأتباع الذين ساروا على خطاه ببلد غمارة، وهم يرددون عبارات دالة عن
دوره الريادي في نشر تعاليم المذهب البرغواطي. فقد ثبت أنهم كانوا يرددون
"بعد تهليل يهللونه"[178] القول: "آمنت بحاميم وبأبيه أبي خلف من الله"[179]. وقد
نبه البكري على المقصود بقولهم "أبي خلف، يريدون أبا حاميم"، مما يفصح عن
جذور حركة حاميم بجبال مجكسة في نواحي تيطاوين، التي تعود إلى عصر
الملك البرغواطي السابق أبي غفير يحمد بن معاد. والواقع أن الأمر يتعلق
بمجموع أفراد أسرة أبي خلف من الله بن حريز بن عمرو بن وجفوال بن
وزروال، المتشبعين بالتعاليم التي رامو نشرها انطلاقا من قبيلة مجكصة بكافة
ربوع غمارة. فقد اشتهرت أخته تانفيت بنت حريز أيضا بالنبوغ في أصول
المذهب، والتفاني في نشر الدعوة التي انتهى عامة أهل البلد بالانخراط فيها،
بقولهم: "آمنت بتانفيت"[180].

وفي عهد الإمام البرغواطي أبي الأنصار عبد الله، ذاع صيت الداعية
"أبي محمد حاميم بن من الله بن حريز بن عمرو بن وجفوال بن وزروال"[181].

176176 المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 141. ويضبط ابن خلدون نسب غمارة اعتمادا على إجماع أهل
التحقيق من نسابة البربر، بقوله: "ومن مصمودة غمارة بنو غمار بن مصطاف بن مليل بن مصمود" العبر، ج6،
118.

177 العبر، ج6، 278.

178 المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100.

179 الاستقصا، ج1، 192؛ العبر، ج6، 288.

180 المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100؛ العبر، ج6، 288.

181 المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100.

وقد حدد البكري مواطن هذه الفخذة القبلية الغمارية بالقول: "وبنو وجفوال رهط حاميم ينزلون على نهر راس، وهو على ثلاثة أميال من مدينة تيطاوان"[182].

ومن أفراد أسرة حاميم. الذين تألق نجمهم ضمن مراتب الدعوة، نذكر "أخته دجو"[183] التي كانت من أجمل الناس، "وكانوا يستغيثون بها في الحروب والقحوط"[184]. وعلى غرار ملوك وأئمة برغواطة ودعاتهم، لم يسلم حاميم من لسان وأقلام خصومه، الذين لم يترددوا عن كيله أصناف التهم بالكفر والزندقة والمروق. فليس مصادفة أن يتم نعته، على غرار صالح بن طريف وغيره من أئمة وملوك برغواطة، بـ "حاميم المتنبئ بجبال غمارة"[185]. كما شاع الخبر عنه في الآفاق بكونه قد "تنبأ بذلك الصقع"[186]، حيث افترى على الناس و"ادعى النبوءة"[187]، إلى أن غدا مشهورا بحاميم المفتري. كما هوجمت عمته تانفيت التي نسبت إلى السحر والكهانة وغير ذلك، وهي نفس النعوت التي علقت بأخته دجو.

وبالمثل، فليس من قبيل المصادفة أن يتناقل الرواة الخبر بأن حاميم "صنع لهم قرآنا كان يتلوه عليهم بلسانه"[188] المجكصي الغماري، وأنه قد "وضع لهم قرآنا بلسانهم"[189] الأمازيغي. والغالب على الظن، أن الأمر يتعلق ــ كما سلف الذكرــ بنفس المتن المترجم إلى اللسان البربري، على يد صالح بن طريف البرغواطي. وثمة دلائل إضافية عن مواطن التطابق بين المذهب البرغواطي وحركة حاميم، تتجلى من خلال الإشارات المتواترة عن اهتمام

---

[182] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 101. وما زال النهر يعرف إلى اليوم بوادي راس بناحية مدينة تطوان.

[183] العبر، ج6، 288.

[184] الاستقصا، ج1، 192.

[185] العبر، ج6، 288؛ الاستقصا، ج1، 192؛ كتاب الاستبصار، 191.

[186] المغرب في ذكر بلاد إفريقة والمغرب، 100.

[187] الأنيس المطرب، 98.

[188] العبر، ج6، 288.

[189] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100.

حاميم بأمور الفلك "وعلم استجلاب روحانية ما يشاؤونه من الكواكب"[190]. إلا أن ثمة جزئيات تجعلنا أقرب ما نكون إلى الإقرار – بدون تردد – أن حركة حاميم ما هي إلا امتدادا للمذهب البرغواطي ببلاد غمارة. والمقصود هنا ما سلف ذكره عن التزام حاميم بالتقليد البرغواطي الشائع في بلاد تامسنا، فـــــ"حرم عليهم الحوت حتى يذكى"[191]. ونتوفر على نص بالغ الوضوح في الكشف عن صحة مقالنا بانتشار المذهب البرغواطي على يد الداعية أبي خلف من الله، وعلى يد ابنه أبي محمد حاميم في مجموع بلاد غمارة. فقد ورد الخبر صريحا بأن "برغواطة الذين كانوا بتامسنا وأنفا، وجهات الريف الغربي"[192]أي في بلد غمارة على وجه التحديد.

تجدنا إذا أمام داعية للمذهب البرغواطي في بلاد غمارة انطلاقا من قبيلة مجكصة بناحية مدينة تيطاوين، خلال إمامة أبي الأنصار عبد الله بن يحمد بن معاد. وهو ذات المعنى الذي ضمنه الشاعر عبد الله بن محمد المكفوف الطنجي، قصيدة شعرية نظمها في هجاء مقال أهل غمارة "افتراء، أن حاميم مرسل إليهم بدين واضح الحق باهر، [بينما هي مجرد] أحاديث إفك حاك إبليس نسجه"[193]. فما عسى أن يكون إبليس، سوى الإمام البرغواطي الذي أرسل إلى أهل غمارة داعيته حاميم رسولا. وقد سلف أن بينا في الفصول السابقة، درجات ما دأب عليه المتكلمون من أهل الملل والنحل، من تلاعب مقصود بين منطوق ودلالات ألفاظ: من شاكلة النبي، والرسول، والتنبؤ، والنبوة، وما إلى ذلك.

وقد كان مبتدأ حركة حاميم بإجماع المصادر المعتمدة، سنة "ثلاث عشر وثلاثمائة بجبل حاميم المشتهر به قريبا من تطوان. وقد اجتمع إليه كثير منهم،

---

[190] نفس المصدر والصفحة.
[191] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100.
[192] العبر، ج6، 244.
[193] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100-101.

واقروا بنبوته، وشرع لهم الشرائع والديانات والعبادات والأحكام"[194]، على شاكلة ما كانت عليه الأمور ببلاد تامسنا منذ إمامة يونس بن إلياس. ولا تعوزنا التفاصيل الدالة على مدى نجاح حاميم في استهواء كافة فروع قبيلة مجكسة، ومعظم القبائل الضاربة بنواحي وادي راس ووادي لو، مثل بني شداد وبني سعيد وبني قطيطن وبني يروتن، إلى أقصى مواطن "مصمودة الساحل من أحواز طنجة"[195]. مصداق ذلك، ما شاع ذكره في المصادر التاريخية بالقول: "وأجابه بشر كثير من غمارة"[196]. كما تواتر الخبر ضمن كتب التاريخ، في إحصاء كثرة من "اجتمع إليه من غمارة"[197]، ووصف أعداد من "دخل في دينه، خلق كثير من غمارة"[198].

وليس مصادفة أن تشهد جبال قرطبة بالأندلس، خلال ذات العصر، وعلى مدى العقود الأربعة التي قضاها أبو الأنصار عبد الله بن يحمد في الحكم حركة مذهبية مماثلة. ويتعلق الأمر بمذهب محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح الجبلي. والجدير بالملاحظة أن "في نسبه غموض"[199]، على غرار كثير من أعلام الفكر والثقافة والفنون من أهل المغرب الذين حصل لهم تألق بالأندلس. ومع ذلك، فقد أمكننا الوقوف على رواية فريدة ترجح انتساب محمد بن مسرة في البربر وأن أباه عبد الله "مولى لرجل من البربر من فاس"[200]. وبالمثل، لم يكن مذهبه الفكري الذي بصم بعمق مجمل الحياة الفكرية بالأندلس أقل تعرضا للطمس، حتى غدا من الألغاز المستعصية على الفهم. ومن المعلوم أن الحركة المسرية بالأندلس، مثلها مثل حركة حاميم بغمارة، والمذهب

---

[194] العبر، ج6، 278.
[195] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 101.
[196] كتاب الاستبصار، 191.
[197] الاستقصا، ج1، 192.
[198] الأنيس المطرب، 98.
[199] المقتبس 5، 35.
[200] ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس (=علماء الأندلس)، القاهرة 1966، القسم الأول، 217.

البرغواطي بتامسنا، ظلت على مدار العصرين الوسيط والحديث إلى اليوم، مستعصية على الفهم.

وكما هو الشأن بغمارة، حيث أخذ حاميم مشعل دعوته عن أبيه أبي خلف من الله، فإن محمد بن مسرة (269ـ 319 هجرية) تلقى أسرار حركته أيضا على يد أبيه عبد الله، المتوفى سنة ست وثمانين ومائتين. ويفصح أحد الرواة في نص بالغ الأهمية عن لحظة انتقال أسرار المذهب من الأب إلى الإبن الذي أصبح بعد وفاته موكلا بمتابعة مهام الدعوة. ويتعلق الأمر بابن حارث الخشني، الذي نقل عن أحد ثقاته أن عبد الله بن مسرة قد رحل إلى المشرق "في آخر عمره رحلة ثانية، بعد أن كبر ابنه محمد وأخذ عنه وترك كتبه بيده"[201]. وقد أكد ابن الفرضي[202] أن "محمد بن عبد الله بن مسرة...سمع من أبيه" وتتلمذ عليه. ومن المفيد الانتباه إلى الأخبار السائرة في كتب التراجم، بأن "عبد الله كان متهما بالقدر"[203]. إلا أنه كان شديد الكتمان له، لا يسره إلا للثقاة من أصحابه. يتجلى ذلك من رواية محمد بن إبراهيم بن حيون الذي كان "يشهد على عبد الله بالقدر ويقول كان يخزن فيه"[204] ، أي يكتمه ولا يجهر به. ومن المعلوم أن صالح بن طريف، مؤسس المذهب البرغواطي وواضع أصوله ببلاد المغرب، كان ينسب إلى القدر أيضا، منذ تتلمذ على غيلان الدمشقي ببلاد الشام، كما سلف الذكر. لذا شاع على لسان الناس، نعته بـــ"القدري صالح بن طريف البرغواطي"[205]. ولا نستبعد أن يكون صاحب برغواطة أبي غفير يحمد بن معاد، وراء ظهور أبي خلف من الله بصفته داعية للمذهب بغمارة. وبالمثل، نميل إلى الاعتقاد بأن ذات الإمام البرغواطي أبو غفير يحمد بن معاد كان وراء

---

[201] المقتبس 5، 36.
[202] علماء الأندلس، ق2، 39.
[203] علماء الأندلس، 217.
[204] علماء الأندلس، 218.
[205] الروض المعطار، 435.

تنصيب عبد الله بن مسرة أيضا بصفته داعية لذات المذهب بالأندلس، وأن كليهما قد عهد لابنه: الأول لحاميم بغمارة والثاني لمحمد بن عبد الله بن مسرة بالأندلس.

ومما يجعلنا نميل إلى هذا الاعتقاد التوافق الشبه التام الذي خلصنا إليه من خلال مقارنة أصول المدرسة المسرية[206] بالمذهب البرغواطي. فعلى غرار قدرية واعتزالية المذهب البرغواطي، فمن المعروف أن محمد بن عبد الله بن مسرة كان "يقول بخلق القرآن"[207]. كما كان على غرار صالح بن طريف والأئمة البرغواطيين "يقول بالإستطاعة وإنفاذ الوعيد ويحرف التأويل في كثير من القرآن"[208]، حسب دعوى خصومه. كما جال بأقطار المغرب، وجلس بالقيروان في مجلس "أحمد بن نصر بن زياد، وكان عالما بالمناظرة وعنده جماعة من المناظرين في المسائل، حتى دخل عليه محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي، في حين توجهه إلى الحج"[209]. وعلى نهج صالح بن طريف الذي تتلمذ على عمرو بن عبيد وغيره من أقطاب المتكلمين، تردد محمد بن عبد الله بن مسرة بديار المشرق "مدة، فاشتغل بملاقاة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة"[210]. بلغ التوافق بين الاعتزال والمسرية أن غدا من المتعارف عليه

---

[206] ويعتبر كتاب المستشرق الإسباني آسين بلاثيوس أول عمل ضخم أنجز عن حركة ابن مسرة *Ibn Massarra y su escuela* ولم يتردد الدارسون العرب والإسبان وغيرهم بعدئذ عن تقليده والسير في ركاب ما صاغه عن انتماء حركة ابن مسرة في المدرسة الأفلاطونية الحديثة أنظر: آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، القاهرة، 1955، 326- 32. كما أنجز محمد الوزاد عملا جامعيا في الموضوع لا يخرج عموما عن الخطوط الفكرية المرسومة. وهي التصورات التي تناولناها بما تستحق من نقد ومراجعة، من خلال تحليل مضامين المصادر المغربية الأندلسية، خلصنا فيها إلى أن الأمر يتعلق بتركيب مذهبي يتجاوز كافة المذاهب الفكرية المعروفة في الإسلام، يجمع بين عقلانية الاعتزال البرهانية، وثورية التشيع، وشعبية التصوف، بهدف صياغة نسق فكري قادر على تأطيرسواد العامة المتدفقة في شكل بحر من السفلة والغوغاء بكبريات الحواضر وبالبوادي على السواء. أنظر: عامة قرطبة، 195- 198 وكذا "العامة والاتجاهات الفكرية بالأندلس" 45 - 54.

[207] المقتبس 5، 27.

[208] علماء الأندلس، ق2، 39.

[209] البيان المغرب، ج1، 194- 95.

[210] علماء الأندلس، ق2، 39.

لدى مؤرخي الفرق، كيف "كان محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح بالأندلس يوافق المعتزلة في القدر"[211].

مع ذلك، فقد بينا سلفا كيف نهل صالح بن طريف من معين أقطاب القدرية والمعتزلة والمتكلمين، دون أن يعمد إلى تقليدهم، بل التمس لنفسه مذهبا خاصا عرف به. وبالمثل، فقد كان محمد بن عبد الله بن مسرة من ذات طينة الإمام، إذ لم ينعت بكونه معتزليا، بل أصبح "معروفا بمذهب من الاعتزال"[212]. ينطبق نفس الشيء على موقفه من القدر والقدرية، إذ بعدما اغترف من معين الرواد الأوائل، أعاد صياغة أفكارهم ضمن أنساق جديدة. من ثم دقة العبارة التي وردت لدى بعض مؤرخي الفرق في إشارة لوجود تصور قائم بذاته عرف بـــ"مذهب ابن مسرة في القدر"[213]، بما ينم عن تجاوزه المألوف من الأفكار بهذا الخصوص. فمى عسى أن يكون مذهب ابن مسرة في القدر؟ وما عسى أن يكون مذهبه من الاعتزال؟

يمكن التماس الجواب على هذه الأسئلة من خلال النظر في بقية الأصول الفكرية التي استقر عليها البنيان المذهبي المنسوب لمحمد بن عبد الله بن مسرة. فعلى غرار ما سلف ذكره عن تنبؤ صالح بن طريف، وما تداولناه بخصوص غيره من الملوك والأئمة البرغواطيين الذين ادعوا النبوة، لم يسلم محمد بن عبد الله بن مسرة من ذات التهم. فقد ذكر ابن حزم أن "المسرية وكثير من موافقيه ينسبون إليه القول باكتساب النبوة، وان من بلغ الغاية من الصلاح وطهارة النفس أدرك النبوة، وانها ليست اختصاصا أصلا، وقد رأينا منهم من ينسب هذا القول إلى ابن مسرة"[214]. إنها نفس مؤثرات الروافض من الشيعة الإمامية الذين بصموا المذهب البرغواطي، قد صيغت من طرف الخصوم في

---

[211] الفصل في الملل، ج5، 65.
[212] المقتبس 5، 32.
[213] الفصل في الملل، ج4، 138.
[214] الفصل في الملل، ج5، 67.

عبارات توجب التكفير كما بينا سلفا. وليس أدل على مؤثرات التشيع الباطني في فكر ابن مسرة، مما ورد على لسان صاعد الأندلسي[215] إذ لم يتردد عن إدراجه ضمن "طائفة من الباطنية [منهم] محمد بن عبد الله بن مسرة الجبلي الباطني".

من الطبيعي والحالة هذه أن ينسب ابن مسرة إلى "القدح في السنة"[216]، ويتم إنزاله مثل البرغواطيين "منازل الملحدين"[217]. كما اتهم بكونه ممن آثر السير في ركاب "الفرق الخارجة والرافضة"[218]. ولم يتورع أتباعه في نظر الجمهور عن "القدح في الديانة"[219]، بما "ابتدعوه من مخالفة السنة والشذوذ عما عليه الجماعة"[220]. ولا تعوزنا القرائن الدالة عن شروع محمد ابن عبد الله بن مسرة في بث أصول دعوته منذ وفاة أبيه، وقد انتبذ لذلك بجبال قرطبة، مستخفيا عن الأنظار. ومن مخبئه الجبلي كان يشرف على شبكة واسعة من الأتباع في شكل حركة سرية بالغة الكتمان. مصداق ذلك، ما ورد في كتب التراجم عن "خروجه إلى المشرق في آخر أيام الأمير عبد الله [إذ] اتهم بالزندقة فخرج فارا"[221] بجلده. وبعدما استكمل تكوينه في طرق ومناهج الجدال وآداب المناظرة بقيروان إفريقية، وشحذ لسانه وقلمه بملاقاة كبار المتناظرين من أهل الكلام بالبصرة وغيرها من ديار المشرق، قفل راجعا إلى الأندلس. وانطلاقا من جبال قرطبة، استأنف الدعوة "صدر دولة الخليفة الناصر لدين الله"[222]، أي خلال نفس الفترة التي نشط فيها حاميم بجبال غمارة.

---

[215] طبقات الأمم، تحقيق حياة العيد بوعلوان، بيروت، 1985 73
[216] المقتبس 5، 20.
[217] نفح الطيب، ج3، 556.
[218] المقتبس، 5، 22.
[219] المقتبس 5، 27.
[220] المقتبس 5، 30.
[221] علماء الأندلس، ق2، 39.
[222] المقتبس 5، 20.

كما اشتهر محمد بن عبد الله بن مسرة بالجمع بين علوم الدين والدنيا، والاستبحار في كافة حقول المعرفة. فقد كان "كثير العلم بالأخبار، واسع الرواية للآثار، مفننا في المعرفة، فيلسوفا عليما وطبيبا، ومنجما فلكيا، وأديبا بارعا، وشاعرا مفلقا، وخطيبا مصقعا، منسوبا إلى المعرفة بحذق اللسان والحذق بالعربية والحفظ للغة"[223]. لذلك لم يتردد الناس عن الإقرار له بالسبق، والاعتراف ببلوغه "مبلغ الإمامة في العلم"[224]. ولم يكن مع ذلك ليغفل أمور الفقه والأحكام، إذ كان "يسرد مسائل مدونة المالكية عمدة السنة سرد القرآن، ويشققها بالاجتلاب بأوضح برهان، حتى يخرج فيها أجزاء مختصرة حسنة، لم يزل الاجماع من مخالفيه إلى اليوم واقعا، على أنها أفضل وأوجز وأبسط مختصرة صيغت فيها"[225]. تجدنا إذا أمام عالم من طراز صالح بن طريف البرغواطي، قد جمع مثله تماما بين علوم النجوم والفلك والحكمة والطبيعة، وبين علوم الشرائع والأديان والفقه والأحكام، وتحكم في علوم البلاغة واللسان. ناهيك عن قدرات فذة على إقناع العامة، وإفحام الخصوم من أخص الخاصة، "فبرسوخه في بسط العلم وتأنيه في الاستدراج للخصم، كان يستهوي العقول ويصيد الأفئدة"[226].

وتتضح المؤثرات الشيعية أيضا في أساليب الدعوة القائمة على التقية والتنظيم السري المحكم الحلقات في ربط الأتباع، بمقدمي ومشايخ المذهب، بالداعية محمد بن عبد الله بن مسرة، الذي يتكفل بربط كافة التنظيم بإمام العصر الذي نميل إلى اعتباره الإمام البرغواطي أبو الأنصار عبد الله، القائم بحاضرة شالة بالمغرب الأقصى. فمن مقر إقامته بضيعته ببعض قرى قرطبة، كان محمد بن عبد الله بن مسرة يشرف على نظام كامل للدعوة له فروع في

---

[223] المقتبس 5، 31.
[224] علماء الأندلس، 40.
[225] المقتبس 5، 21.
[226] المقتبس 5، 21.

كافة أقاليم وكور الأندلس، قد "اتخذ من راسخيهم في مذهبه دعاة وأئمة"[227]. وهو مع ذلك "لم يزل يستظهر عليهم بالمواثيق في الكتمان، إلا من الثقات الوثاق العقدة، فاكتتم بذلك شأنه"[228].

ومما يجعلنا أميل إلى الإقرار بأن حركة ابن مسرة تشكل امتدادا أندلسيا للمذهب البرغواطي، أخذها بالأصل الفكري الرابع الذي أضافه ثالث الائمة البرغواطيين إلياس بن صالح للأصول الثلاث الموروثة عن مؤسس المذهب صالح بن طريف. ويتعلق الأمر بالنسك والزهد والتصوف. فقد شاع الخبر عما كان لمحمد بن عبد الله بن مسرة من "تدقيق في غوامض إشارات الصوفية"[229]. وعلى غرار ما سلف ذكره عن ملوك برغواطة بمن فيهم أبو الأنصار عبد الله بن يحمد، فقد اشتهر ابن مسرة وأتباعه "بما أظهروه من التقشف في الزي والتشظف في المعيشة"[230]. كما أظهر أتباعه "نسكا وعبادة وصلاة وصياما"[231]، إلى ما عدا ذلك مما نسب لمحمد بن عبد الله بن مسرة "من نمط الصوفية"[232]. ومع ذلك فمن المفيد الانتباه إلى أنه على غرار قدرية واعتزالية وتشيع ابن مسرة المتميزة عن كافة ما عرف لدى هذه المدارس الفكرية، فقد ورد الخبر ان محمد بن عبد الله بن مسرة "كان على طريقة من الزهد والعبادة بسق فيها"[233] وتميز بها عما هو معروف عن كافة مدارس التصوف المعروفة.

واضح أننا أمام مذهب فكري مختلف عن كافة المذاهب التي أرخت لها كتب الفرق الإسلامية، يتضمن بصمات خارجية صفرية، وأفكارا قدرية اعتزالية، وأصولا شيعية إمامية، وأبعادا صوفية، قد ركبت جميعا في شكل

---

[227] المقتبس 5، 21.
[228] المقتبس 5، 21.
[229] بغية الملتمس، 76.
[230] المقتبس 5، 25.
[231] الفصل في الملل، ج4، 138.
[232] نفح الطيب، ج3، 556.
[233] جذوة المقتبس، القاهرة 1966، 63.

مذهب جديد. وهو بالذات ما لمسناه بتفصيل أثناء معاينتنا لنشوء المذهب البرغواطي على يد صالح بن طريف ببلاد تامسنا بالمغرب الأقصى، وتطور حلقاته لاحقا على يد غيره من الأئمة البرغواطيين. ونحن الآن بصدد معاينة ذات المذهب البرغواطي في نسخته الأندلسية المعروفة بمذهب محمد بن عبد الله بن مسرة.

ويبدو أن الشيء الوحيد الذي ميز الحركة المسرية، باعتبارها فرعا متشعبا عن الأصل البرغواطي يكمن في عدم احتياج اتباعها من الأندلسيين إلى الترجمة البربرية الأمازيغية للقرآن الكريم. كما أن الدعوة المسرية لم تعتمد اللسان المغربي الأمازيغي في الكتابة والتأليف، ولا في أمور الدعوة، بل اعتمدت اللسان العربي الفصيح. لعل في هذه التحاليل ما يدعو المؤرخين ومؤرخي الفكر المغربي الأندلسي على وجه الخصوص، إلى مراجعة دفاترهم المتداولة، وإعادة النظر في هذه المسألة. وفي تقديرنا أن الوقت قد حان لترميم الخرم الواسعة مما تمزق من حلقات تاريخ الفكر والعلوم بالمغرب والأندلس. نبراسنا في ذلك ما يلوح من ضياء بواسطة مداومة الاجتهاد، مما قد يستحث الهمم لنبذ كسل التقليد، ويدعونا جميعا إلى التشمير عن مكامن الذات، لإعادة مد الجسور المنكسرة بين القرون الأربع الهجرية الأولى والعصور المتأخرة من تاريخ المغرب.

ونستشف من خلال القراءة بين السطور، أن ثمة حرب مستترة وتنافس غير معلن على الزعامة بين المرجعيتين: البرغواطية ممثلة في إمامة أبي الأنصار عبد الله بن يحمد بشالة (299ــ341 هجرية) والسنية المالكية ممثلة في عبد الرحمن الناصر لدين الله الأموي بقرطبة (300ــ 350 هجرية). ويبدو أن إقدام أمير الأندلس عبد الرحمن بن محمد على إرسال سرية عسكرية من

قرطبة إلى قصر مصمودة بساحل المغرب، للإجهاز على حركة حاميم ومباغتة قادتها وقطع رؤوسهم، تمثل رسالة موجهة إلى الإمام البرغواطي القائم بشالة.

فقد تواتر الخبر بـــ"قتل حاميم المفتري بمصمودة الساحل من أحواز طنجة سنة خمس عشرة وثلاث مائة"[234]. وهو ما فصله البعض بالقول: "وجهز الناصر المرواني من قرطبة عسكرا، فالتقت معه بأحواز طنجة سنة 315، فهزم وقتل لعنه الله وحمل رأسه إلى قرطبة"[235]. ويتعلق الأمر في تقديرنا بفرقة عسكرية متربصة بالضفة الأندلسية، قد راقبت تحركات حاميم ببلاد غمارة، فلما نزل بقصر مصمودة باغته جند "الناصر ملك الأندلس فقبض عليه وقتل وصلب بقصر مصمودة"[236]. وهو ما اعتبر في حينه انتصارا للسنة والجماعة على مذاهب الكفر والزندقة. ومن المفيد التذكير بأن عبد الرحمن بن محمد كان حينئذ منشغلا أشد الانشغال بترتيب أموره، ووضع اللمسات الأخيرة التي تكللت بإعلان الخلافة الأموية بقرطبة سنة 316 هجرية، متخذا لقبه السلطاني أمير المؤمنين الناصر لدين الله.

وبدلا عن الحرب المفتوحة بين الشرعيتين الخلافيتين السنية بقرطبة والبرغواطية بشالة، يبدو أن كلاهما قد آثر التنافس المضمر. فبقدرما تحركت أداة الدعوة البرغواطية ممثلة في الحركة المسرية التي بلغت من الانتشار بكافة شبه الجزيرة الأندلسية، أن "ذعر لها أهل السنة من أهل قرطبة وتوقعوا منه البلية "[237] ، مال عبد الرحمن الناصر لاصطناع وممالئة القبائل المهمشة بالمغرب الأقصى وتجييشها للضرب في عمق المغرب الأقصى. وقد كان شيخ قبائل مكناسة موسى بن أبي العافية بمثابة الجواد المناسب الذي ركبته خلافة قرطبة الأموية، وتمكنت بفضله من خلخلة مجمل النظم السياسية القائمة بالعدوة

---

[234] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 101؛ البيان المغرب، ج1، 192.
[235] كتاب الاستبصار، 192.
[236] الأنيس المطرب، 99.
[237] المقتبس 5، 22.

المغربية. إلا أن التهديد الذي شكلته الخلافة الفاطمية المعلنة بإفريقية لمزاعم كلا الشرعيتين، واندفاعها بالجحافل العسكرية للسيطرة على المغرب الأقصى، واستخدام رموزها من فلول الأدارسة لمواجهة الأمويين، وتقزيم البرغواطيين، قد ألزمت قرطبة وشالة على تدبير خلافهما في شكل نوع من التنافس الحذر.

وما أن زالت أسباب الحذر، حتى فتح عبد الرحمن الناصر حربا لا هوادة عليها ضد الحركة المسرية بالأندلس، فيما عرف في حوليات العصر "بحماية السنة وإنكار البدعة"[238]. ولعل في هذا التحليل ما يفسر سبب تأخر عبد الرحمن الناصر على قوته وجبروته في شن هذه الحرب إلى "يوم الجمعة لتسع خلون من ذي الحجة سنة أربعين وثلاث مائة"[239]، حسبما ضبطه الرازي في تاريخه. ويكشف الإخباريون عن تفاصيل المحنة العظيمة التي نالت أتباع ابن مسرة ابتداء من هذا التاريخ. كما أفصحت عما تعرضت له "كتب ابن مسرة في أيام الخلافة "[240] من حظر وإتلاف، و"تتبعت مصنفاته بالحرق واتسع في استباحتها الخرق وغدت مهجورة على التالين محجورة"[241]. ونظرا لاستمرار الترصد والمتابعة والتنكيل، وأخذ أتباع ابن مسرة بالظن واستباحة الدماء بالقتل والصلب والتمثيل، سرعان ما غدا الحصول على "مجلد من تأليف ابن مسرة الجبلي "[242] من الأمور النادرة. مما يفسر عمق البتر وحجم الإتلاف الذي تعرض له هذا الصنف من الفكر المغربي الأندلسي، الذي آلت حلقاته إلى الضياع في غياهب النسيان، ابتداء من هذا التاريخ وعلى مدار القرون اللاحقة.

ومع اختلال التوازن السياسي والاقتصادي والدبلوماسي لصالح قرطبة، التي غدت منذ هذا التاريخ محور الفعل الحضاري بالغرب الإسلامي، مالت

---

[238] المقتبس 5، 20.
[239] المقتبس 5، 24.
[240] ابن الحاج، كتاب النوازل، مخطوط المكتبة العامة بالرباط، ج 55، 291.
[241] نفح الطيب، ج3، 557.
[242] مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، 1979، 80.

إمامة برغواطة إلى مهادنة قرطبة في إطار تغليب المنافع المشتركة التي يدرها نظام التثمير التعاقدي[243] على الجميع، باستلهام سياسة التحالف الراسخة عبر القرون الماضية بين المملكتين. يتجلى ذلك من خلال وصية الملك البرغواطي أبي الأنصار عبد الله بن يحمد لولده وولي عهده أبي منصور عيسى "قبل موته، موالاة صاحب الأندلس، وكذلك يوصي جميعهم المرشح للملك بعده"[244]. مما يفصح عن عمق التكامل والتعاون والتحالف المتجذر الأصول في تاريخ العدوتين المغربية الأندلسية، رغم اتساع هوة الاختلاف المذهبي. ولعل في تعدد المخاطر المحدقة بالمملكة البرغواطية بالمغرب الأقصى حول ذات التاريخ، ما حذا بها إلى تمتين علاقات التعاون وحسن الجوار إلى حد التحالف مع الخلافة الأموية بالأندلس. فبصرف النظر عن عداء الفاطميين من الشيعة الإسماعيلية، وفلول الأدارسة من الشيعة الزيدية لكليهما، لم تكن دولة بني مدرار من الخوارج الصفرية بسجلماسة، التي مالت خلال هذه الفترة نحو المذهب السني أقل عداء للمملكة البرغواطية. وهو ما أشار إليه ابن حوقل الذي زار سجلماسة حول ذات التاريخ، بالقول: "وكنت ألفيت محمد بن الفتح المعروف بالشاكر لله بسجلماسة يدعو إلى غزوهم في سنة أربعين وثلاثمائة"[245]. وبعد وفاة أبي الأنصار عبد الله سنة 341 هجرية "دفن بأمسلاخت وبها قبره"[246]. والجدير بالذكر ان مدن أمسلاخت وشالة وتيمغسن تعتبر من الحواضر البرغواطية العظيمة التي ما زالت بحاجة إلى تظافر جهود المؤرخين والأثريين لكشف أثارها وتحديد مواقعها والنبش عن بصماتها.

---

[243] عن خصائص هذا النظام وحيثيات ظهوره وتطوره بالمغرب الأقصى والأندلس راجع: أحمد الطاهري، الفلاحة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد: من نظام التثمير التعاقدي إلى نمط الإنزال الإقطاعي، (=الفلاحة والعمران القروي) مركز إسكندرية للكتاب، إسكندرية 2004.

[244] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.

[245] صورة الأرض، 83.

[246] العبر، ج6، 278. ويبدو ان اسم مدينة أمسلاخت مركب من /أمسا/ التي بينا سلفا أصلها اللغوي ومعناها في اللسان الأمازيغي، و/لاخت/ وهو نوع من اللبن التراب الذي يشيد به البنيان. ولا يستبعد أن يكون إسم هذه المدينة البرغواطية يحيل على المدينة المتخذة من التراب على مشارف الماء: بحر أو بحيرة.

3ـ عيسى بن عبد الله أبو منصور سابع الأئمة (341ـ368)

وبعد وفاة أبي الأنصار عبد لله، تولى مقاليد حكم مملكة بني طريف البرغواطية ابنه "عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غفير يحمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف"[247]. وقد تربع على حكم البلاد شابا يافعا، واتخذ من الألقاب السلطانية لقب أبي منصور وهو "ابن اثنتين وعشرين سنة، وذلك سنة إحدى وأربعين وثلاث مائة، فسار سيرة أبيه ودان بديانتهم"[248]، أي ظل مستمسكا بالمذهب البرغواطي. وفي عهده تم ترسيخ أسس التحالف الاستراتيجي والتوافق المذهبي بين المغرب والأندلس، وتنسيق الجهود بينهما في مواجهة الخطر الاسماعيلي المتردد في موجات متعاقبة على المغرب الأقصى، معضودا من طرف أذنابه من فلول الأدارسة، والمندس أيضا في شكل حركات متربصة بالنظام الأموي في الأندلس.

وقد تواترت الأخبار في كتب التاريخ عن هذه السفارة البرغواطية التي أوفدها "ملك برغواطة أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار" إلى الخليفة الأموي الحكم المستنصر، الذي أحب العلم والعلماء والحكمة والحكماء، ولم يذخر وسعا في تقريبهم وفسح المجال واسعا لحرية التفكير والتعبير، بما لم يتحقق إلى اليوم في حضارة الغرب المعاصرة لدى أكثر البلدان حرية. وقد حلت السفارة البرغواطية بقرطبة في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلاث مائة، يترأسها صاحب الصلاة "أبو صالح زمور بن موسى بن هشام بن وارديزن البرغواطي"[249]، المشرف على خطة الإمامة بالجامع البرغواطي الأعظم بشالة. ولا يخالجنا شك في المكانة التي حظيت بها القضايا الفكرية والمذهبية ضمن

---

[247] البيان المغرب، ج1 225.

[248] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.

[249] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 134.

جدول أعمال سفارة أبي صالح زمور، إذ "سأله الحكم عن أنساب برغواطة ومذاهبهم فأخبره"[250]. ومن المعلوم أن الخليفة الحكم المستنصر قد فسح المجال واسعا أمام القدرية والمعتزلة وغيرهم من أصحاب المذاهب لتولي خطط الدولة، مع استمساكه بمذهب أهل السنة والجماعة ورسوخ العمل بمذهب مالك إمام المدينة. لم يكن ذلك ليمنع من تداول "كتب الدهرية والفلاسفة"[251].

ويخيل إلينا أن السفارة البرغواطية قد كان لها أبلغ الأثر في تداول المصنفات البرغواطية بالأندلس، وعودة حركة ابن مسرة وجمهور القائلين بالقدر المنتسبين للحكمة والفلسفة والتنجيم إلى الفعل من جديد في الحقل الثقافي بكل حرية. وبالمقابل، لا يستبعد أن يكون صاحب برغواطة قد اقتنع بإيعاز من الخليفة الحكم المستنصر إلى الاعتدال المذهبي والسماح للقبائل المغربية المنضوية تحت حكمه بالانفتاح على أهل السنة والجماعة. نستشف ذلك من قول ابن عذاري[252] متحدثا عن قرآن برغواطة "ولم يزل كثير من القبائل على مذهبهم إلى عام 352" هجرية، وهي بالذات السنة التي انعقدت فيها البعثات الدبلوماسية بين الطرفين. إنها أجزاء مخرومة من حلقة فكرية مغمورة لم نتوقف طوال العقدين الماضيين[253] إلى شد انتباه الباحثين إلى أهميتها القصوى في فهم تاريخ الفكر والعلوم بالمغرب. لكن يبدو أن انشداد أنظار الباحثين من أهلنا المبهورين إلى حد العمي بسحر الغرب، المأخوذين بارتياح التقليد، المتأهبين لاستهلاك وترويج الأنساق الجاهزة، ما زالت تحت وقع تخدير قرون الظلام المتأخرة.

---

[250] البيان المغرب، ج2، 234.

[251] البيان المغرب، ج2، 292- 93.

[252] البيان المغرب، ج1، 227.

[253] وهي الخصائص الفكرية والمعطيات الثقافية التي لم نتوقف عن إبراز معالمها ضمن جملة من الدراسات. انظر على سبيل المثال: أحمد الطاهري، الطب والفلاحة بالأندلس بين الحكمة والتجريب، البيضاء 1997.

ومن المفيد الانتباه إلى أن السفير صالح بن زمور، رغم كونه صاحب صلاة برغواطة فقد اضطر إلى الاستعانة في محادثاته مع الخليفة بـــ "مترجم عنه بجميع ما أخبر به قدم معه، وهو أبو موسى عيسى بن داود بن عشرين المسطاسي من أهل شلة مسلم من بيت خيرون بن خير"[254]. لعل في هذه التفاصيل ما يؤكد استمرار البرغواطيين في أداء صلواتهم باللسان الأمازيغي وفق النسخة البربرية من القرآن التي ترجمها صالح بن طريف عن الأصل المنزل. ولعل في إقدام راوي الخبر على نعت المترجم عن السفير البرغواطي دون غيره بكونه مسلم، ما يدل على أن المقصود بالإسلام في هذا السياق إتقانه لسان العرب ليس إلا. واضح أن المملكة البرغواطية قد ظلت، منذ تأسيسها من طرف أب ملوكها خلال بدايات القرن الثاني الهجري إلى أن اندثرت خلال القرن الخامس الهجري، أمازيغية اللسان ولم تتحول عنه إلى اللسان العربي.

وفي عهد سابع ملوك بني طريف البرغواطيين بلغ المغرب الأقصى درجة عالية من القوة والمهابة، واتسع نفوذ المملكة وترسخت مكانتها بين الأمم، بفضل جهود الملوك السابقين وحكمة أبي منصور عيسى الذي "اشتد أمره وعلا سلطانه ودانت له قبائل المغرب"[255]. كما عم الرخاء والأمن والسلام كافة ربوع البلاد، ومال عامة أهل المغرب إلى التدين ونبذ المعاصي واكتساب الأخلاق الفاضلة، نتيجة لما اندرجت عليه "برغواطة [من] أمانة وبذل للطعام وتجنب للكبائر من الحرام والمحظورات من الآثام"[256]. كما نال البرغواطيون العلا بفضل ما شرعوه من أحكام، إذ كان "يقتل السارق بالإقرار والبينة ويرجم في الزناء عندهم وينفى الكاذب ويسمونه المغير"[257].

---

[254] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.
[255] العبر، ج6، 278.
[256] صورة الأرض، 83.
[257] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 139.

ولربما في الإرجاف بغيبة الإمام المؤسس للمذهب صالح بن طريف بعض الأثر في رسوخ التقوى في أوساط العامة. فقد سلفت الإشارة لمن "زعم أنه يعود إليهم في دولة السابع من ملوكهم، وزعم أنه هو المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال، وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا"[258]. وهي الوصية التي عاد الملك السادس في سلسلة ملوك بني طريف أبو الأنصار عبد الله لتذكير ولي عهده أبو منصور عيسى بتفاصيلها قبل وفاته، قائلا له :"يا بني أنت سابع الأمراء من أهل بيتك، وأرجو أن يأتيك صالح بن طريف"[259]. وقد أكد الفقيه القرطبي ابن حزم عودة تداول هذا الزعم من جديد بعموم بلاد المغرب والأندلس بعد حوالي قرنين من إشاعته، إذ قال:"وكفار برغواطة إلى اليوم ينتظرون صالح بن طريف الذي شرع لهم دينهم"[260].

وقد ظلت أحوال المغرب الأقصى في غاية الرخاء مع شيوع الطمأنينة والسكون في ظل التناسق الذي ظل قائما بين مملكة بني طريف المصمودية بشالة، ومملكة بني صالح النفزية بنكور، ومملكة بني مدرار المكناسية بسجلماسة، إلى أن اختلت الأمور على إثر الانقلاب العسكري العامري بقرطبة الذي اغتصب الشرعية الخلافية وجر مجمل الغرب الإسلامي إلى نفق الاستبداد وتعطيل الشرائع والأحكام. تجلى ذلك في فصل أول، من خلال دبيب الصراع بين أذناب الخلافة الفاطمية من بربر صنهاجة وأذناب الخلافة الأموية من قبائل زناتة وفلول الأدارسة، وذلك بمجرد وفاة الخليفة العالم الحكم المستنصر سنة 366 هجرية.

---

[258] البيان المغرب، ج1، 224.
[259] العبر، ج6، 278.
[260] الفصل في الملل، ج5، 38.

وقد بينا في دراسات سابقة[261] دور الطاغية المنصور بن أبي عامر، الذي تفانى منذ توليه منصب المخابرات العسكرية بالمغرب الأقصى إلى أن نفذ أحد أعمق الانقلابات العسكرية في تاريخ الإسلام بإرساء الدكتاتورية العامرية، في تفكيك التوازن القبلي بالمغرب الأقصى. تم له ذلك بواسطة تجييش القبائل البدوية الضاربة في أحواز المغرب الأوسط والأدنى، التي ظلت طوال قرون عز العطاء الحضاري على هامش مراكز الفعل الثقافي والسياسي. ولم يكن المنصور بن أبي عامر أقل شراسة في إسكات صوت الحكمة وتتبع أقطاب العلماء والمفكرين بأصناف من التنكيل ومصادرة الرأي والإطباق في السجن وقطع الألسن والتمثيل. ولم يسلم أتباع بن مسرة وغيرهم من أهل المذاهب، من سيفه الذي حصد رؤوسهم، ومن عيونه وآذانه التي دبت في كافة أنحاء الأندلس والمغرب دبيب المرد، تحصي على الناس أنفاسهم، وتسري في المجالس ملتقطة أدق تفاصيل حياتهم، في نظام بوليسي قل نظيره في التاريخ. وقد فصلنا في أكثر من مناسبة دور الحجابة العامرية في بتر قسم من الفكر المغربي الأندلسي بترا يكاد يكون تاما، كما بينا دوره في نخر نظام الجماعة والتمهيد لانغماس الأندلس في دروب الفرقة. ولم نكن قد انتبهنا بعد إلى أن دوره على المستويين قد شمل بلاد المغرب الأقصى أيضا.

فبتجييش المنصور بن أبي عامر لقبائل زناته من بني يفرن ومغراوة في مواجهة بني بلكين وغيرهم من البطون الصنهاجية، انفتحت أبواب الفتنة القبلية بالمغرب الأقصى، وانفرطت السخائم العصبية، تغذيها الأحقاد الفاطمية من مقر حاضرتها الجديد بالقاهرة، وقوى الردة العامرية المتربصة في منازلها القائمة بمدينة الزاهرة. وهو ما أشارت إليه المصادر التاريخية في عبارة

---

[261] A.Tahiri, “El Magreb al-aqsa en la segunda mitad del siglo X. La intervención de Muhammad b. Abi Amir”, in *Al-Andalus y el Mediterraneo en torno al año Mil. La época de Almanzor*, Colección Historia 3, Algeciras, 2003, pp. 171-78.

مقتضبة داله بالقول "وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب ... وكان ذلك لأول حجابة المنصور بن أبي عامر"[262]. وفي حملة مضادة واسعة النطاق، تمكن أبو الفتوح يوسف بن زيري الصنهاجي ابتداء من سنة سبع وستين وثلاثمائة، من اختراق القبائل المشايعة للمنصور بن أبي عامر، "وفرت أمامه زناتة فملك فاس وسجلماسة وأرض الهبط، وطرد منها عمال بني أمية"[263]، الذين انسحبوا من مناطق نفوذهم وتحصنوا بمدينة سبتة، حيث تربصوا في انتظار وصول إمدادات ولي نعمتهم المنصور بن أبي عامر. وكانت هذه فرصة مناسبة للإجهاز على مملكة بني طريف البرغواطية، التي ظلت منفردة في ساحة المعركة. وهو ما أشار إليه ابن خلدون بالقول: "ثم انفتح له باب جهاد برغواطة، فارتحل إليهم وشغل بجهادهم وقتل ملكهم عيسى بن أبي الأنصار"[264].

فمع تواتر الأخبار بسقوط ممالك المغرب الأقصى واحدة تلو الأخرى أمام حملات الزيريين الكاسحة، تم الارجاف باقتراب الغزاة من بلاد تامسنا تحت قيادة أبي الفتوح يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي. وبرغم ما كان لها من بريق في أبعد الآفاق، لم يتردد عن "هدم مدينة البصرة ومحا رسمها بعد طول مدتها وكثرة عمارتها...فصارت كأن لن تغن بالأمس، فلم تكن بصرة بالمغرب إلى الآن ودثر رسمها وكانت قديمة أزلية"[265]. فما كان إلا أن تأهب ملك برغواطة لصد قوى الهدم والخراب عن مملكته. والراجح أن المعارك بين الطرفين قد دارت رحاها في مكان ما بين شالة والبصرة حيث "لقيه أبو منصور

---

[262] العبر، ج6، 174.
[263] العبر، ج6، 207.
[264] العبر، ج6، 207.
[265] البيان المغرب، ج1، 231-32.

عيسى بن أبي الأنصار في قومه وكانت عليه الهزيمة، وقتل أبو منصور"[266] في ساحة المعركة، سنة ثمان وستين وثلاثمائة.

رابعا: اختلال وسقوط المملكة البرغواطية

1- صالح بن عيسى واختلال المملكة (368-372)

يبدو أن ابن الخطيب قد أخطأ في اعتقاده بأن "آخر ملوك برغواطة، عيسى بن أبي الأنصار"[267]. وهو نفس ما يفهم من كلام ابن خلدون[268] الذي أقر بأنه "لم يقف على من ملك أمرهم بعد أبي منصور". وقد سلم بذلك جمهور الدارسين[269] ممن روجوا لاستحالة استكمال سلسلة ملوك برغواطة، بعد هذا التاريخ. بينما اضطربت بعض الروايات مقدمة أسماء ملوك برغواطين لا تستقيم لهم وضعية ضمن سلسلة نسب ملوك بني طريف. نذكر منهم "أبو جعفر حفص"[270] بن أبي غفير الذي ولي حسب زعم صاحب الاستبصار بعد وفاة أبيع أبو غفير سنة 230 هجرية. وهي الرواية التي رددها ابن الخطيب الذي ذكر أنه عند وفاة أبي غفير "ولي بعده أبو حفص عمر بن معاذ البرغواطي"[271]. كما يزعم في رواية لا تقل اضطرابا أن خلفه هو "اليسع بن إسماعيل".

ونظرا لنقله دون تثبت من مصادر متداخلة وقع في سهو مماثل بخصوص اليسع ابن عمر بن معاد، مع إثبات "أمر اليسع إلى سنة إثنتين وخمسين وأربعمائة، وظهر أمر اللمتونيين"[272]. إلى ما عدا ذلك من المزاعم

---

[266] العبر، ج6، 279.
[267] أعمال الأعلام، 187.
[268] العبر، ج6، 279.
[269] وقد نبه الدكتور محمود إسماعيل على خطأ هذا التقدير موجها البحث في الفصول المتبقية من تاريخ أمراء برغواطة عبر تتبع علاقاتهم الخارجية. انظر: مغربيات، 30-31.
[270] كتاب الاستبصار، 198.
[271] أعمال الأعلام، 186.
[272] أعمال الأعلام، 187.

التي تنم عن درجات الخلط والاضطراب الذي في الروايات المتعلقة بهذه الفترة الغامضة من تاريخ برغواطة.

ونميل إلى الاعتقاد أنه على إثر سقوط سابع ملوك برغواطة صريعا في ساحة الوغى، اجتمع البرغواطيون ـ والحرب سجال ـ على توليه ابنه "صالح بن عيسى بن أبي الأنصار"[273] الذي أسعفنا الحظ في الوقوف على اسمه مثبتا في نص تاريخي فريد. كما وقفنا على بعض خصاله وعلى ما يثبت السير على نهج سلفه في الأخذ بالمذهب البرغواطي، إذ "كان فصيحا شاعرا فأطاعوه حتى جعلوه نبيا"[274]. لا غرابة في ذلك، ما دمنا على علم بما سلف ذكره عن حقيقة التنبؤ لدى برغواطة كما لدى الشيعة الإمامية. ويخيل إلينا أن سابع الملوك أبو منصور عيسى، قد تعمد تسمية ولده وولي عهده باسم جده صالح بن طريف، حتى تستقيم الصورة الشائعة لدى أتباع المذهب البرغواطي، برجعة الإمام صالح في دولة السابع من ملوكهم.

ومهما يكن من أمر، فقد ظلت نار الحرب مستعرة في طول البلاد وعرضها، على مدار خمس سنين من السبي والقتل، وسيف الزيريين "يردد الغزو فيهم إلى سنة إثنتين وسبعين وثلاثمائة"[275]. وقد أشارت المصادر التاريخية إلى هول الموقف واستعار نار المعارك التي لم تتوقف طوال السنوات الخمس عن حصد المزيد من الأرواح "فكانت بينهم حروب لم يجر قبلها مثلها كان الظفر فيها لأبي الفتوح وقتل الله الكافر ابن عيسى وانهزمت عساكر برغواطة فقتلوا قتلا ذريعا وسبي نسائهم وذراريهم مما لا يحصى عددهم ...وملك أبو الفتوح بلاد الغرب"[276] بما يفصح عن انقطاع مملكة بني طريف خلال هذه السنة المؤرخة 372 هجرية.

---

[273] البيان المغرب، ج1، 237.
[274] البيان المغرب، ج1، 237.
[275] العبر، ج6، 279.
[276] البيان المغرب، ج1، 237.

هكذا لم يدم أمر الملك البرغواطي الثامن صالح بن عيسى أكثر من أربعة سنين أمضاها في محاربة أذناب الشيعة الفاطميين المتربصين بالمغرب الأقصى، انطلاقا من مقامهم بإفريقية والقاهرة. وتؤرخ الحوليات التاريخية بدءا من "سنة 371 دخول سبي البرغواطيين إلى المنصورية يوم السبت لثمان خلون من ربيع الأول فرأى أهل إفريقية من السبي ما لم يره أحد منهم لكثرته وطيف بهم في المنصورية والقيروان"[277].

2- بقايا المملكة البرغواطية إلى حين سقوطها سنة 452.

وما أن تنفس البرغواطيون الصعداء بانحسار نفوذ الشيعة الفاطميين المتردد الموجات بفضل أذنابهم من قبائل صنهاجة الزيرية انطلاقا من المغرب الأوسط وإفريقية، حتى وقعوا تحت سطوة قبائل مغراوة وبني يفرن الزناتية، وقد تملك عليهم زيري بن عطية الذي "انبسط سلطانه من السوس الأقصى إلى الزاب، وكتب بالفتح إلى المنصور بن أبي عامر"[278] سنة 381 هجرية. ولما دب التنافس بين زيري بن عطية والمنصور بن أبي عامر، حرك هذا الأخير السخائم العصبية مستجيشا قبائل غمارة المصمودية، وصنهاجة البرنسية، وغيرهما من البطون المناهضة لحليفه بالأمس زيري بن عطية، وجحافل قبائله من بني يفرن ومغراوة. فما كان إلا أن اندلعت المواجهات بين المعسكرين، وقد استغل المنصور بن أبي عامر اختلال التوازن القبلي بالمغرب الأقصى، فمال بجحافله المتدفقة من الأندلس على بلاد تامسنا.

وتشير المصادر التاريخية إلى تمكين المنصور بن أبي عامر لقائد جيوشه "واضحا إمرة برغواطة هؤلاء فيمن قبله من الأجناد وأمراء النواحي

---

[277] البيان المغرب، ج 1، 238.
[278] الأنيس المطرب، 103.

وأهل الولاية، فعظم الأثر فيهم بالقتل والسبي"[279]. وقد لخص أحد المؤرخين اجتماع السيوف على محاربة مملكة بني طريف البرغواطية، وحصد قبائل تامسنا المصمودية، على مدار ما ينيف عن قرنين من الزمن، منذ قيام دولة الأدارسة إلى أفول نجم الخلافتين الأموية بالأندلس والفاطمية بإفريقية ومصر، بالقول: "وكان لملوك العدوتين في غزو برغواطة هؤلاء وجهادهم أثناء هذا وبعد أثار عظيمة من الأدارسة والأموية والشيعة"[280].

وقد ظلت الفتنة تحصد رؤوس البرغواطيين، وغارات الممالك المخالفة تقفر مدائنهم وتحرق قراهم ومداشرهم، وتسبي نسائهم وذراريهم طوال هذه الفترة المضطربة، إلى أن تمكن بنو يفرن الزناتيون من التحكم مرارا في مملكة فاس الطائفية، والانفراد بعدئذ بإقامة مملكة طائفية ببلاد تامسنا. وسواء بالأندلس أو بالمغرب الأقصى، تجدنا إذا أمام نفس ظاهرة استفحال الطوائف التي مزقت أوصال العدوتين، على إثر اختلال نظام الجماعة بقرطبة[281] في فسيفساء من الممالك التي جرت البلاد والعباد في دروب الفتنة ومتاهات الفرقة.

وبما أن "تميم اليفرني كان رجلا مصمما في دينه الغالب عليه الجهل، [فقد] كان مولعا بجهاد برغواطة، كان يغزوهم في كل سنة مرتين فيقتل ويسبي"[282]. وبعد تغلب المغراويين على فاس "فر عنها تميم اليفرني إلى مدينة شالة"[283]. وبعدما استقر ملك بني يفرن الطائفي بسلا والنواحي، وأصبح أميرهم "موطنا بمدينة سلا ومجاورا لبرغواطة، فكان لهم أثر كبير في جهادهم وذلك في سني عشرين وأربعمائة، فغلبهم على تامسنا وولى عليها من قبله بعد أن

---

[279] العبر، ج6، 279.
[280] العبر، ج6، 278.
[281] لمزيد من التفصيل بهذا الخصوص، راجع: عامة قرطبة، 213- 42؛ الفلاحة والعمران القروي، 43- 66.
[282] الأنيس المطرب، 110.
[283] الأنيس المطرب، 110.

أثخن فيهم سبيا وقتلا"[284]. هكذا ما لبثت مملكة بني طريف البرغواطية أن تهاوت تحت وقع ضربات بني يفرن الزناتيين، الذين تمكنوا من إسقاط المملكة البرغواطية التي تحولت إثر ذلك إلى إمامة الدفاع. فما كان على بني يفرن الزناتيون إلا أن أقاموا مملكة طائفية بديلة ببلاد تامسنا. وهي الأحداث التي لخصها أحد الرواة بالقول:"قام فيهم الأمير تميم اليفرني وذلك بعد عشرين وأربعمائة من الهجرة، فغلبهم على بلادهم وسباهم، وجلا من بقي منهم، واستوطن ديارهم وانقطع أمرهم وعفا آثارهم، ولم يبق لضلالتهم باقية، ولا من أواصر كفرهم آصرة"[285].

تجدنا إذا أمام إحدى اكبر حملات الابادة الجماعية التي نظمتها قبائل بني يفرن الزناتية ضد قبائل تامسنا المصمودية. وفي ذلك ما يكشف عن أول اختلال قبلي تم على أوسع نطاق بقلب المغرب الأقصى.

وعلى عكس ما يفهم من النص السالف، ظل المذهب البرغواطي نافقا في مجمل ما تبقى من بطون قبائل تامسنا طوال الفترة المذكورة. كما ظل علم المملكة مرفوعا، وإن في إطار إمامة الدفاع. وأثناء ذلك، لم يقف البرغواطيون مكتوفي الأيدي يجترعون كأس الردى في مواطنهم ببلاد تامسنا، بل سارعوا إلى استنفار قواعدهم المذهبية ببلاد غمارة، بل وكذا في عمق الأندلس. وقد تمكنا في دراسة سابقة من إثارة انتباه الدارسين إلى جملة من المؤثرات المذهبية ذات الطبيعة الغامضة التي بصمت إحدى أكبر وأعمق وأطول ثورة اجتماعية بالوسط الحضري في تاريخ الغرب الإسلامي. ويتعلق الأمر بثورة عامة قرطبة التي أفردنا لها في حينه بحثا مستقلا[286].

---

[284] العبر، ج6، 279.

[285] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 141.

[286] عامة قرطبة، 213- 42. وعن المكونات الإثنية والطبقية لعامة قرطبة ولطبقة العامة بالأندلس خلال الفترة الانتقالية بالغرب الإسلامي من نظام الجماعة إلى عصر الفرقة أنظر دراستنا: A. Tahiri, *Las clases populares en al-Andalus*, Editorial Sarria, Málaga, 2003, pp. 15-77

أثخن فيهم سبيا وقتلا"[284]. هكذا ما لبثت مملكة بني طريف البرغواطية أن تهاوت تحت وقع ضربات بني يفرن الزناتيين، الذين تمكنوا من إسقاط المملكة البرغواطية التي تحولت إثر ذلك إلى إمامة الدفاع. فما كان على بني يفرن الزناتيون إلا أن أقاموا مملكة طائفية بديلة ببلاد تامسنا. وهي الأحداث التي لخصها أحد الرواة بالقول:"قام فيهم الأمير تميم اليفرني وذلك بعد عشرين وأربعمائة من الهجرة، فغلبهم على بلادهم وسباهم، وجلا من بقي منهم، واستوطن ديارهم وانقطع أمرهم وعفا آثارهم، ولم يبق لضلالتهم باقية، ولا من أواصر كفرهم آصرة"[285].

تجدنا إذا أمام إحدى اكبر حملات الابادة الجماعية التي نظمتها قبائل بني يفرن الزناتية ضد قبائل تامسنا المصمودية. وفي ذلك ما يكشف عن أول اختلال قبلي تم على أوسع نطاق بقلب المغرب الأقصى.

وعلى عكس ما يفهم من النص السالف، ظل المذهب البرغواطي نافقا في مجمل ما تبقى من بطون قبائل تامسنا طوال الفترة المذكورة. كما ظل علم المملكة مرفوعا، وإن في إطار إمامة الدفاع. وأثناء ذلك، لم يقف البرغواطيون مكتوفي الأيدي يجترعون كأس الردى في مواطنهم ببلاد تامسنا، بل سارعوا إلى استنفار قواعدهم المذهبية ببلاد غمارة، بل وكذا في عمق الأندلس. وقد تمكنا في دراسة سابقة من إثارة انتباه الدارسين إلى جملة من المؤثرات المذهبية ذات الطبيعة الغامضة التي بصمت إحدى أكبر وأعمق وأطول ثورة اجتماعية بالوسط الحضري في تاريخ الغرب الإسلامي. ويتعلق الأمر بثورة عامة قرطبة التي أفردنا لها في حينه بحثا مستقلا[286].

---

[284] العبر، ج6، 279.

[285] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 141.

[286] عامة قرطبة، 213-42. وعن المكونات الإثنية والطبقية لعامة قرطبة ولطبقة العامة بالأندلس خلال الفترة الانتقالية بالغرب الإسلامي من نظام الجماعة إلى عصر الفرقة أنظر دراستنا: A. Tahiri, *Las clases populares en al-Andalus*, Editorial Sarria, Málaga, 2003, pp. 15-77.

وليس مصادفة أن يتلبس متزعم الثورة محمد بن عبد الجبار بعد طول الغيبة في "حال كتمان وخفية"[287]، بنفس فكرة المهدي المنتظر البرغواطية، سيما وأن عهد سابع ملوكهم قد حل خلال ذات التاريخ، وجميع البرغواطيين سواء بالمغرب أو الأندلس كانوا في انتظار رجعته. ولم يتأخر المخالفون من أهل السنة عن الطعن في هذا الزعم وتوجيه اللوم لقائد الثورة محمد بن عبد الجبار الذي قبل ركوب الموجة، فادعى المهدوية وهو "اسم لم يتلبس به أموي قط، فكان ذلك أول مناكيره"[288].

وقد أمكننا الوقوف على أسماء كبار مدبري الثورة "ممن فتن بمحمد المهدي وأسر معه التدبير"[289]، بما يكشف عن بصمات المذهب البرغواطي في ثورة عامة قرطبة، وهو ما لم ننتبه إليه في حينه[290]. وليس مصادفة أن ينعت كبير مدبري ثورة عامة قرطبة بـ"طرسوس المجوسي وكان أشهمهم"[291]. ومن المعلوم أن مؤرخي السنة لم يترددوا عن نعت البرغواطيين بالمجوس ونسبهم بدون تحفظ إلى المجوسية والكفر.

فقد خص ابن أبي زرع – على سبيل المثال – البرغواطيين بـ "أنهم مجوس أهل ضلال وكفر"[292]. ومن كبار مدبري ثورة عامة قرطبة نذكر أيضا "أبو سلمة الزاهد"[293] الذي ذاع صيته في الآفاق بكونه ممن كان آية في "الزهد والتشف"[294]. وقد بينا بما فيه الكفاية مدى انخراط المذهب البرغواطي،

---

[287] ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، رباط الفتح، 1934، 127.

[288] البيان المغرب، ج3، 61.

[289] ابن بشكوال، الصلة في أخبار أئمة الأندلس، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة 1955، ج1، 231.

[290] إلا أننا قد تمكنا في حينه من ربط إحدى أبرز مظاهرات عامة قرطبة ضد الحجابة العامرية ورموزها من أهل القلم السنة المحابين لمظالمها، بمذهب ابن مسرة. وهو ما عبرنا عنه حينئذ بالقول:"ولا يستبعد أن يكون المظطهدون من أتباع ابن مسرة وغيرهم ممن طاله لسان وسيف الفقهاء وراء هذا التحرك". عامة قرطبة، 209.

[291] البيان المغرب، ج3، 55.

[292] الأنيس المطرب، 130.

[293] الصلة، ج1، 231.

[294] الصلة، ج1، 231.

خصوصا منذ إمامة إلياس بن صالح في مدارج الزهد والنسك والتصوف. وليس أدل على تلبس ثورة عامة قرطبة بالمذهب البرغواطي، مما تواتر ذكره عن أهل القلم بحاضرة قرطبة ممن تجرد لتسفيه دعوى العامة والتقليل من شأن ثورتهم من خلال استلهام قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس ولا مهدي إلا عيسى بن مريم"[295].

وتسعفنا المصادر التاريخية للوقوف عمن تخلف من فلول وبقايا البرغواطيين كان لهم بعض التأثير في توجيه سياق الأحداث التاريخية، بعدد من جهات المغرب والأندلس خلال عصر الطوائف. فقد أشار ابن حيان إلى جماعة البرغواطيين الذين ساهموا في تدبير خلافة إدريس بن يحيى العالي وإعلانها بمالقة سنة 434 هجرية. كما ورد الخبر أنه "اجتمعت برغواطة الذين كانوا مع [القيم أبو الفوز نجاء العلوي]على قتله ... ونهضوا إلى الوزير أبي حعفر بن موسى فقتلوه وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه وبايعوه وتسمى بالعالي"[296].

وبالمثل، فـ"في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة هجم سواجات البرغواطي على رزق الله مستخلف الحموديين معه على سبتة وقتله وتسمى بالمنصور، واستبد بالأمر بعده"[297]. ويفصح ابن عذاري عن أصل "سواجات [إذ كان] مولى ليحيى بن حمود اشتراه من رجل حداد من سبي برغواطة وهو دون البلوغ"[298]. مما يكشف عن المصير المؤلم الذي آل إليه رجالات بلاد تامسنا وقبائلهم المصمودية التي تخطفتها السيوف، فما كان إلا أن سبيت نساؤهم واسترق أطفالهم.

---

[295] علماء الأندلس، ق2، 117. وقد روي هذا الحديث بسند ينتهي إلى "محمد بن إدريس الشافعي قال: نا محمد بن خالد الجندي قال: نا أبان بن صالح عن الحسن عن أنس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ...".

[296] البيان المغرب، ج3، 216-17.

[297] البيان المغرب، ج3، 250.

[298] البيان المغرب، ج3، 250.

وقد تمكن سوجات البرغواطي ويسمى أيضا سقوت البرغواطي من تأسيس أسرة برغواطية مالكة بسبتة وبلاد غمارة، ثم عهد لابنه العز بن سواجات بالحكم. وهو المشهور في المصادر التاريخية باسم الحاجب المنصور سقوت البرغواطي، الذي ظل في حكم البلاد إلى أن ازاحه المرابطون عن ملكه سنة 471 هجرية . وقد اعتبره البعض "آخر ملوك برغواطة: صاحب سبتة وطنجة"[299]. ويدرج ابن حيان مملكته ضمن المتغلبين من ملوك الطوائف بقوله: "وهذه نادرة من طخيات هذه الفتنة البربرية المبيرة، أن تخطت أرض هذه الجزيرة إلى ما وراء بحرها الزقاقي، هاجها سقوت البرغواطي المتغلب على مدينة سبتة"[300].

ويشير ابن بسام إلى المكانة الرفيعة التي تبوأتها مملكة سقوت البرغواطي بين كبريات ممالك الطوائف. وهي المعروفة في كتب التاريخ باسم "الدولة البرغواطية"[301]. إلا أن مملكة سقوت البرغواطي لا تندرج ضمن سلسلة ملوك بني طريف، ولا ضمن نسق المملكة البرغواطية في بلاد تامسنا. غاية ما في الأمر أن مؤسسها كان من سبي البرغواطيين المتنفذين بقاعدة سبتة، قد أفلح في ظل اختلالات الطوائف من إنشاء مملكة طائفية للبرغواطيين ببلاد غمارة.

مع ذلك، يبدو أن الأمور المذهبية قد ركنت خلال هذه الفترة إلى الهامش ولم تعد كما في الماضي تثير ما كانت تثيره من جدال. مصداق ذلك، ما ورد على لسان أبي الوليد بن جهور صاحب مملكة قرطبة الطائفية، الذي أورد تفاصيل طريفة بهذا الخصوص قائلا: "وردت علي من الكتب في يوم واحد، كتاب من ابن صمادح صاحب المرية يطلب جارية عوادة، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة، وكتاب من سواجات صاحب سبتة يطلب قارئا

---

[299] مفاخر البربر، 186.
[300] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس، ليبياتونس 1981، ق2 م2، 658.
[301] الذخيرة، ق2 م2، 661.

يقرأ القرآن"[302]. فاعجب لتبدل الأحوال بين من كانوا يذبون على السنة والجماعة، وبين من كانوا منسوبين للكفر والزندقة. فلم يتمالك ابن جهور عن التصريح لخاصته قائلا: "جاهل يطلب قارئا وعلماء يطلبون الأباطيل"[303].

وعلى غرار المحاولات المتكررة من أجل كر الدولة الأموية بالأندلس بعد أفول نجمها، يبدو أن بعض ما تبقى من فلول القبائل المصمودية ببلاد تامسنا، وغيرها من البطون القبلية المغربية المستمسكة بالمذهب البرغواطي، قد تمكنت من استجماع قواها لإعلان استئناف مملكة بني طريف ببلاد تامسنا خلال هذه الفترة المضطربة. وقد أفصح المؤرخون عن استمرار المذهب البرغواطي نشيطا في بلاد تامسنا على الأقل، إلى حدود هذا التاريخ فيما أوردوه من تفاصيل عن إغارة المرابطين من قبائل صنهاجة اللثام على بلادهم. فبعدما سيطر المرابطون على بلاد السوس، وفتحوا مدن سجلماسة وأغمات، وضموا بلاد تادلة سار بهم عبد الله بن ياسين"إلى بلاد تامسنا ففتحها فأخبر أن بساحلها قبائل برغواطة في عدد عظيم وأنهم مجوس"[304] وأنهم فضلا عن كونهم "أهل ضلالة وكفر، أخبر [أيضا] بما تمسكوا به من ديانتهم الخبيثة"، بما يذهب دليلا عن استمرارية المذهب البرغواطي – على الأقل – إلى حدود قيام دولة المرابطين.

وتتواتر الإشارات المصدرية بخصوص آخر ملوك بني طريف البرغواطيين الذي ظل يقارع التدفق الصنهاجي المنتظم في إطار دولة الملثمين المرابطية التي أفلحت في نهاية المطاف في وضع حد لمملكتهم ببلاد تامسنا[305]. ويتعلق الأمر بالأمير "أبي حفص عبد الله من أعقاب أبي منصور عيسى بن أبي

[302] البيان المغرب، ج3، 250.
[303] البيان المغربن ج3ن 250.
[304] الأنيس المطرب، 129.
[305] لمزيد من التفاصيل عن مراحل التوسع المرابطي بالمغرب راجع: A. Tahiri, "Los almorávides en el Magreb", in *Mauritania y España una Historia común, los almorávides unificadores del Magreb y al-Andalus (s. XI-XII)*, Granada 2003, pp. 181-93.

الأنصار عبد الله بن أبي غفير يحمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف"[306].

ولا تخفى المقاومة الشديدة التي أبداها البرغواطيون من أهل تامسنا المصموديين في مواجهة المشروع المرابطي الذي كاد أن يقبر على مشارف حاضرة البرغواطيين بشالة. وهو ما أشارت إليه المصادر التاريخية بالقول: وكانت بينهم "حروب عظيمة وملاحم شديدة مات فيها من الفريقين خلق كثير"[307]. وليس أدل على شراسة المعارك بين الطرفين، من نجاح البرغواطيين في اختراق القوات المهاجمة وقتل زعيم الحركة المرابطية عبد الله بن ياسين "سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ودفن بموضع يعرف بكريفلة بتامسنا"[308].

ما كان على المرابطين بعد هزيمتهم النكراء هذه، إلا أن استجمعوا قواهم ووكلوا قيادة حركتهم لأبي بكر بن عمر اللمتوني، موطدين العزم على اجتثاث المذهب البرغواطي، ومسح آثار مملكة بني طريف من الوجود. لم يتوقف الأمر عند ذلك، بل سرعان ما تطورت الأمور فيما يشبه عملية إبادة جماعية لمصمودة تامسنا. فقد "استمر أبو بكر وقومه من بعده على جهادهم حتى استأصلوا شأفتهم ومحوا من الأرض آثارهم"[309]. أما من تبقى منهم فقد تم إجلاءهم عن البلاد "وتفرقت برغواطة في الصحراء"[310].

وثمة إجماع لدى قدامى أهل القلم على تأريخ سقوط مملكة بني طريف ببلاد تامسنا وأفول نجم المذهب البرغواطي بقيام دولة المرابطين بالمغرب الأقصى. ولم يفلح صاحب كتاب الاستبصار في ضبط تاريخ حدوث ذلك بالدقة الكافية، إذ قال: "ولم يزالوا يتداولون هذه الديانة إلى غزو عبد الله بن ياسين

---

[306] العبر، ج6، 279.
[307] الأنيس المطرب، 132.
[308] الأنيس المطرب، 132. وما زال موضع قبر عبد الله بن ياسين مزارا إلى اليوم بالمكان المذكور، على مقربة من عاصمة المملكة المغربية بأحواز مدينة شالة الأثرية.
[309] العبر، ج6، 279.
[310] الأنيس المطرب، 133.

الجزولي إياهم وفنيت دولتهم سنة 499"[311]. بينما يسقط ابن عذاري[312] قرنا كاملا سهوا – فيما يبدو– إذ قال: "ولم يزل كثير من القبائل على مذهبهم إلى عام 352". بينما يضبط ابن الخطيب تاريخ ذلك على غير عادته بالقول: واتصل أمر برغواطة "إلى سنة اثنين وخمسين وأربعمائة وظهر أمر اللمتونيين...وانقرض ملكهم"[313].

[311] كتاب الاستبصار، 194.
[312] البيان المغرب، ج1، 227.
[313] اعمال الأعلام، 186- 87.

خاتمة

تجدنا إذا عند منتصف القرن الخامس أمام ثاني أكبر اختلال في التوازن القبلي بالمغرب الأقصى، ما زالت تداعياته السياسية والمجتمعية والثقافية متناسلة إلى اليوم. ويتعلق الأمر بتمزيق الكتلة القبلية المصمودية بنخرها من القلب، وبذلك تم فصل فروعها المستقرة بغمارة في شمال البلاد عن امتداداتها الجنوبية بالسوس. وهو الفراغ العمراني الذي لم تتمكن فروع قبائل مغراوة وبني يفرن الزناتية القادمة من هوامش المغرب الأوسط، ولا فصائل صنهاجة اللثام المتدفقة من الصحراء المغربية من ملئه. وبذلك، ظلت سهول بلاد تامسنا مجالا مفتوحا للأعراب الذين تدفقوا في شكل عشائر بدوية على مجمل بلاد المغرب خلال القرون اللاحقة، ناشرين الدمار والخراب في المدن والقرى، ومحولين عجلة تاريخ المغرب الأقصى للدوران بالقهقرى.

من ثم أهمية الانتباه إلى خطأ المقولة الشائعة التي روجتها المدرسة الفرنسية والسائرين في ركبها من المقلدين المغاربة، الذين نظروا – جهلا بفصول تاريخ المغرب – لاستقرار العرب بالسهول ولجوء البربر الأمازيغ نحو الجبال. وقد ربطوا ذلك – بالقفز في الفراغ نحو الخلف حوالي أربعة قرون – بفترة الفتوحات الإسلامية، التي لم يترتب عنها كما لاحظنا ذلك سلفا أي استقرار للقبائل العربية بالمغرب الأقصى.

والملاحظ أن التحليل العرقي الذي خلص إلى القول باستقرار العرب في السهول بينما لاذ البربر الأمازيغ بالجبال، قد تم تعميمه من طرف ليفي بروفنسال وجمهرة المقلدين المغاربة والإسبان على الوضعية المجتمعية

بالأندلس. وهو التصور الذي لا يعدو أن يكون مجرد تأملات انطباعية غير موثقة، تستمد أصولها من المناخ الفكري العام الذي صاحب الاستعمار الفرنسي للمغرب. ويتعلق الأمر بانطباع العسكريين الذي ذاقوا بأس مقاومة أبطال المغرب من أهل الريف بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي، فراحوا يميزون بين مغرب السهول النافع ومغرب الجبال الغير النافع، أو مغرب المخزن المسالم ومغرب السيبة المقاوم.

واضح من خلال هذا التحليل التاريخي للنسيج المجتمعي بالمغرب الأقصى، أن المجموعات القبلية الكبرى لم تتدحرج عن مواطنها الأصلية، منذ عصور ما قبل الإسلام إلى غاية منتصف القرن الخامس الهجري. فالكتلة النفزية قد ظلت بمواطنها القديمة في بلاد الريف، كما ظلت قبائل غمارة مقيمة إلى اليوم ببلدها. وبالمثل، استمر أهل السوس مستقرين بجبل درن والمناطق المجاورة. كما ظلت بطون بربر فازاز مستقرة بمواطنها المعروفة اليوم بالأطلس المتوسط. أما البرانس وفروعها من أوربة وصنهاجة فقد ظلوا في مرابضهم القديمة بأحواز سقوما ووليلي في اتجاه مقدمة جبال الريف، إلى غاية ساحل مدينة بادس. كما ظلت الكتلة القبلية المكناسية بفروعها المختلفة منتجعة بأحواز سجلماسة في اتجاه تخوم بلاد السودان، وعلى امتداد نهر ملوية نحو مصبه بزواغة جراوة. أما قبائل صنهاجة اللثام، فلم تبرح مضاربها بالصحراء المغربية الممتدة طوال الأزمنة الغابرة إلى مشارف بلاد السودان، إلى حين اندفاعها نحو الشمال في سياق حركة المرابطين.

إلا أن الشرخ الذي أحدثته السياسة الأموية والعامرية والفاطمية بالمغرب الأقصى خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، والإبادة التي مارستها صنهاجة اللثام ببلاد تامسنا خلال منتصف القرن الخامس الهجري، قد أسفر عن تمزيق النسيج المجتمعي بقلب المغرب الأقصى. ومن ثم انفسح

المجال أمام تغلغل القبائل البدوية الزناتية متدفقة من هوامش المغرب الأوسط. كما تدفقت أعداد غفيرة من قبائل لمتونة البدوية قادمة من بلاد صنهاجة اللثام. أسفر ذلك عن فقدان المغرب الأقصى لتوازنه العمراني، فما كان إلا أن دبت عشائر الأعراب البدوية من بلاد النوبة وصعيد مصر، بإيعاز من الفاطميين الشيعة حكام القاهرة، الذين وطدوا العزم منذ انسحابهم مرغمين من بلاد المغرب على الانتقام منه. وبذلك امتلأت الفراغات الواسعة بسهول تامسنا والغرب وفيما بين الممرات المترتبة عن قرون من الفتن القبلية، بالأعراب النازحين من الأطراف. ولم يكن لتدفق المهاجرين الأندلسيين على البوادي والقرى، وبالخصوص على مدن فاس ومراكش وسلا وتطوان طوال العصر الوسيط وبدايات العصر الحديث، أقل تأثيرا على النسيج المجتمعي للمغرب الأقصى.

تجدنا إذا أمام مغاربة بلديين متأصلين في الوطن منذ أقدم العصور، قد ساهموا خلال القرون الأربع الهجرية الأولى في صياغة تاريخ وحضارة المغرب الأقصى بغمارة وتامسنا وجبل درن المصمودية، وبسقوما ووليلي وفاس البرنسية، وبنكور النفزية، وبسجلماسة المكناسية. إنها قرون عز العطاء الحضاري التي ما زالت معظم فصولها مندرجة في طي النسيان ومنفلتة عن المعرفة التاريخية. ويتعلق الأمر بأول مفاصل تاريخ المغرب الأقصى التي ما زالت حلقاتها متناثرة إلى حد الانفلات ضمن متون المصادر التاريخية.

حقيقة أن المجموعات البدوية الزناتية والصنهاجية قد تمكنت من الاندماج في النسيج المجتمعي، والتحكم في القرار السياسي بالمغرب الأقصى خلال عصر الطوائف والمرابطين. إلا أن الكتلة المصمودية لم تتأخر عن الاندفاع في نهضة حضارية عمت العدوتين المغربية الأندلسية. ويخيل إلينا أن دعوة ابن تومرت والفكر المهدوي الموحدي قد استلهم بعض مبادئه من التراث

البرغواطي، الذي ظلت بصماته عالقة ببعض مناحي الفكر بالمغرب والأندلس، إلى حين قيام دولتهم. وهو ما ندعو مؤرخي الفكر المغربي إلى إمعان النظر في فصوله. ومنذ قيام دولة المرابطين إلى حين سقوط غرناطة اندرج تاريخ المغرب الأقصى ضمن مفصل ثان متميز ندعو المؤرخين إلى التثبت من حدوده المتناسقة في سياق صيرورة تاريخ الغرب الإسلامي.

وكم كانت الرجة المجتمعية والثقافية والعمرانية عنيفة بتوافد عشائر الأعراب البدوية في موجات متعاقبة من صعيد مصر خلال القرون اللاحقة. وبالمثل، فبينما اندمجت موجات الأندلسيين الأولى المتدفقة إثر سقوط طليطلة على بوادي الريف ومدن بادس والمزمة ومليلة وغساسة ومراكش وغيرها، ظل الأندلسيون ممن هاجروا على إثر سقوط غرناطة وخلال القرون المتأخرة إلى مدن فاس وتطوان والرباط وسلا منغلقين ضمن بيوتاتهم، يتربصون الفرص لاحتجان الثروة والتحكم في السلطان، متحفظين عن الاندماج في الوطن، محتفظين بحنين غامض لجذور مقتلعة، يورثون ذلك في الأعقاب.

أسفر ذلك عن صياغة ما يشبه ثنائية مجتمعية منشطرة: أعرابية أندلسية طارئة من مصر والأندلس، ومغربية بلدية متجذرة في تاريخ البلد منذ أقدم العصور. وهي المكونات التي ما انفكت تتداخل وتتشابك إلى حد الانصهار في شكل هوية مغربية متجددة، وإن في سياق الاختلالات الحضارية الكبرى التي انتهت بوقوع البلاد تحت طائلة الاستعمار. لعل في هذا التحليل ما يكشف عن سذاجة التصورات الشائعة لدى قطاعات هامة من الفكر المغربي المعاصر – سيما ممن يهملون تاريخ البلد ويستحبون نشوة التنظير الانطباعي – بوجود تقاطب مجتمعي بين البربر الأمازيغ من جهة، والعرب الطارئين من المشرق من جهة أخرى. ويصبح الجهل بالفصول الأساسية من تاريخ المغرب مركبا حين يتم ربط هذه الثنائية المزعومة بعصر الفتوحات الإسلامية.

وباستثناء آل البيت الذين كان لهم وقع خاص في قلوب كافة المغاربة الأمازيغ الذين جبلوا على حبهم وتقدير مقامهم وتوفير الموطن الآمن لهم فانحازوا إليهم أفرادا ــ منذ الوهلة الأولى ــ بعدما تخطفتهم سيوف الفتن المتعاقبة بديار المشرق وكادت تفنيهم، فليس هناك ما يفصح عن اختراقات عربية للنسيج المجتمعي المغربي خلال القرون الأربع الهجرية الأولى.

واضح من خلال هذا التحليل أن ثمة مقامات ضمن النسيج المجتمعي المغربي موروثة بشكل متناضد عبر الحقب التاريخية. ويتعلق الأمر في مقام أول بأصول مغربية بلدية ظلت تلامس ــ من خلال المجموعات الأمازيغية النفزية والبرنسية والمصمودية والمكناسية وكذا اللمتونية ــ كافة ربوع البلد متواصلة الحلقات بأعماق التاريخ. بينما تطالعنا في مقام ثان المستويات المجتمعية الحديثة العهد التي طرأت في ثلاث موجات متعاقبة:

1 ــ الموجة البدوية الزناتية المنسابة خلال نهايات القرن الرابع الهجري في سياق اختلالات عصر الفرقة من تخوم المغرب الأوسط نحو قلب المغرب الأقصى.

2 ــ الموجة الأعرابية من البدو الرحل المتدفقة من بلاد النوبة وصعيد مصر نحو بلاد تامسنا وسهول الغرب وأطراف الصحراء، منذ منتصف القرن الخامس إلى حوالي منتصف القرن السابع للهجرة.

3 ــ الموجة الأندلسية الطريدة من ديارها في إطار حركة الاجتثاث الصليبية وقد لاذت بمدن وبوادي المغرب الأقصى طلبا للأمان، على مدار الفترة الممتدة من منتصف القرن الخامس الهجري إلى غاية الهجرة الكبرى.

وبصرف النظر عن ضعف المؤثرات الإثنية العربية في كافة الموجات المذكورة، فمن المعلوم أن العمق الحضاري للعروبة الذي أفلح ــ أيامْ الجماعة ــ في احتضان ما يند عن الحصر من الأمم والشعوب لا يرتبط بعرق مفترض

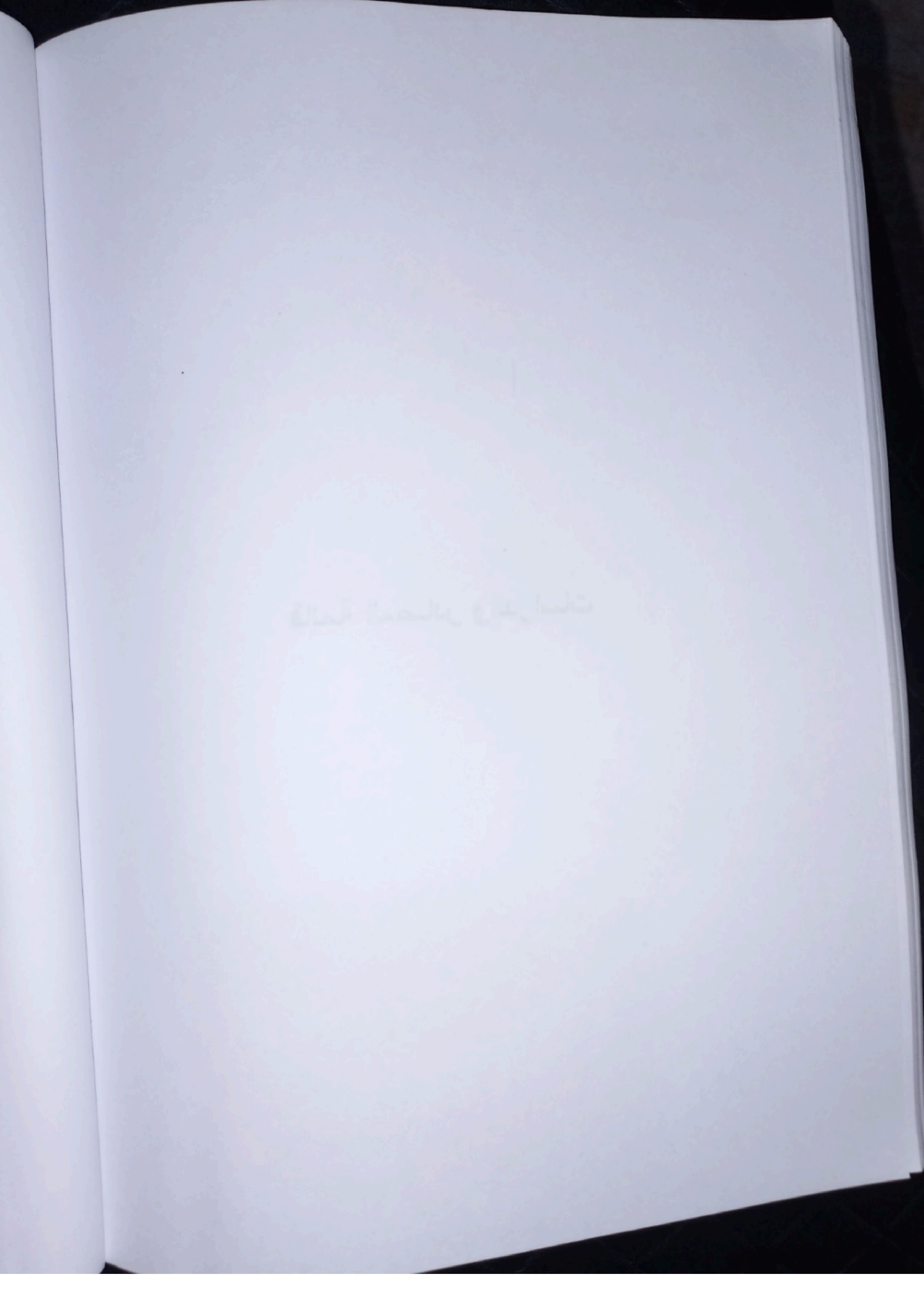
إلا في أذهان زمرة من أشباه المثقفين والمتحزبين وقادة العسكر ممن تاهوا في دروب الفتنة وتاقوا ـ زمن الفرقة ـ إلى التحكم قهرا في رقاب الخلق بمشرق خرائب دار الإسلام ومغربه.

تم الكتاب بحول الله

وحسن عونه

وتوفيقه

قائمة المصادر والدراسات



أولا: المصادر القديمة

ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت658هـ/1260م)

1ـ الحلة السيراء (=الحلة السيراء)، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1963.

ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي(ت741هـ/1340م)

2 ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (=الأنيس المطرب)، الرباط، 1972.

ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري(ت 630هـ/1232م)

3ـ الكامل في التاريخ، (=الكامل في التاريخ) تحقيق مكتبة التراث، بيروت 1994.

ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني(ت542هـ/1147م)

4ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (=كتاب الذخيرة) ، تحقيق إحسان عباس، ليبيا/تونس 1981.

ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك(ت578هـ/1182م)

5ـ الصلة في أخبار أئمة الأندلس (=كتاب الصلة)، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة 1955.

ابن الحاج، أبو عبد الله بن الحاج الشهيد (ت529هـ/1134م)

6ـ كتاب النوازل (=نوازل ابن الحاج)، مخطوط المكتبة العامة بالرباط، ج 55.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي(ت456هـ/1063م)

7ـ جمهرة أنساب العرب (=جمهرة أنساب العرب)، بيروت، 1983.

8ـ رسالة التلخيص لوجوه التخليص، ضمن الرسائل (=رسائل ابن حزم)، تحقيق إحسان عباس، ج3، بيروت، 1980.

9ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل (=كتاب الفصل)، تحقيق محمد إبراهيم نصر/ عبد الرحمن عميرة، بيروت، 1985.

ابن حماد، أبو عبد الله محمد بن علي (ت 628هـ/1230م)

10ـ أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم (=أخبار بني عبيد)، تحقيق التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، تونس، 1987.

ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي (367هـ/977م)

11ـ كتاب صورة الأرض (=صورة الأرض)، ليدن 1983.

ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف(469هـ/1076م)

12ـ المقتبس في تاريخ رجال الأندلس (=المقتبس 1937)، نشر ملتشور أنطونية، باريس، 1937.

13ـ المقتبس في أنباء أهل الأندلس (=المقتبس 1971)، تحقيق محمود مكي، القاهرة، 1971.

14ـ المقتبس ، ج5، نشر بيذرو شالميتا وفريديريكو كورينطي ومحمد صبح، المعهد الاسباني العربي للثقافة، مدريد، 1979.

ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت حوالي 300هـ/912م)

15ـ المسالك والممالك (=مسالك ابن خرداذبه)، تحقيق دس خويه، بريل 1889.

ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني(ت776هـ/1374م)

16ـ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام (=أعمال الأعلام 1934)، تحقيق ليفي بروفنسال، رباط الفتح، 1934.

17ـ المغرب العربي في العصر الوسيط من كتاب أعمال الأعلام (=أعمال الأعلام 1964)، تحقيق أحمد مختار العبادي/ محمد إبراهيم الكتاني، الدر البيضاء، 1964.

ابن خلدون، أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد(ت808هـ/1406م)

18ـ المقدمة (=مقدمة ابن خلدون)، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، 1958.

19ـ ديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (=كتاب العبر)، ضبط خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، 1981 .

ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ت 627هـ/1229م)

20ـ التشوف إلى رجال التصوف (=كتاب التشوف)، تحقيق إحمد التوفيق، الدار البيضاء، 1997.

ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت 673هـ/1274م)
21ـ كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان فرنيط خينيس، معهد مولاي الحسن، تطوان 1958.
ابن سهل، أبو الأصبغ عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي(ت486هـ/1093م)
22ـ كتاب الأحكام الكبرى (=الأحكام الكبرى) مخطوط المكتبة العامة الرباط، رقم 838 ق.
ابن سهل الرازي، أحمد بن سهل الرازي (توفي في الربع الأول من القرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر للميلاد)
23ـ أخبار فخ وخبر يحيى بن عبد الله وأخيه إدريس بن عبد الله(=أخبار فخ)، تحقيق ماهر جرار، بيروت 1995.
ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أعين بن ليث القرشي (ت257هـ/780م)
24ـ فتوح إفريقية والأندلس (=فتوح إفريقية والأندلس)، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، 1964.
ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد (ت 712هـ/1231م)
25ـ البيان المغرب، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب(=البيان المغرب)، نشر ج.س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، بيروت، 1980.
ابن الفرضي،عبد الله بن محمد بن يوسف(ت304هـ/916م)
26ـ تاريخ علماء الأندلس (=علماء الأندلس)، القاهرة 1966.
ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري(267هـ/889م)
27ـ الإمامة والسياسة (=الامامة والسياسة)، تحقيق طه محمد الزيني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت بدون تاريخ
ابن كثير، عماد لدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت 774هـ/1372م)
28ـ البداية والنهاية (=البداية والنهاية)، تحقيق عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غادي بيضون، بيروت، 2002.

ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك التوزري(القرن 6هـ/12م) وابن الشباط، محمد بن علي بن محمد المصري التوزري(ت681هـ/1282م)

29ـ تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نصان جديدان (= تاريخ الأندلس ووصفه)، تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد، 1971.

ابن وحشية، أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني(ق4هـ/10م)

30ـ الفلاحة النبطية، تحقيق توفيق فهد، (3 أجزاء) دمشق، 1993، 1995، 1998.

ابن هشام اللخمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت577هـ/1181م)

31ـ المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان، تحقيق خوسيه بيريث لاثارو، مدريد 1990.

أبو راس المعسكري، محمد بن الناصر المعسكري (ت 1238هـ/1824م)

32ـ الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية (=الحلل السندسية)، تحقيق سليمة بنعمر، ليبيا، 2002.

أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر(ت471هـ/1078م)

33ـ كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، 1982.

الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد الحسني السبتي(560هـ/1164م)

34ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (=نزهة المشتاق) مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة بدون تاريخ.

الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم محمد الفارسي الكرخي(ت 399هـ/1008م)

35ـ المسالك والممالك (=المسالك والممالك)، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني و محمد شفيق غربال، القاهرة، 1961.

البغدادي، عبد القاهر أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي البغدادي (ت 429هـ/1037م)

36ـ كتاب الملل والنحل (=الملل والنحل)، تحقيق ألبير نصري نادر، بيروت، 1986.

البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو (ت 487 هـ/1094م)

37ـ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، (= المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب) نشر دي سلان، باريس، 1965.

38ـ الأندلس وأروبا من كتاب المسالك والممالك،(=الأندلس وأروبا) تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، 1968.

البلخي، أبو القاسم البلخي(ت309هـ/921م)

39ـ مقالات الإسلامين، في كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة (=مقالات الإسلاميين)، تحقيق فؤاد سيد، تونس 1986.

البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى البغدادي(ت279هـ/892م)

40ـ فتوح البلدان، (=فتوح البلدان) تحقيق رضوان محمد رضوان، بيروت 1983.

الجزنائي، أبو الحسن علي الجزنائي الريفي (من أهل القرن 8 للهجرة/ 14 للميلاد)

41ـ جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس (=زهرة الآس)، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، الرباط 1991.

الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح الأزدي(488هـ/1095م)جذوة المقتبس في

42ـ تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، بيروت، 1983.

الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت900هـ/1494م)

43ـ الروض المعطار في خبر الأقطار(=الروض المعطار)، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1984.

الرقيق القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم (ت 425هـ/1033م)

44ـ قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب (=تاريخ إفريقية والمغرب)، تحقيق عبد الله العلي الزيدان و عز الدين عمر موسى، بيروت، 1990.

الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت 541هـ/1154م)

45ـ كتاب الجغرافية، (=كتاب الجغرافية) تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ.

الزياني، أبو القاسم بن أحمد(ت 732هـ/1331م)

46ـ الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا (=الترجمانة الكبرى)، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، المحمدية، 1967.

السنوسي، محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي (ت 1276هـ/1859م)

47ـ الدرر السنية في أخبار الدولة الإدريسية، القاهرة 1954.

صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن (ت462هـ/1069م)

48ـ كتاب طبقات الأمم (=طبقات الأمم)، تحقيق حياة العيد بوعلوان، بيروت، 1985 .

الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة(ت599هـ/1202م)

49ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس (=بغية الملتمس)، القاهرة، 1967.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري(ت310هـ/922م)

50ـ تاريخ الأمم والملوك (=الأمم والملوك)، بيروت، 1987.

عبيد الله بن صالح

51ـ نص جديد في فتح العرب للمغرب لعبيد الله، (=فتح العرب للمغرب) نشر ليفي بروفنسال، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المجلد 2، السفر 1ـ2، مدريد 1954.

العذري، أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس الدلائي (ت 478هـ/1085م)

52ـ ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك (=ترصيع الأخبار)، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965

القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض السبتي(ت544هـ/1149م)

53ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك في التعريف بأعلام مذهب مالك، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، 1982.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله (ت821هـ/1418م)

54ـ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الابياري، القاهرة، 1963.

مجهول،

55ـ كتاب مفاخر البربر،(=مفاخر البربر د 1020) مخطوط المكتبة العامة بالرباط رقم د 1020

56ـ كتاب مفاخر البربر (=مفاخر البربر ك 1275) مخطوط المكتبة العامة بالرباط، رقم ك 1275.

مجهول،

57ـ كتاب مفاخر البربر، ضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر بالغرب الإسلامي (مفاخر البربر 1996)، تحقيق محمد يعلى، مدريد 1996.

مجهول،

58ـ أخبار مجموعة في فتح الأندلس (=أخبار مجموعة 1867)، نشر إيميليو لافوينتي القنطرة، الأكاديمية الملكية للتاريخ، مجريط 1867.

59ـ أخبار مجموعة في فتح الأندلس (=أخبار مجموعة 1989)، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة ــ بيروت، 1989.

مجهول،

60ـ الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (=الحلل الموشية)، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، 1979.

مجهول،

61ـ كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، (=كتاب الاستبصار) تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، 1985.

المرتضى، المهدي لدين الله أحمد بن يحيى بن المرتضى بن المفضل بن منصور الحسني اليماني (ت 840هــ/1436م)

62ـ كتاب المنية والأمل في شرح الملل والنحل، تحقيق محمد جواد مشكور، بيروت، 1979.

المراكشي، محيي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي(كان حيا سنة 1224/621م)

63ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب (=المعجب)، تحقيق محمد بن سعيد العريان/ محمد العربي العلمي، القاهرة، 1949.

مسلمة المجريطي، الفيلسوف الحكيم أبو القاسم مسلمة بن أحمد الأندلسي المعروف بالمجريطي (ت 398هـ/1007م)

64ـ غاية الحكيم في الرصلد الفلكية والطلاسم الروحية، نشر محمود نصار، طبع بلبنان، بدون تاريخ.

المقري، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني(1041هـ/1631م)

65ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (=نفح الطيب)، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968.

الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي(ت1279هـ/1862م)

66ـ كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (=الاستقصا)، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، 1954 .

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(732هـ/1331م)

67ـ تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية الإرب في فنون الأدب (=نهاية الارب)، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، الدار البيضاء، 1985.

الوزان، الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي (توفي بعد عام 957هـ/1550 م)

68ـ كتاب وصف إفريقيا (=وصف إفريقيا)، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت 1983.

الواقدي، أبو محمد عبد الله بن عمر بن واقد المدني مولى بني هاشم (ت 207 هـ/822م)

69ـ فتوح إفريقية (=فتوح إفريقية)، تونس، 1966.

الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى التلمساني(ت 914هـ/1508م)

70ـ المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب (=المعيار المعرب)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1991.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي(ت 626هـ/1229م)

71ـ معجم البلدان (=معجم البلدان)، دار صادر، بيروت، 1995.

72- Crónica de Alfonso III «A. Sebastián», in *Crónicas Asturianas*, Introducción y edición crítica de Juan Gil Fernández, Universidad de Oviedo, Oviedo, 1985

ثانيا: الدراسات العربية الحديثة

إبراهيم خلف العبيدي

73ـ البرغواطيون في المغرب، منشورات الجامعة، الدار البيضاء، 1983.

أحمد الطاهري

74ـ "العامة والاتجاهات الفكرية بالأندلس في عصر الخلافة"، (=العامة والاتجاهات الفكرية) دراسات عربية، العدد 3، السنة 22، بيروت، 1986.

75ـ الطب والفلاحة بالأندلس بين الحكمة والتجريب، مساهمة في التأصيل التاريخي للتراث العلمي بالغرب الإسلامي (=الطب والفلاحة)، البيضاء 1997.

76ـ فصول منسية من تاريخ المغرب، إمارة بني صالح في بلاد نكور، الأصول التاريخية وبواكير النمو الحضاري والعمراني بالغرب الإسلامي (=إمارة بني صالح)، الدار البيضاء، 1998.

77ـ "بلاد الريف: المصطلح والعمران من خلال المصادر العربية"، ضمن التمدن والتعمير في جبال الريف بالمغرب، منشورات مجموعة البحث الجغرافي حول جبال الريف، كلية الآداب تطوان، 2003، 9ـ 17.

78ـ الفلاحة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد: من نظام التثمير التعاقدي إلى نمط الإنزال الإقطاعي، (=الفلاحة والعمران القروي) مركز إسكندرية للكتاب، إسكندرية 2004.

79ـ "المناخ الحضاري بالمغرب والأندلس وتقدم تقنيات ومناهج العلوم التجريبية"، ضمن مفهوم التقدم في العلم، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 2004، 123ـ 50.

80ـ "ابن وحشية، موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين"، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس (تحت الطبع)

آنخل جنثالث بالنثيا

81ـ تاريخ الفكر الأندلسي، القاهرة، 1955.

سحر السيد عبد العزيز سالم

82ـ المغرب في العصر الإسلامي، الإسكندرية، 1993.

عبد الرحمن سالم

83ـ التاريخ السياسي للمعتزلة حتى القرن الثالث الهجري، القاهرة، 1989.

محمد الطالبي

84ـ البرغواطيون في المغرب، الدار البيضاء، 1998.

محمد المنوني

85ـ المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح إلى نهاية العصر الحديث، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، ج1، الرباط 1983.

محمود إسماعيل

86ـ "المعتزلة بين النظر العقلي والعمل السياسي"، ضمن: الحركات السرية في الإسلام رؤية عصرية، بيروت، 1973.

87ـ الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري (=الخوارج في بلاد المغرب)، الدار البيضاء، 1976.

88ـ "المعتزلة في المغرب تأصيل تاريخي"، ضمن مغربيات دراسات جديدة، فاس، 1977.

89ـ "حقيقة المسألة البرغواطية، أضواء جديدة"، ضمن مغربيات، فاس، 1977.

90ـ "محنة المالكية في إفريقية المغربية رؤية اجتماعية"، ضمن مغربيات دراسات جديدة، فاس، 1977.

91ـ الأدارسة في المغرب الأقصى حقائق جديدة (=الأدارسة)، الكويت، 1989.

ثالثا: الدراسات بلغات أخرى

AUTOR ANÓNIMO,
92- "Yakuch, Dios Bereber", *Diario de África*, el 5 de Agosto de 1949, pp. 123-125

GAUTIER, E. F.,
93- *L´Islamisation de l´Afrique du Nord, Les siècles obscurs du Magreb,* Paris, 1927

MARÇAIS, G .,
94- *La Berbérie musulmane et l´Orient au Moyen Age*, Beyrouth 2003

PALACIOS, A., *Ibn Massarra y su escuela*, obras escogidas, T. I, Madrid 1946.

MARCY, G.,
95- "Les Dieux des Abâdites et des barguâta", *Hesperis*, T. XXII, Fasc.,I. Paris, 1936.

MEZZINE, L.,
96- "Sur l´etimologie du Toponyme Sijilmassa", *Hesperis Tamuda*, vol. XXII, 1984, pp. 19-25.

PALACIOS, A.,
97- *Ibn Massarra y su escuela*, obras escogidas, T. I, Madrid, 1946.

SLOUCH, N.,
98- "L'Empire des Bergouata et les origines des bledes siba", *Revue du Monde Musulman*, T. X, Nº 3, 1910.

TAHIRI, A.,
99- *Agricultura y poblamiento rural en Sevilla durante la época abbadí*, Área de Cultura y Fiestas Mayores. Ayuntamiento de Sevilla, Sevilla, 2001

100- *Las clases populares en al-Andalus*, Editorial Sarria, Málaga, 2003.

101- "El Magreb al-aqsa en la segunda mitad del siglo X. La intervención de Muhammad b. Abi Amir", in *Al-Andalus y el Mediterráneo en torno al año Mil. La época de Almanzor*, Colección Historia 3, Algeciras, 2003.

102- "Los almorávides en el Magreb", in Mauritania y España una Historia comun, los almorávides unificadores del Magreb y al-Andalus (s. XI-XII), Granada 2003 .

103- *El Rif en el Magrib y al-Andalus durante los primeros siglos del Islam (ss. VIII-IX)*, Fundación El Legado Andalusí, Granada (en prensa).

VALLVE BERMEJO, J.,
104- *La división territorial de la España musulmana*, C.S.I.C., Madrid, 1986

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

نشأة بلاد المغرب

فصول الانتقال من العهد القديم إلى دار الإسلام

الفصل الثاني

بواكير التيارات الفكرية والمذهبية

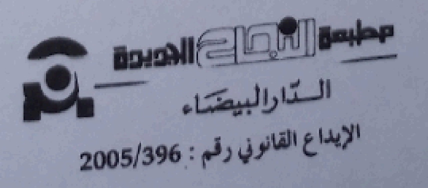
بالمغرب الأقصى

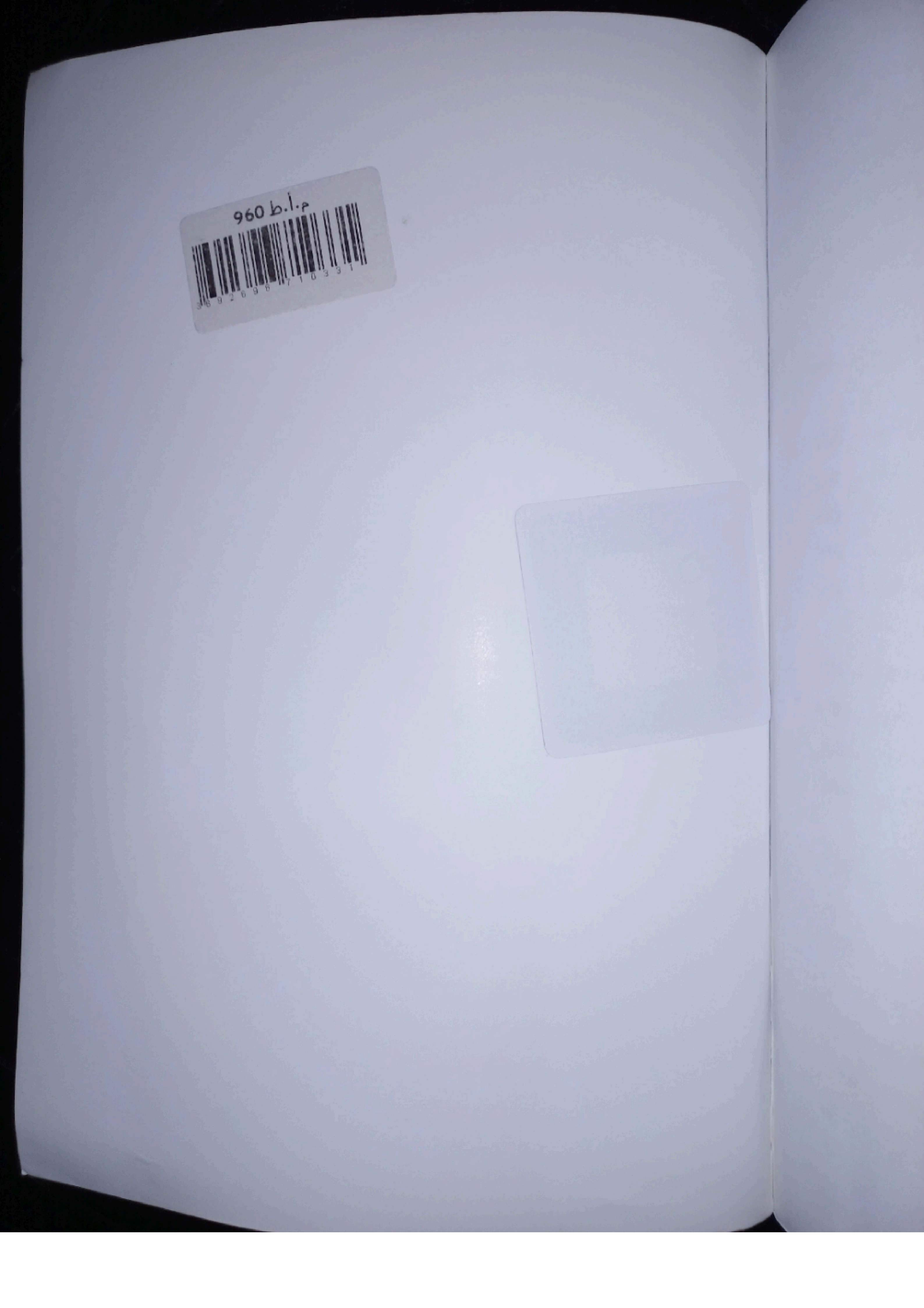
الفصل الثالث

إمارة بني طريف البرغواطية

ببلاد تامسنا




مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء
الإيداع القانوني رقم : 2005/396


م.أ.ط 960



الدكتور أحمد الطاهري

صدر للمؤلف

1– عامة قرطبة في عصر الخلافة دراسة في التاريخ الاجتماعي الأندلسي، الرباط 1989.

2– التاريخ الأندلسي من خلال النصوص (بالإشتراك)، الدار البيضاء، 1991.

3– دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس، عصري الخلافة والطوائف، الدار البيضاء، 1993.

4– الطب والفلاحة بين الحكمة والتجريب، مساهمة في التأصيل التاريخي للتراث العلمي بالغرب الاسلامي، الدار البيضاء، 1997.

5– فصول منسية من تاريخ المغرب، إمارة بني صالح في بلاد نكور، الأصول التاريخية وبواكير النمو الحضاري والعمراني بالغرب الاسلامي، الدار البيضاء، 1998.

6– نص أندلسي من العصر المرابطي مستخلص من أصل فلاحي مفقود لمحمد بن مالك الطغنري، اختصارات من كتاب الفلاحة، وضع ابن ليون التجيبي، دراسة وتحقيق، الدار البيضاء،2001.

7– فهرس كتب الطب والفلاحة والنبات المحفوظة بالمكتبة العامة بالرباط (بالاشتراك)، الدار البيضاء، 2002.

8– الفلاحة والعمران القروي بالأندلس، من نظام التثمير التعاقدي إلى نمط الانزال الإقطاعي، مركز إسكندرية للكتاب، الاسكندرية، 2004.

9– عامة إشبيلية في عصر بني عباد، الإمارات العربية المتحدة (قيد الطبع)

10- *Agricultura y poblamiento rural en Sevilla durante la época 'abbādī*, Área de Cultura y Fiestas Mayores, Ayuntamiento de Sevilla, Sevilla 2001.

11- *Las clases populares en al-Andalus*, Editorial Sarriá, Málaga, 2003.

12- *Rif el Magrib y al-Andalus. Organización del territorio en occidente islámico* Fundación el legado andalusí, Granada, en prensa.

13– كما صدر له ما ينيف عن خمسين مقالا في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس باللغات العربية والإسبانية والفرنسية والإنجليزية بالمجلات وأعمال الندوات والدوريات العلمية بالمغرب ومصر ولبنان وإسبانيا والبرتغال وفرنسا.